

ميرنا المهدي

طديقم السيكوباتي

رواية

الطبعة

6



اندفعت الطلقة من فوهة مسدس سالم وقد أُخرس دويها كاتم صوت السلاح الذي كان يخبئه بجرابه في سرواله من الخلف - كالعادة - لتستقر الرصاصة بمنتصف جبين الطيبية التي ظنت نفسها فطنة حين تركتهما يقصان عليها تفاصيل كل ما عاشاه من مآسٍ، وتظاهرت بالاستيعاب والحكمة والتعاطف والتفاهم، وطلبت منهما صورًا من البطاقة لتسليمهما إلى السلطات.

انفجرت ملامح هادي حين رأى خط الدماء الرفيع ينزل من جبين وجهها المحقون بالبوتوكس، ثم همس إلى سالم بحماس منقطع النظير:
- أنا اللي هقتل الممرضة.

هز سالم رأسه بلامبالاة، ثم أخذ المِرمدة التي دفن بها سجنائه طيلة الجلسة، ووضعاها في كيس بلاستيكي أخرجه من جيبه، ثم نهض ليأخذ دفتر الملاحظات الراقد بين يدي الطيبية القتيلة ويمزق كل الأوراق التي كتبت فيها سلوان عنهما حتى لا يترك أي دليل ضدهما.

انتبه هادي لحالة صديقه، فاستوقفه قائلاً:

- ما تصدقهاش يا سالم. إحنا مش سيكوباتيين، المجتمع هو اللي عايش دور الضحية.



ميرنا المهدي

صديقتي

السيكوباتي

رواية



telegram @
yasmeenbook



الكرامة

أعمال ميرنا المهدي

الصادرة عن دار الكرمة

قنبلة للاستخدام الشخصي

دليل جدتي لقتل الأوغاد

صديقي السيكوباتي

جاز وروك - قائمة أغاني السفاح المثالي

قضية ست الحسن - تحقيقات نوح الألفي ١

قضية لُوز مُر - تحقيقات نوح الألفي ٢

قضية عنب الثعلب - تحقيقات نوح الألفي ٣

telegram @yasmeeenbook



الكرمة

alkarmabooks.com

facebook.com/alkarmabooks

x.com/alkarmabooks

instagram.com/alkarmabooks

حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٥

© ميرنا المهدي ٢٠٢١، ٢٠٢٥

الحقوق الفكرية للمؤلفة محفوظة



telegram @
yasmeenbook

هذا عمل أدبي خيالي. جميع الأسماء والشخصيات والأماكن والأحداث الواردة فيه هي من نسج خيال المؤلفة، أو مستخدمة بشكل فني خيالي، ويجب عدم تفسيرها على أنها حقيقية. وأي تشابه مع أحداث أو أماكن أو منظمات فعلية أو أشخاص، أحياء أو أموات، فهو من قبيل المصادفة.

المهدي، ميرنا.

صديقي السيكوباتي: رواية / ميرنا المهدي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٥.

٣٣٦ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: 9789779603292

١ - القصص العربية.

أ- العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٣٢٧٠٠ / ٢٠٢٤

٦ ٨ ١ ٠ ٩ ٧

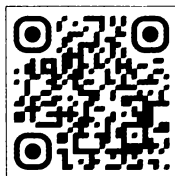
تصميم الغلاف: أحمد فرج

تنويه

هذه الرواية تتناول بعض الاضطرابات، مثل: السيكوباتية، والإدمان، والسادية، والانتحار، والبيدوفيليا، والقتل المتسلسل، مما يجعلها تحتوي على مشاهد قد تكون عنيفة للبعض، لذا لزم التنويه.

للحصول على تجربة مُثلى للقراءة

يمكنك الاستماع إلى قائمة الأغاني المذكورة في هذا العمل من خلال مسح الكود الآتي:



إهداء

إلى أمي، ومايا، وكل من آمنوا بي (كالعادة)
وإلى نفسي (على غير العادة)

رسالة

صديقي القارئ

أضع بين يديك الآن هذه الرواية في نسختها المنقحة الجديدة. إنها العمل الأقرب إلى قلبي، لأنها انتصار على حالة كبوة الكتابة (writer's block) التي أصابني منذ عام ٢٠١٧، وحتى باكورة عام ٢٠٢٠، بسبب كثير من الإحباطات الأدبية والشخصية التي باغتني في هذه الفترة.

أعتبر هذا العمل بداية تجاربي في الخروج عن نموذج روايات الألغاز الذي ابتدأته مع «تحقيقات نوح الألفي». وهو تعبير عن مرحلة انتقالية فكرية مهمة في حياتي، وهي مرحلة ما بعد التخرج من الجامعة، وترك الأحلام والطموحات الوردية، وبداية ارتطامي بعالم الراشدين بواقعه الرأسمالي المحبط الكئيب.

لذلك، أهديت إلى نفسي تلك الرواية حين أصدرتها، ولم أتوقع وقتها أنها ستلقى هذا الرواج، وأنها ستتغلب على سوء ظروف نشرها في عام ٢٠٢١، ولم أتخيل أن شخصياتها المجنونة التي رافقتني

في أثناء تلك الفترة الكثيرة من حياتي سيقابلها القراء بهذا القدر من المحبة والارتباط والتفاهم.

لهذا، أعتز بهذه الرواية، ويسعدني إعادة نشرها مع دار «الكرمة» الحبيبة، ويشرفني أن أسجل امتناني لكل مَنْ جاهدوا بكلماتهم الطيبة وروحهم المُحبة لإخراجي من فترة الشلل الأدبي التي مررتُ بها آنذاك، خصوصاً أمي وشقيقتي.

ميرنا

القاهرة، ٨ أغسطس ٢٠٢٤



telegram @
yasmeenbook

الفصل الأول

القاهرة، ٢٠١٩

حامت قطرة سالم عبد الرحيم السوداء حول فراشه، وتمسحت بساقيه، فربت على رأسها الزغب من دون أن يبعد نظره عن تمثاله الصغير الساكن بخزانة ملابسه منذ سنوات.

سلبته الحياة الكثير، وحطمت معظم ممتلكاته، إلا أنه مستعد أن يدفع عمره ثمنًا لحماية هذا التمثال الفخاري الذي نحتته أنامل سمراء ناعمة أتقنت تشكيل «سوبك» إله الفيوم ذي الجذع البشري مفتول العضلات، ورأس وذيل التمساح المتوج بقرص الشمس.

كلما غاص في تفاصيل التمثال، استرجع ما همست به خالقه الموهوبة في مثل هذه الليلة منذ ستة وعشرين عامًا وهي تهديه إياه: «علشان تفضل قوي وشجاع زي سوبك».

استفاق من ذكرياته حين عضت قطته إصبعه على سبيل المداعبة، فنهض عن الفراش، وأغلق الخزانة على التمثال، ووقف يحدق إلى انعكاسه في مرآتها.

لم يتغير كثيرًا خلال الستة والعشرين عامًا الماضية، ما زال يرتدي

نظارة مربعة، وما زال شعره قصيرًا لا يعلو عن رأسه المستدير إلا درجة واحدة.

صحيح أن اكتمال تكوينه جعل منكبيه يزدادان عرضًا، وقامته تزداد ارتفاعًا، فإن ما يميزه منذ طفولته وحتى هذه اللحظة، هو عدم تميز ملامحه.

أب وزوج مصري أسمر أصيل، قسماته تخلو من بهجة لا تعرف سوى الرتابة التي تناسب ملابسه النمطية، فيبدو للرائي أن سالم عبد الرحيم خمسيني سئم الحياة على الرغم من أنه لم يتخطَّ منتصف ثلاثينياته بعد.

بقي على جموده حتى وصل إلى أذنيه غناء زوجته حبيبة وهي تدنو من غرفتهما، تدندن مع صفاء أبو السعود التي أتى صوتها من الراديو بأغنية العيد الشهيرة:

غنوا معايا غنوا غنوا

قولوا ورايا قولوا قولوا

سألها سالم ببرود يتعاكس مع فرحتها الطفولية:

- أخوكي التافه، وصل؟

زفرت السمراء الحسناء، وعقدت حاجبيها وهي تنكئ على باب الغرفة:

- عمر مش تافه يا سالم، أنا أخويا...

- أخوكي بيتأخر، وأنا جعان.

داعبت شعرها الأسود القصير، وهمت أن تجيبه، لكن رنين جرس الباب استوقفها.

ماءت قطته، وأسرعت خارج الغرفة لتشبع فضولها الغريزي،
بينما علّقت حبيبة:

- شكل الجيران زهقوا من شقاوة ابنك ورجعوه لينا بدري.
خرجت من الغرفة، وكاد سالم يتبعها لولا أنه تذكر تركه علبة
سجائره وقداحت في جيب سرواله.
فتح الخزانة مرة أخرى، وفرد سرواله ليُخرج مراده، ثم اصطفى
سيجارة ما كاد يشعلها حتى سمع حركة غريبة من الخارج، تتبعها
صفقة باب، ثم صريخ زوجته مستغيثة:
- سالم!

ما فتئ أن تحرك من مكانه، حتى وجد أمام غرفته ملثمًا طويل
القامة، هزيل البنية، متشحًا بالأسود من أخمصي قدميه حتى وجهه
الذي أخفى ملامحه أسفل غطاء رأس أسود صوفي، به ثقبان فقط
للنظر.

كان يتخذ زوجة سالم رهينة، يضغط على عنقها الرفيعة بيد، ويوجّه
فوهة مسدسه صوب رأسها باليد الأخرى، فطغى الرعب على ملامح
حبيبة الرقيقة، وصرخت مرتعشة:

- الحقني يا سالم!
حذق سالم إلى عيني المجرم بصمت، فحص هيئته ومسكته
للمسدس، ثم أغلق خزانته على مهل، واقترب منه بتؤدة لا تليق بهيبة
الموقف، فإذ بالملثم يحوّل مسدسه صوب سالم، ويصيح بصوت
عريض مبتذل:
- مكانك!

لم تهتز شعرة بجسد سالم، أشعل سيجارته بأريحية، ثم نفث دخانها على مهل، وقال:

- رنيت الجرس ليه؟ بتستأذن قبل ما تقتلنا؟
أعاد المثلث مسدسه صوب رأس حبيبة، وقال:
- لو قربت هقتلها.

وضع سالم يديه بجيبَي منامته الرمادية، ومر بجوارهما في طريق خروجه من غرفته قائلاً لزوجته:
- هغرف لنفسى لحد ما تخلصوا هزار.

فور أن خرج من الغرفة، خلع عمر شقيق حبيبة غطاء رأسه، وأنزل مسدسه البلاستيكي عنها بعد أن حررها من قبضته المرتخية من الأساس، ثم سألها:

- هو هرش المقلب إزاي؟

نكرت الشقيقة كتف أخيها الصغير، وقالت:

- مش قلتك ما تتكلمش! أديه عرف صوتك والمقلب باظ.

* * *

دخن سالم سيجارته الخامسة، مداعبًا قطته المرتخية على أريكته السوداء أمام شاشة تلفازه الضخم التي تعرض فيلم «Saw»، الذي يجد به ابنه أدهم لذة كبيرة تصل إلى ذروتها كلما رأى البطل ذا القناع الماخن يذبح ضحاياه، لتسيطر دماؤهم المتطايرة على المشهد.

قلد أدهم الصغير، الذي تتطابق ملامحه مع ملامح أبيه، صرخات المعذبين في الفيلم وهم يستنجدون بالإنجليزية، فأفزع قطه أبيه.

نهضت القطة عن الأريكة، وتمطت بقوائمها اللينة، ثم تركت الصالة واتجهت إلى غرفة سالم المظلمة الهادئة. في أثناء ذلك، خرجت حبيبة من المطبخ حاملة أطباق الطعام، فهيمنت رائحة كل ما لذ وطاب على حواس سالم وهو يتابعها ترص الأطباق على المائدة التي تتوسط الصالة الفسيحة بمساعدة أخيها. انتبهت وهي تضع صينية الرقاق لصوت ابنها المحقر من عذاب الآخرين، فصاحت فيه:

- أدهم! مش قلتلك تحول على الفيلم الوحش ده!
أسرعت صوب التلفاز، وانتشلت جهاز التحكم من على الطاولة وأطفأته، فجادلها صغيرها:

- إשמعنى بابي بيتفرج عليه؟
- لما تبقى أد بابي ابقى اتفرج زيه. يلا ناكل.
نهض أدهم مزمجراً كجرو متمرد يضرب الأرض بقدميه الصغيرتين في طريقه إلى المائدة، بينما أطفأ والده سيجارته ونهض ليترأس مائدة الطعام.

جلس عمر على الكرسي المجاور لشقيقته وهو يمازح سالم:
- عيد سعيد يا أبو نسب. كل سنة وإنْتَ هارش مقابلنا.
لم يلتفت إليه، انشغل بطبقه، بينما جلست حبيبة بجواره تربت على كتفه في محاولة لاستمالته:
- أزودلك اللحم؟

- هو إنتي مش وعدتيني إبريل اللي فات إن دي آخر سنة تمارسي عليّ خفة ظلك إنتي وأخوكي؟

- أسرع عمر يفسر بالنيابة عن أخته بابتسامته المتصابية نفسها:
- ووفت وعدّها. إحنا ما عملناش كدبة إبريل. عملناها في يوليو أهو، ومع ذلك ما دخلتش عليك يا حويط.
- راقبت حبيبة ملامح زوجها الجامدة التي لم تَلن مع ضحك عمر، فابتسمت بتوتر معلّقة:
- ما إنت عارف يا سالم، من صغرنا وإحنا ما بنعرفش نعدي سنة من غير كدبة إبريل.
- رمقها بحدة كانت كفيلة لتبتلع ضحكاتها وتتركه يكمل حساء الكوارع بهدوء.
- التفتت إلى أدهم مداعبة رأسه لتخفف التوتر الراقد على المائدة:
- قلت ميرسي لبابي على العيدية؟
- وبُسته كمان.
- سأله خاله:
- هتجيب إيه بقى بالعيدية دي كلها؟
- هجيب لعب لخروفي.
- التفت أدهم إلى سالم يسأله:
- بابي، هو خروفي هيرجع البيت إمتى؟
- يرجع إزاي بعد ما اتدبح؟
- فغر أدهم فاهه الصغير مشدوّهًا بالخبر المفجع الذي أذاعه أبوه عليه، بينما صُغت حبيبة من شناعة رد سالم الذي تجاهل ردود أفعالهما واستأنف طعامه.

نفرت العروق في وجه أدهم، واحتل الغضب قسماً وجهه الصغير، فصاح في حبيبة:

- إنتي قلتيلي مش هتقتلوا خروفي السنة دي.

همت حبيبة أن تبرر موقفها، لكن سالم قاطعها ببرود:

- ده مش خروفك يا أدهم.

- لأ خروفي! أنا اللي بأكله وبلعب معاه و...

- وأنا اللي اشتريته، وأنا اللي قررت أأكله للفقرا. مش كل سنة

هنتناقش النقاش ده يا أدهم. لو عايز تربى خروف، حوَّش

واشتريه بفلوسك وربيه زي ما أنا بربي قطتي.

عجز أدهم عن إيجاد رد يُجابه منطقياً أبيه، فما كان منه إلا أن قلب

طبق طعامه اعتراضاً. كادت أمه تزجره، لكن سالم استوقفها بإشارة من يده وهو يقول ملتفتاً إلى أدهم بالهدوء نفسه:

- تحب تكسر إيه تاني علشان تهدي أعصابك؟

اغتاظ الصغير أكثر، وألقى كوبه الزجاجي أرضاً فتهشم، ثم نهض

دافعاً كرسيه بعنف، وصاح بنبرة تهديد لا تليق بحجمه الصغير:

- إنت قتلت خروفي!

ترك الصالة، فهتّت حبيبة أن تلحقه، لكن سالم نصحتها بحكمة:

- اديله مساحته. كفاية إنك عشمته بالكذب.

- يعني في النهاية أنا اللي غلطانة علشان بسايس طفل صغير؟

وضع لنفسه مزيداً من اللحم الأحمر مجيباً:

- طول ما بتعامله على إنه طفل مش هيكبر.



- وإنت لما كل سنة تربى الخروف فى بيتنا وتعلق ابنك به بعدها تدبحه، هيكبر بطريقة سوية؟
- اللي يتعاطف مع الخرفان عمره ما هيبقى سبع يا حبيبة.
- العنف ده اللي هيخليه سبع؟
- عنف! ده على أساس إني مفطره ومعشيه بعلقة؟
- العنف مش لازم يكون بالضرب. الخطاب الأبوي اللي بتستخدمه فى تربيته بـ...
- إيه اللي فكرك بشغل علم النفس التربوي دلوقتي؟ مش كنتي بطلتيه قبل الجواز؟
- استخدمت أقصى قواها لانتقاء رد يليق باستفزاز وبرود زوجها من دون أن تهينه أمام أخيها.
- ولأن عمر يعرف أخته كما يعرف كفه، فهم من ملامحها أنها على وشك أن تفقد صبرها، فقال بابتسامته التي لا تفارقه:
- اهدوا يا جماعة إحنا فى عيد، أنا شايف إننا نصلي على النبي كده و...
- وأنا شايف يا عمر إنك ما تدخلش البيت ده تاني إلا لما تتعلم تحترم صاحبه.
- ذابت ابتسامة عمر المرححة، وانقبضت ملامح حبيبة وهي تجزُّ على أسنانها صائحة:
- سالم!
- كاد عمر يعلق، لكن النظرة الحادة التي حدجه بها سالم حبست

كلماته قبل أن تندفع من بين شفتيه، وأثر أن يسعل مصفياً حلقه، ويقول بنبرة تشي عن وطأة حرجه وانزعاجه:
- تمام، عن إذنكم.

أسرع في الرحيل، فقامت حبيبة تتبعه، وما إن نهضت حتى جذبها سالم من معصمها الناعم، وأحكم قبضته عليه، قائلاً بنبرة هادئة يشوبها الكثير من نظرات الترهيب:

- إيه الغرض من المقابل اللي بتعملوها إنتي والأراجوز ده فيا؟ صفق عمر الباب خلفه، فضاعت فرصة أن تعتذر إليه شقيقته.
أبقى سالم قبضته على حبيبة من دون أن تلين نظراته الحادة التي أرعبت قلبها، فأجابته وقد جف حلقها من التوتر:

- بنهرج يا سالم. كنا بنعمل المقابل دي في بابا وماما قبل ما ربنا يرحمهم و...

- أنا رفضت التصرف ده أكثر من مرة وإنتو مكملين. ده معناه إنكم مش بتحترموني. مش بتحترموني يعني بتيجوا عليا. وأنا ما بحبش حد ييجي عليا يا حبيبة.

لم يصح سالم فيها، ولم يهددها بشيء، ولم يفقد أعصابه ويتمكن منه الغضب، ومع ذلك ارتعشت حبيبة وأخفق قلبها بقوة.

إنها تلك النظرة التي يرمقها بها من وراء نظارته، نظرة تجعلها تعيد التفكير في طبيعة ذلك الرجل الذي تنام بجواره كل ليلة منذ ثماني سنوات، وتستعجب كيف يكون بهذه البساطة وهذه الهيبة في الوقت نفسه.

اغرورقت عيناها الواسعتان بالدموع رغماً عنها، ثم قالت بنبرة خافتة:

- إيدي يا سالم!

أدرك شدة قبضته عليها، فحرر معصمها بعدما تركت عليه أصابعه الطويلة علامات حمراء.

عاد إلى طبقه، وما كاد يأخذ ملعقته الأولى حتى سمع حبيبة تشهق وتصيح:

- أدهم؟!

رفع سالم نظره عن طبقه ليجد ابنه الصغير حاملاً قطته السوداء، قابضاً على عنقها بعنف، ممسكاً بسكين حامية سرقها من المطبخ، وبعينه غضب وانتقام لا يتماشيان مع ملامحه الملائكية.

- هدبح قطه بابي زي ما دببح خروفي.

اندفعت صوب ابنها، وسحبت منه السكين بيد، وخلصت القطعة - التي ركضت صوب سالم واختبأت بين ساقيه - باليد الأخرى، ثم صاحت في أدهم:

- إنت اتجننت؟ هتقتل روح يا أدهم؟ عايز ربنا يزعل منك في

الآخرة، وفي الدنيا تبقى مجرم وتدخل السجن؟

- إشمعنى بابي قتل الخروف وما دخلش السجن.

عجزت عن إيجاد رد يناسب ذلك الموقف العبيث الذي لم تر له مثيلاً بين منهج قسم علم النفس بكلية الآداب، فالتفت إلى سالم الذي يملك جواباً لكل معضلة، واستنجدت به بعينها، فقرر أخيراً أن يضع وليمة عيد الأضحى وينهض عن المائدة.

أخذ السكين من حبيبة، ثم جثا على ركبتيه أمام أدهم وهو يقول:
- أنا مبسوط منك. الراجل ما يسكتش على اللي ظلمه. بس لما
تيجي تاخذ حقك، اتعلم تئذي اللي أذاك وما تاخذش حد بذنبه.
صدم رده حبيبة أكثر من رد فعل ابنها الأرعن العنيف، فصاحت فيه:
- إنت بتقول إيه! الكلام ده غلط ما ينفعش.

ابتلعت كلماتها، وتكاد تقسم إنها فقدت النطق بشكل مؤقت حين
رأت سالم يمد يده بالسكين صوب أدهم وهو يقول له:

- لو عايز تنتقم بصحيح، يبقى اقتلني أنا. بس خليك عارف
إني لو مت مامتك مش هيبقى عندها زوج، وإنت هتدخل
السجن، ولما تطلع منه مش هتلاقي شغل، يعني مش هتبقى
ظابط زي ما بتحلم. ده تمن انتقامك يا أدهم، لو مستعد
تدفعه، اتفضل.

قرب السكين إلى كف صغيره الناعمة أكثر، لكنه أبى أن يأخذها منه.
نكس الفتى رأسه للأرض بخزي، ثم همس إلى أبيه:

- أنا زعلان منك، بس مش عايزك تموت.
لم تنطفئ نيران غضبه كلياً، لكنها خفت قليلاً حتى اقترب من أبيه
بعينين ثائرتين، لكن بقلب مسامح، وعانقه قائلاً:
- أنا عايزك تفضل عايش.

ربت سالم على ظهر صغيره، ثم أمره:

- شاطر. ارجع كمل أكلك.
تركه الصغير وذهب إلى المائدة، حيث تختبئ القطة التي كاد
يذبحها، فجلس ليأكل.

همَّ سالم أن يتبعه ليكمل وجبته التي لم يهنأ بها، لكن حبيبة جذبتَه من ذراعِه، وقالت بصرامة مفاجئة:
- عايزاك في الأوضة حالاً.

* * *

دخل عمر، بزي النينجا الأسود المتصابي الذي يرتديه، إلى الاستوديو الصغير الذي يعيش فيه بالشارع الخلفي لشقة حبيبة وسالم بمنطقة دجلة في المعادي.

فتح باب مسكنه الفوضوي الذي يكاد ينطق «هنا يقطن عازب أرعن»، وولج الصالة، لكن استوقفت أنفه رائحة غريبة. عطر ذكوري نفاذ، له طابع باريسي، وجاذبية يستحيل تفويتها.

تعجب متسائلاً عن مصدر تلك الرائحة التي احتلت شقته، فهو لا يتعطر إلا إذا كان خارجاً في موعد غرامي.

تجاهل الرائحة النفاذة المهيمنة على الصالة، ووقف في الظلام بالقرب من الباب طالباً رقم هاتف الباغية التي يواعدُها، لكنها لم تُجِب تلك المكالمات تماماً كالخمس والثلاثين مكالمات التي سبقتها.
- ما هي نقصاكي يا ليالي!

قبل أن يشعل ضوء مسكنه، التقطت أذناه أصواتاً شتى؛ دقائق ساعة الحائط، تغريد عصافير الظهيرة المتخذة الشجرة المجاورة لنافذته منزلاً، نداء بائع بلالين العيد، بكاء رضيع جارتِه رولا، صوت شد أجزاء سلاح. كان الصوت الأخير دخليلاً عليه، فانتفض والتفت ليتبين مصدره الذي لم يشكَّ للحظة أنه داخل منزله، بل في الصالة نفسها التي يقف بها، بل على بُعد خطوة منه.

أصاب التخمين، فور أن استدار وجد رجلاً فارع القامة، رياضي البنية، يرتدي بدلة بيضاء من النايلون تشبه ما يرتديه العمال بالمناحل، لتغطي أجسادهم من رؤوسهم حتى أقدامهم، وتخفي وجوههم بشاشة شفافة.

ألصق ذاك الضيف ذو الزي الغريب فوهة مسدسه بجبين عمر. في البداية ارتبك عمر، لكن بعد لحظات انفرجت أساريره وضحك:

- دي فكرة حبيبة صح؟ يا ولاد الصايعة! عملتوا الفيلم ده وطردتوني من البيت علشان آجي ألاقك مستنيني يا سالم؟ أصيع كدبة إبريل اتعملت فيا! ضحك المثلث مرتدي البدلة البيضاء، وأزاح الشاشة الشفافة التي تغطي وجهه، ثم خلع القناع الأسود الصوفي الذي كان يرتديه من أسفلها.

ارتبك عمر حين رأى وجه حامل المسدس الكاتم للصوت، الذي همس إليه بضحكة مكبوتة:

- دي مش كدبة إبريل يا مسيو عمر! أطلق مرتدي البدلة البيضاء رصاصة استقرت في رأس الشقيق خفيف الظل.

الفصل الثاني

فهم سالم ممن ورث أدهم عصبيته، حين وقفت حبيبة في غرفتهما تصيح فيه وهي تضرب الأرض بقدميها، وتشوح في الهواء بكفيها المكتنزتين، وقد برزت العروق الحمراء بعينيها الداكنتين، وتحولت نظرة الخوف التي اعتلتها منذ لحظات حين قبض سالم على معصمها، إلى غضب وحنق عندما تعلق الأمر بصغيرها.

لم يعلق سالم، تركها تفرغ شحنة الغضب والتوتر التي فاقت تحمُّلها، حتى اختتمت صياحها قائلة:

- ابني كان عايز يقتل روح. كان هيدبحها قدامنا. أنا ابني هيطلع مجرم. لأ ومش أي مجرم عادي. مجرم سيكوباتي.
رنت في أذني سالم تلك الكلمة الدخيلة على معجمه، وكاد يعلق أخيراً على حديث حبيبة ليستفسر عن معناها، لكنه تراجع حين وجدها ترفع سبابتها القصيرة صوبه قائلة:

- إنت السبب. إنت اللي علمته العنف بالأفلام الزفت اللي بتفرجه عليها، وبمعاملتك الباردة له، وفي النهاية جاي تقوله اللي يئذيك ائذيه وبتمسكه سكينه!

ثَبَّتْ نظارته على أنفه، وسألها بجدية:

- يعني إيه سيكوباتي؟

كانت هذه القشة التي قصمت ظهر البعير.

زمت شفتيها حتى لا تنطق بما لا يمكن التراجع عنه لاحقًا،
فأثرت أن تَبْدُ ثورتها في مهدها وتتجه صوب الخزانة.

راقبها سالم وهي تُخرج حقيبة السفر وتملأها بشياها، فبقي على
الكرسي المقابل للنافذة التي ينعكس منها ضوء شمس الظهرية على
ملامحه الفرعونية وهو يقول:

- أنا مش هرَجَّعك من بيت أخوكي. لو مصممة تغضبي روعي
لخالتك سعاد، بتعمل عصير ليمون باللبن ممتاز.

- هو إنت كنت بارد ومستفز كده طول عمرك يا سالم، وأنا علشان
حييتك ما أخذتش بالي، ولأ إنت بقيت كده بعد ما الجواز خلاك
تضمن وجودي معاك؟

- أنا مش ضامن وجودك. أنا عمري ما ضمنت أي حاجة في
الدنيا يا حبيبة.

- أو مال بقيت قاسي معايا كده ليه؟

- يعني دلوقتي أنا قاسي معاكي، وعنيف مع ابني. مش حاسة
إنك متحاملة عليا؟

- وإنت مش حاسس إنك ما بقيتش تحبنا؟

- أنا مقصر معاكم في إيه علشان تقولي كده؟ الشيء قبل ما
تطلبوه بيبقى عندكم.

- مش ده الحب يا سالم. ده تأدية واجب مش أكثر.

ظل صامتًا كتمثاله الفخاري العزيز.

صحيح أنه لم يشعل نيران الجدل بينهما أكثر من ذلك، ولم تملكه الحمية للرد عليها بغضب، لكنها تمت لو أغضبه اتهامها له ونفاه عن نفسه بحدّة. لكنه لم يبال، أشعل سيجارته، ونفث دخانه، وظل ينظر إليها بثبات حتى سألها:

- تحبي أعبرك عن حبي إزاي يا حبيبة علشان نخلص من النكد ده؟

أمسكت دموعها، فقد أيقنت أن عبّراتها لا وزن لها عنده.

أكملت وضع ثيابها في الحقيقة من دون تعليق، فتنهد وقال:

- لو سَيَّانك للبيت هيرحك، أنا معنديش مانع.

أجابته بغضب مختنق جعل صوتها يخرج كفحيح الأفعى وهي تغلق سحّاب الحقيقة:

- معندكش مانع! دي حاجة نضيفها لليسته الحاجات اللي مش

عندك، زي الدم والإحساس والمشاعر يا سيكوباتي يا متبلد

العواطف!

حك رأسه بفضول:

- إيه بقى الكلمة الجديدة اللي إنتي فرحانة بيها دي.

صاحت فيه فاقدة آخر ذرة صبر عندها:

- روح لدكتور نفسي يشرحلك، وأهو بالمرة يعالجك

ويخلصنا!

* * *

صعد صوت الأكورديون، فتنهّدت إيديت بياف، ثم ترنمت
بحنان:

ذاك الهوى يلاحقني ليلاً ونهاراً

ذاك الهوى لم يولد اليوم

قد أتى من حيث أتيتُ

يقوده مائة موسيقار

يومًا ما سيدفعني ذاك الهوى إلى الجنون

مائة مرة أردت أن أسأله لمَ

ولكنه قاطع كلماتي

فهو دائماً يسبقني بالحديث

ويعلو صوته حتى يغطي على صوتي

ذاك الأربعيني المدعو هادي الحكيم، لم يولد في عصر الفن
الذهبي، حيث الأحاسيس المرهفة والفساتين المنفوشة وشعور
الرجال اللامعة بالفازلين. ولكنك حين تراه الآن وهو يكرر مقطعه
المفضل من أغنية «Padam» بلكنة باريسية ممتازة، بينما تنعكس شمس
الظهيرة على نظارته «الريان» السوداء، وتداعب شعره البني الناعم
نسمات صيفية ولجت عبر السقف المكشوف لسيارته الكلاسيكية
من فئة «MGB Convertibles» موديل ١٩٧٢، ستتيقن أنه جذاب ذو
كاريزما ملكية لا تناسب هذا العصر المبتذل.

حمل الهواء عطره النفاذ صوب سيارة بها مجموعة من بنات جامعيات
في طريقهن إلى الساحل الشمالي احتفالاً بالعيد، فالتفتن صوبه مبتسمات.

بادلهن بابتسامته الساحرة، ثم زاد سرعته وهو يراقص الأسفلت
مندمجًا مع موسيقاه وسمائه والصبا التي تعانق بشرته الحنطية
المتوهجة.

* * *

وقف هادي في ردهة الفندق أندلسي التصميم، الذي يطغى اللون
الفيروزي على تفاصيله، ليراجع موظف الاستقبال بياناته.
كان يتحدث في هاتفه عبر سماعة البلوتوث، بينما يتابع الموظف
وهو يرن الجرس الصغير الموضوع على مكتب الاستقبال، فظهر
حمّال الحقائب مليئًا النداء كالجنّي، يرافقه موظف علاقات النزلاء.
أخذ الحمّال حقيبة هادي الجلدية الثقيلة، بينما قاده موظف
علاقات النزلاء إلى المصعد في صمت محترف، حتى لا يقاطع
مكالمته.

رافقهما هادي حتى الطريقة المؤدية إلى غرفته وهو يقول لمحدثه:
- أنا كده وصلت.

فتح الموظف باب الغرفة وأشار إلى هادي بالولوج، فدخل
ثم وضع يده في جيبه مستوقفًا الموظف والحمّال اللذين همّا أن
يرحلا بابتسامة مضيافة، وأعطاهما بقشيشًا سخيا وهو يقول لهما
بأرستقراطية فرانكوفونية:

- ميرسي يا مسيو.

شكره الموظفان على سخائه، ثم رحلا بهدوء.
بمجرد أن وطئ الغرفة، وقف أمام مرآة الخزانة مستكملًا
مكالمته وهو يعدل شعره الكثيف الذي عبث به الريح، ويهندم ياقة

قميصه «البولو» الزهري، ويعدل خصر سرواله البيج، ويتفقد ساعته «الرولكس» الذهبية المرصعة بالألماس.

غرق في نظراته النرجسية التي تحمد أناقته ووسامته التي تليق بالشاشة الفضية، إلى أن قالت هايدي بنبرة مَن تجرعت نهرًا من الخمر:

- باسورد الخزانة واحد وعشرين حذاشر.

دفع المرأة التي كانت بابًا جرارًا للدولاب الذي قبعته بداخله الخزانة المقصودة.

ضرب الرقم الذي أملته عليه، رنت الخزانة، أدار قفلها، فتحها، فارتسمت علامات السعادة والرضا على وجهه. لقد وجد مكافأته!

أخرج من الخزانة حقيبة جلدية صغيرة مرصعة بالذهب والألماس، ثم فتحها ليُخرج ما كان مضجعًا بقلبها المصنوع من القطيفة الناعمة.

كانت زجاجة عطر من الذهب الخالص مكتوبًا عليها:

«Paco Rabanne 1 Million 18 Carats Luxe Edition»

تسلل ضوء الظهيرة عبر الستائر المنسدلة على نافذة الغرفة الأندلسية الفسيحة، فسقط النور على زجاجة العطر التي يحملها برفق كأنها جنينه الأول، وانعكس ضيؤها الذهبي على وجه هادي. سئمت هايدي من سماع أنفاسه من دون تعليق على أيِّ مما تقول، فسألته:

- ها؟

- خليني أتأكد.

- تتأكد من إيه، بقولك دافعة فيها سبعة وخمسين ألف دولار!
تجاهل تعليقها وفتح الزجاجاة، رش منها رشتين متتاليتين على
ظهر يده تاركًا مساحة متوسطة بين كفه والبخاخة.
علق يده في الهواء بضع ثوانٍ، ثم شمها عن بُعد. هكذا أدرك
جودة المنتج الذي طلبه، فأغمض عينيه منتشيًا بطيب ما استنشق،
ثم همس إليها:

- «Original, très original» يا هايدي هانم.

- هو أنا عويلة علشان أجييلك حاجة مضروبة؟ قُصْرُه، هشوفك
بليل؟
- «Oui».

- قشطة. سلام.

أنهت المكالمة وتركته يضم زجاجة العطر الذهبية إلى صدره،
ثم يلقي بنفسه على الفراش مغنيًا بالفرنسية، وشعور عظيم بالغبطة
يغطي على صوته:

يومًا ما سيدفعني ذاك الهوى إلى الجنون

مائة مرة أردت أن أسأله لمَ

ولكنه قاطع كلماتي

فهو دائمًا يسبقني بالحديث

ويعلو صوته حتى يغطي على صوتي

* * *

حل الليل، فبدأ الحفل السنوي لرائدي الفنون السبعة في قصر

السيد شندويلي المفتقد للذوق والمعنى، وقد ترأس اسم «هادي الحكيم» قائمة المدعوين كأشهر نحات مصري معاصر.

اجتمع فنانو الوطن العربي في قصر السيد شندويلي الذي كان يستعمل الختم ليصم على جميع المستندات، حتى دخلت ابنته الجامعة الأمريكية، وشعرت بأن زميلاتها يسخرن من سوقية وأمية والدها داهية العقارات في مصر.

فقررت أن تجعل منه رجل أعمال «مودرن»، أجبرته على ارتداء البدلات ذات الألوان الهادئة، والتوقف عن صبغ شعره بالحناء البرتقالية، وتركه بلونه الأشيب الطبيعي، وخَلَع خواتمه الفضية الضخمة التي تشبه إكسسوارات الفتوات على حد وصفها، وأجبرته على حفظ بعض مقولات سارتر وكانط وكونفوشيوس وهيمنجواي، على الرغم من أنه لا يعرف صنعة أيهم، لكنه أدرك أن الثقافة السطحية المنبטحة هي مسحوق من مساحيق التجميل التي يتجمل بها أصحاب المال حتى لا يدعوهم مثقفو وسط البلد بـ«أشولة فلوس».

هكذا، وبمشورة من ابنته، أدرك لاحقاً أنها أمر واجب التنفيذ، أصبح السيد شندويلي جورج كلوني إمبابة، يقيم حفلاً راقياً تعزف فيه موسيقى باخ، الذي أدرك أنه عازف ألماني حقيقي وليس اسم شخصية حسن حسني في فيلم «اللي بالي بالك».

منذ أن صدرت النسخة المثقفة من السيد شندويلي التي برمجتها وحيدته، لم يفوت هادي حضور حفل من حفلاته، فوصل لافتاً أنظار الحضور بوسامته وأناقة بدلته التي انحنى لويجيني العجوز على ماكينته لتطريزها بشغف في ورشة خياطته الإيطالية.

عَلِمَ هادي جيداً أن أناقة الرجل تأسر قلوب بنات حواء قبل العقل والشخصية. فالأناقة الخارجية تعلن المبلغ الذي يدفع جيبك، والأناقة الداخلية تشي بالأموال التي صُرفت على تعليمك وأسلوب حياتك، فيستطعن تصنيفك ضمن أبناء الذوات أو الجرابيع.

كان يزيد على تلك الأناقة المتعمّدة بضع كؤوس من النبيذ الأحمر وكلمة فرنسية هنا وهناك، ليضفي على شخصيته لمسة العاشق الباريسي المغامر.

لطالما كانت معادلته مضبوطة، فبعد أن شرب نصف زجاجة «Château Montrose»، أقبلت عليه عازفة الهارب الصهباء ذات الرداء الذهبي اللامع للتعرف عليه.

ظل يجاري حديثها حتى سئم من النبيذ الأحمر، وقرر أن يداعب حواسه بمذاق أكثر قوة، فبحث عن النادل بعينه وهو يردف قائلاً بنصف اهتمام:

- الغرض الأساسي من دراسة الفن مش إتقانه، ولكن التعبير عن الذات البشرية. الإنسان البدائي اتعلم اللغة والكتابة بالرسم علشان يعبر عن نفسه.

لمح النادل الذي يحمل صينية كؤوس وأكواب الخمر، فأوماً إليه بأن يقترب.

أتى النادل، فغيّر هادي كأس نبيذه الفارغة بكوب من الويسكي الكهرماني، ثم شكره بابتسامة راقية، ثم أردف قائلاً:

- أنا كنت في براغ الصيف اللي فات بزور متحف «فرانز كافكا».

لقيت قدام محل «السوفونيرات» نافورة من أعمال دافيد

تشيرني، تخيلي على شكل إيه؟

- قولِّي إنت، أنا عمري ما رُحت التشيك.

تجرع ما تبقى من كوبه على دفعة واحدة كسكير محترف، ثم تابع:

- النافورة قاعدتها بركة على شكل خريطة جمهورية التشيك،

وواقف جواها تمثالين برونز طولهم ٢١٠ سنتيمتر لراجلين

قدام بعض، و«pardon» على القرف اللي هقوله، بيعملوا تواليت

فوق خريطة بلدهم.

ضحكت ذات الخصلات النارية، فابتسم معها، حتى أتى نادل

مختلف جدّد له كوبه الفارغ بآخر ممتلئ، ارتشف منه وأكمل:

- تشيرني بالمناسبة نحات صدامي مشير للجدل، مخلص لرؤيته،

وعارف يخلي أعماله تسخر من الدكتاتورية والوطنية الزائفة

بمنتهى الحرية. تخيلي يا هانم لو حد نحت حاجة برقع الجراءة

دي في الشرق الأوسط، هيقولك قِيم الوطن وقيم الأسرة وقيم

مدام عديلة في الدور الرابع! علشان كده بقولك مفيش فنان

بيعبّر عن نفسه بصدق في المنطقة كلها. سيبك من شعارات

التحرر الكدابة اللي بيتكلموا عنها، الناس بقت بتنحت علشان

الشهرة والفلوس، مش علشان تثور.

سألته بدلال وهي تداعب شعرها:

- وإنّ تبقى بتنحت ليه؟

كاد يجيبها، لكنه لمح هايدي واقفة عند الطرف المقابل له من

المسبح.

تلك النحاتة ابنة العشرين الشقراء ذات الشعر المجعد الكثيف، كانت ممسكة بعنق زجاجة «Smirnoff» تشرب منها مباشرة وهي تسير بخطوات مترنحة.

قرر أن ينهي حديثه مع عازفة الهارب بكياسة:
- علشان بحب. أنا ما بعرفش أعمل حاجة في شغلي أو في حياتي الشخصية بدافع غير الشغف.

أمسك كفها وقبّلها بابتسامة راقية، ثم قال:

- اتشرفت بالكلام معاكي يا مدموازيل. عن إذذك.

تركها تهيم بكاريزمته، واتجه إلى الجهة الثانية حيث هايدي الثملة التي لم يسعفها كعبها في السير مستقيمة تحت وطأة هذا الكم من الكحول العائم بشرائينها، فما كادت تتعثر حتى ظهر هادي في الوقت المناسب وأسندها، فصاحت مرحبة به بصوت عالٍ لفت انتباه البعض:
- هادييييي.

- مش قلنا نشرب بشياكة.

أجلسها على الشازلونج، ثم جاورها آخذًا منها الزجاجة التي تجرعت ربعها.

- إنت راشش من البرفان؟

قرّب عنقه منها قائلاً:

- شمي.

ألصقت أنفها عند عنقه الدافئة تستنشق عطره، ثم تأملت ملامحه الناعسة، وتحسست شعره وبشرته الناعمة التي انزلقت أناملها عليها، ثم تنهدت قائلة:

- هيئتك الآلاجة دي ما تليقش على شغلك مع خالي خالص.
- ما بنتكلمش عن الحاجات دي هنا يا هايدي هانم.
- تحب نتكلم عنها فين؟
- أحب ما نتكلمش عنها خالص.
- أطرقت صوب مياه المسبح التي عكست لمعة بدر هذه الليلة الصيفية، بينما بدأت الفرقة الأوبرالية بالزاوية تعزف موسيقى «كارمن».
- تنهدت بثقل لا يليق بشبابها النضر حتى لمعت عيناها اللازورديتان بالدموع، ثم همست إلى هادي:
- كان يحب الأغنية دي.
- ودي ما كانتش علامة على إنه تو كسيك؟
- كان حب عمري يا هادي.
- حب عمرك مرة واحدة؟ ده إنتي كلك على بعضك عشرين سنة، عمرك لسه بيتدي.
- حتى لو عشت مية سنة. عمري ما هنساه. أنا كنت بحبه.
- وهو كان بيخونك.
- وأنا قتلته، يعني خلاص خالصين. ليه يسيبني؟
- إحنا شكلنا تقلنا خالص في الشرب وما ينفعش نبقى في مكان عام دلوقتي. الشوفير بره؟
- هزت رأسها بنعم، فنهض عن الشازلونج، وساعد الشابة محطمة الفؤاد على النهوض عن مقعدها، فنظرت إليه تستعطفه بعينيها البريثين وتقول:

- أنا خايفة أقعد لوحدي. ممكن تروّح معايا؟
ابتسم هادي الشهم قائلاً:
- «D'accord» !

* * *

على باب الفيلاً الفارهة ذات الجنان المثمرة، برزت لافتة من
الجرانيت محفور عليها:

فيلاً سلطان الدَّغش

دخلت سيارة هايدي الفسيحة من البوابة العملاقة بعد أن توقفت
ثلاث مرات، ليُخرج لها هادي رأسها من الباب ممسكاً بشعرها الذي
يشبه شعر حورية البحر، وهي تتقيأ على حيد الطريق، ثم فقدت وعيها
من فرط الإرهاق والشمالة.

صَفَّ السائق السيارة عند الباب، فحملها هادي حين فشل في
إيقاظها، وصعد بها السلالم الرخامية، ووصل إلى غرفتها بالدور
الثاني. كأى رجل نبيل رفيع الخلق، وضعها في فراشها الذي تتراص
عليه وسائد ريش النعام البيضاء، ثم غطاها، وهمَّ أن يخرج، لكنها
استيقظت واستوقفته بنبرة متعبة:

- بات معايا.

اختال بنفسه، فابتسم ابتسامة نرجسية، وقال وهو يداعب طابع
الحسن الذي يختتم ذقنه الدقيق:

- الست لما بتشرب يا هايدي شيطانها يبهيا لها مشاعر تجاه الراجل
اللي قدامها. أنا عارف إن ليا تأثير خاص على الدموازيلات
الصغيرين اللي زيك، بس للأسف، إنتي مش استايلى.

- تأثير إيه يا جدع، ده إنت أد أبويا.

اتكأ على الباب بعد أن دهس ردها غروره وسوَاه بالأسفلت،
فابتسم بسماجة حاول أن يخفي حولها حرجه:

- طب عايزة إيه من بابا يا هايدي هانم؟

- خليك معايا علشان هو بيطلعلي في الضلمة.

- أبو رجل مسلوخة؟

- أنا مش بهرج. بشوف عفريته وبيهددني إنه هيقتلني زي ما قتلته.

استسلم هادي لثرهاتها غير المنطقية، وجلس على الكرسي في
الزاوية بجوار المصباح المقابل لفراش الشابة المدللة وهو يقول:

- اتفضلي نامي بسرعة أحسن دور الناني ده مش لايق عليا.

- تعالى نيمني زي ما بابا كان بيعمل.

- تاني هتقولي «بابا»!

صمت لبضع ثوانٍ متأملًا الفراش، ثم نهض متنهّدًا وهو يدرك أن
فرق العمر بينهما حقًّا يؤهله لأن يكون له أبناء في عمرها.

- «D'accord»، بس كل واحد يلتزم بمساحته.

خلع حذاءه اللامع وسترته الثمينة التي فردها على الكرسي
بحرص، ثم أزاح عنها الغطاء وانزلق بجوارها.

وضعت رأسها على صدره، وذراعها حول خصره، ثم أغلقت
عينها وهي تأمره:

- نام إنت كمان.

- مش بعرف أناام بليل.

داعب خصلاتها الذهبية العجرية، واندمج في دور المربية، فبدأ

يغني لها أغنية إيديت بياف الشهيرة «La vie en rose»، كما اعتادت السيدة روز أن تفعل معه حين كان صبيًا.

تشاءبت الشقراء الطائشة، ثم همست إليه بنبرة نعسة:
- أنا هسلم نفسي للبوليس.

توقف عن الغناء وعن مداعبة شعرها، وسألها بحدة:
- Pardon؟

- لازم أتعاقب علشان أرتاح من اللي أنا فيه ده.

- بس إنتي ما عملتيش حاجة. إنتي معذبة نفسك ليه؟ مش إنتي اللي قتلتيه!

فتحت عينيها، وقد طرد هذا الجدال الخمول من صوتها، فصاحت:

- مش أنا اللي ضربته بالنار، بس أنا اللي طلبت منك تقتل عمر وعشيقته، وأنا اللي دفعتك الفلوس واديتك عناوينهم. إنت رفضت، وأنا اللي أصريت، زنييت عليك زي ما حوازت على آدم لحد ما أكل التفاحة وخرجوا هما الاتنين من الجنة.

- أولاً قصة إن حواء خرّجت آدم من الجنة دي مش دقيقة. ثانياً إنتي معتبرة نهاية علاقتك بالجربوع ده خروج من الجنة؟
انفجرت باكية وهي تصرخ:

- أنا ليه ما سامحتوش؟

- علشان هو أصلاً ما اعتذرش. إنتي لما قفشتيه سابك يا هايدي.
فرکش معاكي علشان فتاة ليل، إنتي فاهمة إنتي عايزة تسجني نفسك علشان راجل عامل إزاي؟!!

رفعت رأسها فجأة، وحدقت صوب الحائط.
انتصب شعر رأسها، وتجمدت دموعها بعينيها اللتين اعتلتها
نظرة مذعورة وهي تهمس نحو الفراغ:
- عمر!

التفت هادي صوب موضع نظرها، لكنه لم يرَ إلا الحائط الأصفر
الكناري.

لم يحتج الأمر إلى خبير علم نفس ليستنتج أن هايدي تهلوس
برؤية شبح عشيقها الذي حرضت على قتله.

نهضت عن فراشها، واتجهت صوب الحائط، ثم ركعت على
ركبتيها تطلب من ذاك الشبح الوهمي أن يصفح لها عن ذنب أفقدها
عقلها ودفعها لتبادل أطراف الحديث معه.

جلس هادي على طرف الفراش متكئاً برأسه على رسغه وهو يتابع
تلك المسرحية، كأنه ربح تذكرة مجانية لمشاهدة الليدي ماكبث،
حتى تمكن الضجر من نفسه المملولة، فأخرج هاتفه وضرب رقماً
يحفظه عن ظهر قلب.

انتظر ثواني حتى أتاه صوت صاحب الرقم بنبرة خاملة:

- أنا في أجازة.

- «D'accord». حبيت بس أبلغك إن بنت أختك اتجننت.

الفصل الثالث

لون هذا القميص لا يليق برجل في السبعينيات، لكن سلطان الدَّغش لا يكثر لرأي أحد.

قالت هايدي لخالها هذا الصباح إنها لم ترَ مخلوقاً يرتدي هذا اللون الذي لا يُفهم إن كان أحمر يميل إلى البرتقالي، أم برتقالياً يميل إلى الأصفر، على سروال أبيض قصير يزيد بَهْرَجته، وحذاء قطيفة بنفسجي يتضاد مع أجواء الساحل المصيفية.

لم يحبذ سخرية ابنة أخته الوحيدة من حسه في الموضة، فأخبرها بكل احترام بأن فردة واحدة من حذائه الذي لا يعجبها، أغلى من ممتلكات أبيها الراحل مجتمعة، وأن والدها، رحمة الله عليه، لو كان باع سائر أعضائه قبل أن تقتله أمها، ما حصَّل ثمن هذا الزي الذي تسخر منه.

في هذه اللحظة، كان سلطان جالساً بكامل بَهْرَجته فوق سجادة إيراني ناعمة، يتكئ على وسائد شرقية مريحة، على متن يخته الفضّي الذي تغنى به سمير صبري.

إنها ليلة من الليالي القليلة التي يتمكن فيها من الهرب من زخم

القاهرة بتلوثها وضجتها وأناسها قليلي الصبر، لينفرد بسطح يخته
المُسَمَّى «المايسترو».

لا يعلو رأسه الرائق سوى زمهرير الليل، ولا يرافقه في لحظات
السكون تلك غير طعم الجبن التركي الذي يذوب في فمه، وهفيف
صبا يوليوي، ودخان الأفيون الذي ينفثه بالأفق، وهدير أمواج البحر،
وتكتكة التقاء الإبر الطويلة التي يحيك بها سترة صوفية فاقعة الخضرة
وهو يشاهد على حاسوبه مسرحية «إلا خمسة»، ويضحك على
«الإفيه» ذاته.

- إنتي جاية تشتغلي إيه؟

- جاية أشتغل سواقه.

هو إسكندراني الأصل، إغريقي الملامح، رفيع البنيان لكنه مستقيم
المنكبين، هزيل الجسد لكنه طويل القامة مفرودها، بئس الملامح،
معقوف الأنف، صابغ الشعر مهذب الشارب، منبسط اللسان أريحي
المخارج، رائق البال سريع الانفعال، محب للفكاهة، عاشق للمسرح،
كاره للسفسطة، ماقت للكذب، واشتراكي الهوى لكنه رأسمالي
الواقع.

صحيح أنه مشجّع لروح المغامرة، لكنه كابح للمخاطرة، فهو
يعرف حدوده لأنه ببساطة هو مَنْ وضعها لنفسه ولغيره.

على سبيل المثال، هو وضع حدًّا لضغط عمله، فكانت قاعدة
أساسية عند كل موظفيه ألا يهااتفونه أيام إجازته، لكن ها هو ذا
هاتفه يرن الآن باسم هادي الحكيم، مقاطعًا عظمة كوميديا ماري
منيب وعادل خيرى.

زفر بضيق، ثم رد على الهاتف وهو يقول من دون مقدمات وهو يستأنف الحياكة ويضغط بشفتيه الغليظتين على سيجارة الأفيون:
- أنا في أجازة.

- «D'accord». حبيت بس أبلغك إن بنت أختك اتجننت.
سـ ب النفس الأخير من أفيونته بمزاج، ونفته على مهل، ثم قال وهو يدفنها بمرمدته:

- مش لاقط.
- قتلتها الدون جوان بتاعها. ما استحملتش الصدمة، وعازية تبلغ عنا.
أدرك أن مزاجه قد تعكر من دون رجعة، وأن أفيونه الأفغاني قد نُفِثَ هباءً.

ألقى بكرة الصوف وإبر التريكو أرضاً بعصبية، وأطفأ حاسوبه بعنف وهو يصيح:

- ده إنت ليلتك سواد! البت فين دلوقتي؟

* * *

أخرج هادي من جيبه علكة المستكة اللاذعة، وبدأ يمضغها بضجر.

تلك الساعة التي أمضاها مع هايدي جعلته يدرك لم تكثر جرائم قتل المربيات للأطفال الذين يجالسنهم.

خلال الدقائق الثلاث الماضية، قررت هايدي أن تعصف بالغرفة وتقلب أثاثها، وتهشم زجاجها وتمزق وسائدها، فيتناثر ريش النعام حولها في أثناء شجارها العنيف المتخيّل مع شبح عمر.

ما كان لهادي إلا أن يشكل فقاعات من علكته، ثم يطرقها متململاً وهو يتفقد ساعته من حين إلى حين، متمنياً أن تنتهي تلك الفقرة الهستيرية.

صاحت هايدي في الحائط الخاوي بغضب:

- أنا حذرتك مئة مرة وقتلتك لو ختنتي هقتلك وهقتل اللي هتخوني معاها، وإنت اللي فكست لكلامي علشان إنت... إنت...
قرر هادي أن يسلي وقته بأن يجد لها الكلمة التي تبحث عنها، فهمس إليها:

- علشان إنت غبي.

- أيوه، غبي ورمرام. اللي يخوني مع واحدة من الشارع يبقى...
يبقى...

- يبقى واطي.

- صح، واطي!

سحبت آخر مزهرية سليمة بالغرفة، ثم طوحتها مترنحة صوب ما تخيلته شبح عشيقها وهي تكرر السبة التي غششها هادي إياها.
سقف لها هادي كأنه يحيي نجمته المسرحية المفضلة قائلاً:

- برافوووووو.

- تصدق أحيه!

استدار هادي، فوجد أن قائل هذه الجملة كان سلطان بلهجته الإسكندرانية الصارخة.

كان يضع يديه بجيبَي سرواله الأبيض القصير وهو يطأ الغرفة حتى اقترب من هادي قائلاً:

- بتصقف على إيه يا ساقع! فاكّر نفسك في المرسح يا ولّا!
فور أن رأت هايدي خالها، اندفعت صوبه باكية بزينة عينيها
السائحة وهي تنوح:

- أنا قتلت يا خالو، قتلت عمر.

ربت على كتفها منزعجًا من زيتتها السائحة التي لطخت قميصه:

- فداكي يا حبييتي.

- فدايا إزاي يا خالو، بقولك عمر.

- يعني عمر الشريف ياختي.

دفعها وقد نفذ صبره، لا يدري إن كانت بقعة الكحل ستزول عن

قميصه من دون أن تفسد قماشته.

صاح وهو يحاول مسح البقعة بمنديله:

- بطلي شحطة وانشفي كده. ده أنا أمي وهي في سنك عبت أبويا

في أكياس ومحدث خد خبر غير السمك اللي اتعشى بيه. ده

جيل إيه المهيب ده!

التفت سلطان إلى هادي الذي انشغل بتعليك لبانته ببرود، وصاح

فيه:

- فز قدامي يا أبو مَستيكة يا بارد.

خرجوا من الغرفة الصفراء، ووقفوا في الطرقة المقابلة لها، حيث

النافذة المطلّة على البحر المتموج، وإذ بسلطان يجذب هادي من

أذنه بعنف:

- بتاخذ أوردرات من أهل بيتي من ورا ضهري يا ابن عشق!

حرر أذنه من أصابع سلطان الرفيعة، وقال بابتسامة مستهزئة:

- ما كبرناش على شد الودان؟

- عندك حق، إنت فعلاً كبرت على شد الودان.

باغته سلطان، فلکم أنفه الدقيق بقبضته الناتئة، وإذ بدمه ينساب كصنبور فُتح.

غطى هادي أنفه، فتخضبت كفه وإسورة قميصه الأبيض بدمائه القانية.

تأمل البقع الحمراء، ثم ضحك ساخرًا وهو يرفع كفه عن أنفه متعمدًا أن يُري سلطان دماءه، وهو يقول بالابتسامة المستهزئة نفسها:
- ماشي، مقبولة منك يا مايسترو.

نظر إليه سلطان وإلى الدماء السائلة من بين أصابعه، فأشاح بنظره فورًا وهو يأمره بعصبية:

- غور اغسل وشك وإيدك وارجلي.

انسل هادي إلى أقرب حمّام. غسل وجهه ويديه وأنفه الذي سده بقطنٍ من صندوق الإسعافات الأولية حتى يتوقف نزيفه.

خرج إلى سيده الذي جلس في صالة الاستقبال الخاصة في الطابق الثاني بجوار غرفة نوم الشقراء الثائرة.

كان بزاوية فاقعة الإضاءة، زاخمة بأدوات الصيد والأسماك العملاقة التي اصطادها من يخته وحنطها وعلقها في إطارات خشبية عريضة على حائطه البرتقالي.

أمره سلطان مشيرًا إلى كرسي خفيض بلا مسند للظهر أو للمرفقين قبالة كرسيه الجلدي الفخم العالي، كأنه عرش ملكي:

- اترزع!

فطن هادي أنه يحاول أن يحقر من جلسته ليفرض هيمنته، لكنه جلس على أي حال لاعتياده الأمر.

أخرج سلطان سيجارة أشعلها، ليس لعطشه للنيكوتين، بل ليخنق هادي بدخانها.

تظاهر هادي بالسعال ليطلب منه أن يطفئها بشكل غير مباشر، لكن سلطان تعمد أن ينفث دخانها في وجهه، ثم قال:

- إيش حال إني مسميك هادي علشان تتبَط وتهدا وتفكر مرتين قبل ما تاخذ أي قرار؟

- أنا ما اندفعتش يا مايسترو. الموضوع ببساطة إني...

أشار إليه أن يصمت، فأذعن لأمره.

نفث سلطان دخانه، ثم سأل هادي:

- إنتو الاتنين قتلتمو المحروس بتاعها؟

- لأ، دي عمليتي لوحدي.

- يا فرحة أمك بيك يا خويا. نفذت ألماني ولا أمريكياني؟

- هو ألماني، وعشيقته أمريكياني.

- هما عمليتين؟

- «Oui». خلصت منه بطلقة في راسه في شقته وتاويته في

الصحرا، لكن عشيقته كانت مومس. اتصلت برقمها، عملت

نفسي زبون، خدتها البيت عندي وخلصت.

- وقتلت عشيقته ليه؟

- إنت عارف، نقطة ضعفي البنات اللي بتنتهك قيم الأسرة المصرية.

زاد ضيق سلطان، فركل هادي بقدمه مصيباً ساقه وهو يقول:
- يا جدع!

ضحك هادي معتبراً عنف سلطان تجاهه ما هو إلا مزاح أبوي
ثقيل، فقال:

- خلاص يا مايسترو ما تفقدش أعصابك. هحكيلك.
تنهد هادي وبدأ يسرد لسلطان تفاصيل جريمته.

* * *

وقف أمام مرآته ثانية، ثم صَفَّرَ لحن «La vie en rose» الصادر
من جرامافونه النحاسي بزاوية غرفة نومه الكلاسيكية.

هَمَّت صاحبة الصوت الباريسي أن تبدأ الغناء، فركز كل حواسه
نحو الأغنية، لكن صوت القداحة اللعينة انتزعه من ذاك المشهد
الحميمي الذي ينتمي إلى حقبة رومانسية انصرفت، وأعادته إلى
حاضر مُحمل بالقبح البصري والجفاف العاطفي والتلبك الفكري.
نظر إلى انعكاس ليالي في المرأة، وعلق بكياسة:

- تقدرني تعملي أي حاجة على سريري إلا إنك تدخني.

التفت هادي صوب سمراء الليل ذات الثوب الأحمر القصير
المتمددة على فراشه.

سحبت السيجارة من بين شفيتها الممتلئتين، وتجرعت كأسها
الثانية من النبيذ الأحمر الذي تلاًأ في انعكاس ضوء الثريا المعلقة
بوسط السقف المقعر ذي النقوش الملونة، كأنه سقف كاتدرائية مهيبة.
أعادت علبة السجائر والقداحة إلى حقيبة يدها الصغيرة على
طرف الفراش، ثم نظرت إلى ساعة يدها وهي تقول:

- هتقضي الساعة كلها قدام المرايا؟

كاد يجيبها، لكن فور أن بدأت إيديت بياف الغناء مازجة بين الحنان والجبروت، اللين والبأس، البهجة واليأس، غابت حواسه عن كل شيء، كأن ما في الكون سواه وذات الإحساس الأسر التي توقظ طبقة صوتها الشهوة في قلبه.

أغمض عينيه متنهّداً، ومال برأسه منتشياً، وكرر كلمات الأغنية بلكنة فرنسية متقّنة، فابتسمت ليالي ساخرة من أدائه المسرحي، وشغلت نفسها بتأمل زوايا غرفة النوم المترفة ذات الإضاءة الرومانسية الهادئة، والألوان الفاتحة التي تشبه ألوان ملابس هادي.

- مش دي أغنية يسرا في «عمارة يعقوبيان»؟

استعاد إدراكه لزمانه ومكانه، وفتح عينيه منزعجاً من ضحالة ثقافة هذه المومس.

قال متأففاً وهو يقترب من الفراش:

- يسرا إيه! دي أغنية إيديت بياف. كتبها سنة ١٩٤٥ علشان تطّلع

الناس من حالة الاكتئاب والحزن اللي صابتهم بعد الحرب

العالمية الثانية، وكسّرت الدنيا لما نزلتها. عارفة ليه؟

هزت رأسها نفياً، وقالت بعهر متمرس:

- توء.

- لأن صوتها صادق، وقلبها ينبض مزيكا.

- شكلك بتحبها أوي.

- بحبها بس؟

جلس على طرف فراشه أمامها، ثم نظر صوب الزاوية حيث

التمثال الرأسي الذي شكله بأنامله لمعشوقته بوهيمية الشعر، رفيعة الحاجبين، واسعة العينين، صغيرة الفم، حادة الأنف، بجبهتها العريضة وذقنها الدقيق المدب، أتقن نحت وجهها الذي يأخذ شكل القلب.

أخذ زجاجة النبيذ من على طاولة الفراش ومعه كأسه، وصب لنفسه موضعًا لها:

- البوذيين يقولوا إن الإنسان بعد ما يموت روحه بتبعث في جسم ثاني. أنا بقى متأكد إن روح إيديت يياف بُعثت فيا.
- أستغفر الله العظيم.

ضحك من عبثية رد فعلها، فأدركت استهزاءه بها، وإذ بها تسأله:
- طب هو فيه والنبي ست في جسم راجل؟
- كل راجل جواه ست، وكل ست جواها راجل، والأتين جواهم إبليس.

تجرعت ما تبقى في كأسها، ثم وضعت يدها على فخذه بنظرات باغية محترفة وهي تقول:

- عجبتي فلسفتك. تيجي أوريك فلسفتي؟
أنهى كأسه وأعادها مع الزجاجة إلى طاولة الفراش، ثم انتشل من عليها طبق الزيتون والجبن ملتقمًا مَرَّته، فزفرت ليالي ضجرًا.
أخرج من جيب سترته منديله الحريري، ومسح به يده بعد أن أنهى لقيماته، ثم تأملها بعينه الكحيلتين الناعستين وقال:

- ليالي، إنتي إيه معايير اختيارك لزباينك؟
- هو مش كلنا معيارنا الفلوس.

- مش كلنا. أنا مثلاً اختياراتي مبنية على معيار الشغف.

ضحكت ضحكة خليعة رنانة، ثم سأله:

- هو إنت بتشتغل إيه يا مستر هادي؟

- نحّات.

- يعني لو حد قالك انحتمي تمثال بس هدفعلك تمنه شغف،

هتنتحه؟

فتح درج طاولة الفراش، وأخرج منه قفازين من الجلد الطبيعي،

وارتداهما بهدوء وهو يجيبها:

- آه، وهتبتلك ده دلوقتي. إنتي عارفة أنا جايبك هنا ليه يا ليالي؟

عضت الفاسقة على شفتيها، وقالت:

- علشان تمارس معايا الشغف؟

- مضبوط.

أشار بأصابعه الدقيقة صوب رف رخامي كبير يمتد بشكل

مستطيلي من فوق فراشه وحتى تسريحته، تتراص عليه تماثيل رأسية

دقيقة الصنع كتمثال إيديت بياف، إلا أنها جميعاً أكثر حيوية وتفصيلاً

من تماثيل بياف الرخامي، كأنها من خامة مختلفة.

- أنا جايبك علشان أحط راسك على الرف ده.

اقترب منها وصعد الفراش مستنداً إلى ركبتيه قبالتها مدلّكاً كتفيها

الناعمتين، فابتسمت بحميمية وهمت أن تضع يديها على قميصه

لتخلع عنه ملابسه، لكنه أمسك كفيها وضغط عليهما ليمنعها، ثم

اعتلاها محاصرهما بفخذه، وإذ به ينقض عليها بغتة.

حط بقبضتيه على عنقها الملساء، ففاجأها بعنفه المباغت.

عافت لتجد صوتها وتقول له:

- لأ. بلاش كده.

- قاوميني!

في بادئ الأمر ظنته زبوناً سادياً مختلاً آخر من الذين يوقعها حظها العثر فيهم من آونة إلى آونة، لكن شيئاً ما أخبرها بأن ما يحدث الآن ليس مجرد ممارسات جنسية مريضة، هذه نظرات رجل مسعور. دوى طنين بأذنيها، ثم تغبشت رؤيتها وشعرت بحرق يُضرم بصدرها.

حاولت أن تأخذ ما يكفي من الهواء، فشهقت وهي تتحدث بصوت قد اخشنَّ ووهن:

- هموت.

كرر بالنبرة الماجنة نفسها:

- قاوميني!

لم يكن بها إلا أن تركل الفراش بساقيها الملفوفتين، لكنه أطبق عليهما بركبته.

حاولت أن تصل إلى وجهه بذراعيها القصيرتين، لكن طول قامته عسّر عليها معركتها.

انحبس الهواء أسفل إبهاميه، وأخذ يعافر للوصول إلى رثتيها، فحاولت أن تخربش كفيه أو تغرس أظافرها الحادة فيهما، لكن قفازه الجلدي حماه حتى من ترك بصماته على رقبتها.

شهقت، برزت العروق الدموية الضئيلة في عينيها، وهادي يعصر روحها أكثر حتى كادت تفقد وعيها لافظة أنفاسها الأخيرة،

لكن ما منعها من الاستسلام هو رؤيتها الضبابية لزجاجة النبيذ التي تركها بجوار كأسه على طاولة الفراش. حاولت أن تمد يدها صوب الزجاجاة، لكنها كانت أبعد مما صور لها عقلها. جاهدت لتمدد ذراعها أو تحرك نصف جسدها العلوي لتصل إليها، فلاحظ هادي محاولاتها البائسة. توقعت أنه إما سيكتف يديها، وإما سيلقي الزجاجاة بعيداً، لكنه صاح مشجعاً إياها بحماس طفولي:

- حاولي تاني. ما تستسلميش يا ليالي.

أحكم قبضته وضيق حركتها بركبتيه، كأنه يود أن يحفز غريزة البقاء بداخلها، فتضاعفت ركلاتها للفراش، واشتدت محاولاتها لجذب زجاجة النبيذ، إلى أن وصلت إلى طرف قاعدة الكأس الزجاجية. حركتها بعقلة واحدة، فقربتها صوبها إلى أن لمستها بأطراف أناملها، وبدفعة واهنة أمسكت الكأس بإصبع، وبعد القليل من المعافاة أمسكت عنق الكأس بإصبعين آخرين.

راقبها هادي تُحكم مسكة الكأس، فضحك كالأستاذ الفخور بتلميذته. لم يعرفها، تركها تجذب الكأس وتضربه بها على الجانب الأيمن من وجهه، فتهشمت على أذنه ووجنته وعنقه. كأنها داعبت وجهه بريشة لينة وليس زجاجاً قاطعاً. لم يصرخ أو يتألم أو حتى يتأوه، لكنه توقف عن خنقها، فنظرت إليه في حالة من الإعياء وهي تشهق، ورثاها تصرخان طلباً للهواء.

وضع يده حيث جرحه، ثم نظر إلى قفازه وقد صُبغ بدمائه. ضحك ساخراً من دمائه ساهياً عن فريسته التي باغته الآن بإلقاء زجاجة النبيذ صوبه وتهشيمها على وجهه.

سقط هادي بجانب الفراش، فتحررت ليالي من أسفله تشهق. زحفت من على طرف الفراش فهوت أرضاً. حاولت أن تستجمع قواها، إلا أن أوصالها ارتخت كالمطاط، فلم تُعد قادرة على الاتكاء على ركبتيها كي تنهض. استندت إلى معصمها بصعوبة مستمرة في الزحف نحو الباب، حتى وصلت إليه وهي تحارب لإنعاش رثتها. مدت يدها المرتعشة، وأمسكت مقبض الباب المتين متكئة عليه، وحاولت أن تستند إلى ركبتيها، فتعثرت مرة ثم نجحت في الثانية، حتى وقفت أخيراً وفتحت الباب.

خرجت من الغرفة التي كادت تفقد فيها حياتها، ورأت السلالم التي بدت أطول مما كانت عليه حين صعدتها بغنج أمام هادي منذ ساعة.

أمسكت درابزين السلم الخشبي وجسدها يرتعش بشدة هزت رؤيتها، فنزلت بضعة سلالم، ثم خانتها قدمها، فتعثرت وسقطت متدحرجة على باقي السلالم العريضة.

كادت تفقد وعيها، لكنها لم تستسلم، ولم تتوقف عن المقاومة بعد.

نهضت متجاهلة أن جبينها جرح من سقوطها الذي ترك كدمات مؤلمة على جسدها كله، وأبقت عينيها على هدفها؛ مقبض باب البيت الذي سينقذها من موت محتوم.

أعانتها غريزة البقاء بجرعة من الأدرينالين، نشطت مفاصلها، فنهضت متشبثة بالحياة لتبث روحها المقاومة بعض الطاقة ببدنها المتألم.

فتحت الباب، فصفعتها برودة الفجر وزادت من رجفة جسدها، لكن لم يكن هذا ما عرقل طريقها للنجاة.

ما شلَّ حركتها وقبض أنفاسها هو تلك اللحظة الخاطفة التي باغتها فيها هادي بخفة من الخلف، واضعاً يداً على ذقنها وأخرى على مؤخرة رأسها، وإذ به يحرك الاثنتين باتجاهين معاكسين لينهي مهمته بلمح البصر من دون أن يعطي فرصة لليالي حتى لتصرخ.

انكسرت عنقها، وأصدر عظمها اللامي صوت طرقة عنيفاً، لكنه لم يغطَّ على صوت إيديت بياف التي لم تتوقف عن الغناء بالخلفية. سقطت بائعة الهوى أرضاً، واستقر رأسها بين قدميه، فركل ساقها إلى الداخل كي يغلق الباب.

وقف أمام المرأة المعلقة على يسار الباب يتأمل الدماء التي صبغت وجهه وعنقه وبقعت قميصه.

التقط بأنامله بعض شظايا الزجاج التي انغrust بشحمة أذنه وجبينه الأيمن، وسببت له بضعة جروح سطحية، ثم ابتسم متعجباً وانبهر كأنه يكتشف دمائه لأول مرة.

أخرج من جيبه منديله الحريري، فمسح وجهه وهو يراقب ملامحه الملطخة بالدماء بابتسامة فخر، ثم مشط شعره بأصابعه، وهندم سترته التي انكملت بسبب مصارعة تلك العاهرة التي فتنته باستبسالها الذي صحيح أنه لم يرتقِ إلى مستوى شغف هادي لقتلها، لكنها على الأقل حاولت حتى آخر نفس.

أعاد ثني منديله الحريري على شكل مثلث، وتركه على الطاولة حتى لا يلطخ سترته أكثر من ذلك، ثم حمل قتيله الضئيلة على ذراعيه.

نزل قبو بيته المنعزل مدندناً، فعلى الرغم من أنه قصي عن مصدر الأغنية، فإن لحنها سكن أذنيه وكلماتها نبضت بداخله متخللة أضلعه. وقف عند باب القبو الثقيل العازل للصوت والضوء. انغلق الباب من تلقاء نفسه فور دخوله المكان المظلم الذي حين أشعل ضوءه انكشفت أرضيته السيراميكية المغلفة بالبلاستيك، وحوائطه التي من البورسلين الأبيض، وسقفه ذو المرايا التي تعكس ما بها من أثاث مثل دولاب من الحديد الصلب يجاوره جروف وفأس، وطاولة رخامية عالية تصل إلى مستوى الخصر، واستريو حديث في الزاوية.

ترك جثة ليالي على الطاولة البيضاء الباردة، وخلع سترته الغالية وقميصه الأبيض، وعلقهما خلف الباب.

فتح الدولاب الحديدي الذي تدلت بداخله المناشير المتنوعة بين الكهربائي واليدوي والكبير والصغير.

وقف مصفراً على أنغام الأغنية التي طرّع عنق ضحيته على إيقاعها، وتخير منشاره المفضل ذا اليد الحمراء، ثم اقترب نحو ليالي معدلاً وضع رأسها، لتكون جاهزة للنشر، لكنه تذكر شيئاً.

عاد صوب الزاوية وشغل الاستريو بجهاز التحكم الموضوع فوقه، وإذ بصوت العصفورة الباريسية ينساب منه، فراقص قدميه على إيقاع الأغنية الأكثر شعبية لإلهة الأغنية الفرنسية الكلاسيكية، وهو ينظر إلى انعكاسه بمرآة السقف في أثناء قطعه عنق ضحيته على لحن «La vie en rose».



أطفأ سلطان سيجارته، ووضع ساقاً فوق الأخرى، متفرساً وجهه هادي الذي فرغ من حكايته الدموية.

- أو مال فين الجروح اللي في وشك يا ولأ؟

- غطيتها بالفاونديشن.

- أحيه على الرجالة. يا أخي يلعن اليوم اللي عرفتك فيه على

هايدي علشان تديها دروس نحت.

- ممكن ما ننحرفش عن موضوعنا، ونشوف حل قبل ما الهانم

الصغيرة تفضحننا.

- ما إنت لو كنت رجعتلي، كنت قلتلك إنها تافهة والمخدرات

لحست مخها. تلاقيها شدت سطرين وهبت في دماغها تقتل

الولا بتاعها.

- هي اللي طلبت مني ما أقولكش، وإنت اللي معلمنا إن خصوصية

العميل أولأ وأخيرأ.

- ده لما تكون شغال في الـ «CIB» يا روح أمك مش قاتل برخصة.

بنت الخايبة دي دفعتلك كام؟

- إنت عارف سياستي. ما بخدش فلوس في البرايفت. بقبل

الكادوهات بس.

- هديتها ليك قيمتها كام يعني؟

- قول ستين ألف دولار.

- مليون جني يا هادي!

- أنا كده كارمها علشان من طرفك.

- وماله! شوف بقى أنا هكرمك إزاي. من هنا لآخر السنة المالية كل طلعاتك معايا هتبقى ببلاش ومن غير «bonus». إيه رأيك بقى؟ ضغط هادي على ضروسه بغلّ، لكنه لم يُخفِ ابتسامته الساحرة وهو يقول:

- هو فيه رأي بعد رأيك يا مايسترو! صمت الاثنان لينصتا لصريخ هايدي وتناحرها مع هلاوسها، فزفر سلطان بضيق:

- بكره العيد الكبير ده يا أخي. مفيش سنة يعدي فيها على خير مع إن الواحد دابح ومطبع بكفوفه وبرضو العين ما بترحمش. تنهد، ثم نهض عن مقعده وأضاف:

- كويس إنها جت على أد البت الصفرة دي. هي وأمها طول عمرهم تُقال على قلبي.

همّ هادي أن ينهض معه، لكن سلطان استوقفه:

- على فين يا وحيد أملك؟ خش الأوضة اللي على الشمال، هتلاقي في درج الغيارات تذكرة بيضة، دوبها في كاس ويسكي وخلص.

صمت هادي للحظة حتى يتدارك تعليمات سلطان، ثم سأله:

- هنخلص؟

وكز صدر هادي بعصبية قائلاً:

- هتخلص! إنت هتشيل الليلة دي كلها لوحدك يا هادي علشان إنت ما احترمتنيش.

- ما احترمتكش إزاي وأنا اللي مكلّمك علشان تقرر هنعمل إيه.
- بعد إيه يا خويا، بعد ما وصلتنى لمرحلة إن مفيش حل غير إني
أقتل بنت أختي الوحيدة؟

- شرف كبير ليا يا مايسترو إني أقتلك بنت أختك، بس القتل
مش الحل الوحيد في الحالة دي، أنا عندي حلول تانية و...
- خلي حلولك المايعة لنفسك. السرطان علاجه الاستئصال
مش المسكنات يا هادي، فاتفضل يا عم الجراح خَلِّص وعقم
وراك. بس خليك فاهم إنك من النهارده شاييل ذنب موت بنت
آمنة في رقبتك. آمنة لو شمت خبر إن بنتها ماتت، فإنت كبش
الفدا. واضح؟

ابتسم بأرستقراطية باردة رافعاً كتفيه وهازاً رأسه بلامبالاة:
- رقبتي طول عمرها فداك يا مايسترو.
- ما هي آمنة مش هتكتفي برقبتك، فعقم كويس لمصلحتك.
كاد ينزل السلالم ليرحل، لكنه استدار مضيئاً:
- تخلص وترجع القاهرة طيّاري، في طاجن صيادية مستنيك
إنت وصاحبك.
- «D'accord».

- ماشي يا خريج الليسيه يا ساقع.
هز رأسه بابتسامة مطيعة، ثم انتظر رحيل سلطان عن الفيلاً.
فور أن غاب عن بصره، انقشعت ابتسامته، وضغط على فكه حتى
كاد يطحن ضروسه وهو يكوّر قبضتيه، وقد لمعت عيناه ببريق الغيظ،
وسيطر الغضب على قسماته الناعسة.

أخرج من جيبه قفازيه الجلديين، وأطرق إلى صياح هايدي التي لا تنقطع طاقتها ولا تفرغ بطاريتها.

اتجه إلى غرفتها، واستند إلى عتبته متابعًا ثورتها التي لم يخفت لظاها، فحسدها على تفريغها لحنقها وسخطها، إلا أن ذاك الحسد تبخر حين أدرك أن الغضب سمفونية يمكن لاثنين أن يعزفاها.

- تسمح لي أشاركك معزوفة الغضب دي؟

لم تفهم مقصده، لكنه لم ينتظر موافقتها حتى يترك لجموحه العنان.

خلع درفة الدولاب الخشبي وهشم بها زجاج مرايا الخزانة، ثم فك أدراج التسريحة وطوحها صوب زجاج النافذة، وحمل الكومود وألقاه صوب التسريحة ليفت ما تبقى بها من زجاج مشروخ ومترنح. وقف لاهثًا ينظر حوله، فلم يعد بالغرفة شيء قابل للتحطيم. مسح جبينه وهذب شعره، ثم هندم ملابسه في محاولة لاستقرار نبضه المتسارع وإبطاء أنفاسه المتلاحقة، وهو ينظر إلى هايدي التي تابعت ثورته بلا تعليق، وقال:

- «Pardon» على الهمجية دي. بس إنتي للأسف سببيلي مشكلة كبيرة.

خرج متجهًا إلى غرفة سلطان، وفتح الدرج الأول حيث ملابسه الداخلية ذات الألوان الفاقعة المؤذية للنظر، ففتشها حتى وصل إلى كيس بلاستيكي صغير مضغوط تملأه البودرة البيضاء.

انتشل كيس الهيروين، واتجه صوب ركن الخمر.

سحب كأس الويسكي الـ «old fashioned» وأفرغ بها محتويات

الكيس، ثم ملأها بالـ«Chivas»، وكاد يعود إلى غرفة هايدي، لكنها ظهرت خلفه بغتة كالشبح وهي تلهث كمن أنهى ماراثوناً. مسحت عينيها وأنفها بأصابعها الملطخة بالكحل السائح، لتطبع بصماتها السوداء على ملامحها الشقراء التي ورثتها عن أبيها منصوري الأصل.

- عمر اتعذب وهو يموت؟
- أنا فنان وراجل بروفيشنال يا هايدي، يعني مليش في الأمور السادية دي. هي طلقة وحيدة في راسه أدت الغرض بمتهى الرحمة.
- جلس على الأريكة الجلدية ممسكاً بالكأس القاتلة، وأشار إلى هايدي أن تجانبه، فأتته مطيعة:
- يعني ما اتوجعش؟
- زم شفتيه ساحباً كأساً أخرى، وسكب لنفسه بعض الويسكي.
- ما أظنش.
- تفتكر لما أقابله في الجنة، هنبقى مع بعض؟
- وجد الأمر مضحكاً أكثر من اللازم، فسمح لنفسه بإطلاق ضحكاته التي صدحت في صالة الفيلأ الفسيحة، حتى دمعت عيناه فمسح طرفيهما بمنديله الحريري، معلقاً بسخرية:
- كلها دقيقتين وتعرفي هتقابليه في الجنة ولأ في جهنم.
- أعطاها الكأس التي ستُنهي حياتها، ورتت كأسه بكأسها، قائلاً بابتسامته السينمائية التي لم تعكرها تلك القطنة الدامية التي تسد أنفه:
- «Cheers»!

ارتشف كأسه، ثم جلس فاردًا ظهره على الكرسي العالي، مصفّرًا لحن مقدمة «La vie en rose»، وجلس يشاهدها بهدوء لاعبي اليوجا وهي تتجرع كأسها دفعة واحدة.

في لحظات قليلة، ضُخت جرعة الهيروين القاتلة بدمائها. لکمت ضربات قلبها العنيفة صدرها، فشعرت بألمٍ عظیم ينهش أضلعها، ونبضٍ يدق بأذنيها.

انخفضت درجة حرارتها كأنها قفزت في بحيرة جليدية بالقطب الشمالي، فُبْهت لونها وشحب وجهها، وازرقت شفثاها وأناملها وما أسفل أظافرها. انساب عرقها حتى بلل شعرها، وهبّط كثافته، كمن خرجت من حمّام بخار مغربي.

انقبضت حدقتها وكذلك عضلاتها، وترنح رأسها، واهتزت رؤيتها، وسال أنفها، وتحركت أمعاؤها، وإذ بها تفرغ محتويات معدتها للمرة الخامسة بهذه الليلة، ثم أخذت تلهث وتمد يديها بالهواء كأن هناك من يحاول أن يتشلها من ذاك الألم، حتى همست بصوتٍ واهن يتعسر التقاطه بوضوح:

- عمر!

سقطت في محاولة للإمساك بيده وهو يدعوها للانضمام إلى عالمه، وحين سقطت ظلت تنتفض وترتجف، وقد سيطرت عليها نوبات تشنجية عنيفة، وتقيأت أكثر حتى اختنقت من قيئها. أنهى هادي كأسه، ثم نهض مخرجًا هاتفه من جيبه.

فتح الكاميرا وبدأ يصور لحظاتها الأخيرة.

تقمص روح المخرج، فظل يأخذ لقطات قريبة وبعيدة معدلاً

الإضاءة والتناغم اللوني، حتى هدأت واستكانت وتوقفت تشنجاتها وارتخت تمامًا بعدما لفظت أنفاسها الأخيرة، وأخرجت الكثير من الرغاوي والفقاعات من فمها.

أوقف هادي الفيديو، ثم أرسله إلى هاتف سلطان، ليتبعه برسالة صوتية على التطبيق الذي بُرمج خصيصًا لتلك المراسلات والمكالمات التي يستحيل تتبعها أو اختراقها من قبل أي جهاز آخر. - «Done» يا مايسترو.

الفصل الرابع

انعكست على عدستي نظارته الأسطر المدونة بالصفحة التي أطل عليها عبر شاشة حاسوبه المحمول.

تراصت بجواره ثلاثة أكواب فارغة من الشاي الثقيل المر، احتساها في أثناء بحثه الطويل عن معنى لفظة «سيكوباتي»، وكاد ينهي علبة سجائره في أثناء غوصه بين عشرات البوابات الإلكترونية التي عرضت كلها تقريباً التعريف نفسه.

«السيكوباتية (psychopathy): مرض عقلي يتميز مريضه (السيكوباتي) بالسطحية، وانعدام الشعور بالخجل، والسلوك المُعادي للمجتمع، وفقر عام في الانفعالات، والبعد عن العلاقات الشخصية والحميمية.

ويرجح أن الشخص السيكوباتي كان ضحية حرمان انفعالي ومعاملة قاسية في طفولته المبكرة، وعليه ينشأ على عادات المكر والغدر والاحتيال، كي ينال رغباته ومطالبه التي تكون في الأغلب غير منطقية.

والسيكوباتي شخصية إجرامية، لا يندم على ما يرتكبه
من أعمال وحشية ودموية، بل ارتكابه تلك الجرائم
يعطيه المتعة واللذة».

خلع سالم نظارته، ودعك عينيه اللتين أَلَمَتاه من طيلة التحديق
إلى الشاشة، وهنا أدرك أن الليل قد أسدل ستاره لينصرم اليوم من
دون رجعة حبيبة أو ابنه أدهم إلى المنزل.

لقد اعتاد بعد كل شجار أن يمهل نفسه أسبوعاً حِداً أقصى لعودة
زوجته إلى المنزل من تلقاء نفسها - وهو ما لا تفعله غالباً - فينتهي
الأمْر بأن يذهب إليها، مُنهيّاً تلك الخصومة التي يُذوبها بعناق وقُبلة
مطبوعة على الجبين.

لكن المختلف بهذا الشجار هو ما قرأه بعد أن أنهى بحثه الذي
أثار فضوله.

لِمَ قد تصفه زوجته بمصطلح بهذه الشناعة والبشاعة، وما الجرم
الذي ارتكبه تجاهها لتنتعه بكلمة لا مرادف لها سوى «مجرم مختل
لا ضمير له»؟

أغلق حاسوبه، وترجل صوب خزانته مخرجاً قميصه الأبيض الناصع،
مُحضراً نفسه لمواجهة زوجته، وعلى الرغم من أن قطته كانت تموء
وتخرخر حوله كأنها تنهاه عن تركها، فإنه لم يستوقفه إلا رنين هاتفه.

نظر إلى رقم المتصل، ثم ضغط على زر الرد، وأخذ ينصت
لمحدثه بصمت من دون أن ينطق حرفاً.

هز رأسه، ونظر إلى ساعة يده، ثم أجاب بكلمة كانت كل ما نطقه
خلال هذه المكالمة:

- تمام.

أنهى مكالمته. استبدل بقميصه الأبيض الفاتح قميصاً رياضياً أسود، مع سروال قطني داكن. نزل من البناية وليس في جيبه غير مفاتيحه وهاتفه وعلبة سجائره وقداحته.

ترجل إلى آخر الشارع وصولاً إلى كوبري طرة، متابعاً البدر الذي حفظته أمه في طفولته أنه يُدعى «خونسو»، هكذا اعتادت أن تعلمه الأشياء بأسمائها عند أجداده المصريين القدماء، تماماً كما علمتها أمها النوبية وأبوها الحافظ للأساطير المصرية وآلهتها أكثر من حفظه لأسماء بناته الخمس.

ظل خونسو يتبع خطى سالم وهو يصعد الكوبري ثم ينزله ثم ينعطف يميناً عند مكب القمامة الذي يحيط بمنطقة البناء المظلمة، حيث لا عيان للقمر ولا سلطان لخونسو.

وقف عند طرف المكب المهجور، لا يؤانسه سوى نباح الكلاب ومواء القطط النابشة بالقمامة الفائحة.

شعر بالسلام في أثناء انتظاره في الهدوء البارد، وأسفل الظلام الطاغى، وبين طوارق الليل التي لا رفيق لها.

أسند ظهره إلى نصف حائط من الطوب الأحمر، ثم أخرج علبة سجائره، وانتقى واحدة أشعلها، ثم نفث دخانها صوب السماء. اخترقت العتمة هالتان من نور، كأنهما عينا القمر تسبحان وسط ظلمة البسيطة على حيد المكب.

لكن بعد دقائق اتضح أن الهالتين ليستا للبدر، بل لمصابيح

«جيب شيروكي» سوداء تعلو وتهبط مع اعوجاج والتواءات الطريق الجامح، حتى استقرت السيارة المجردة من أرقامها أمام المُدخن الشره المستمتع بوحدته.

* * *

استيقظت الشمس، وتمددت أشعة البكور بخمول لتتخضب السماء بحمرة فجرها مبددة ظلمة ليلها المتشح بالأسود. بشكل أوتوماتيكي، أرسل عقل سالم صاحب يقظة اليوم إشارات إلى باقي أعضاء بدنه، أن الشمس قد حضرت، وأن ساعة نومه قد حانت، فخلع نظارته ووضعها بجواره على طاولة فراشه الخاوي الذي لا يشاركه إياه سوى قطته.

عدل وسادته، وتأبط غطاءه، وأغلق عينيه اللتين كانتا معلقتين بالنافذة التي تتمايل ستائرهما باستحياء مع كل نسمة هواء تجاورها. حاول ألا يسترجع ما حدث، فعلى الرغم من أن هذا ما يمارسه باحتراف وإتقان منذ قرابة العقدين، فإن لعقله قدرة خارقة يعتبرها نعمة ونقمة، وهي معاملة حواسه كأرشيف لحفظ التفاصيل.

حاول أن يُخرج رائحة البخور التي كادت تخنقه بالأمس، وصوت الصفير الموسيقي، والصياح، واليدين اللتين لكمتا بوق السيارة بغضب حتى دمت براجم صاحبها، ولكن التفصيلة التي سيطرت على المشهد كانت اللون الأحمر القاني.

كل تلك التفاصيل خُزنت بلبّه، ولكن ما من تفصيلة واحدة أخذت حيزاً من مشاعره أو انفعالاته، ما من ردة فعل عنده، لا غضب ولا تودة ولا سخط ولا رضا ولا رفض ولا قبول، لا شيء سوى هدوء محايد.

قرر أن يتوقف عن مراجعة مشاهد الليل لينام.
همس إلى نفسه كما اعتادت أمه أن تفعل: «توتو.. توتو.. توتو». كانت تخبره بأن «هذا اسم إله النوم عند الأجداد، وإن ناديته قبل النوم لن ترى كوابيس».

كانت تلك البسيطة التي لا تفقه علماً سوى تراثها وتاريخها، غير مدركة أن سالم حين يخبر معلمه بمدرسته الابتدائية، بأنه يدعو إله النوم عند الفراعنة قبل أن يغمض جفنه كل ليلة، أنه سينعته بالمشرك، وسيمده بالخرزانة التي أبرحت كفيه الصغيرتين حين كان في الثامنة من عمره.

على الرغم من أن سالم كبر وفهم معنى الشرك وحرمانية تلك العادة الطفولية، فإنه ظل وحتى هذه اللحظة يكرر كلمة «توتو» ثلاث مرات قبل نومه.

ارتخى بدنه، وصممت أفكاره. انتقل بسلام من النعاس إلى التغفيق، لكن أيقظته حركة قطته الخفيفة إلى طرف الفراش.

فتح عينيه فرآها ترفع رأسها، بينما تنتصب أذناها، وذيلها الزغب يتحرك إلى الأمام وإلى الخلف حين استشعرت بحدسها الخارق صوت مفتاح يدور بباب شقة رفيقها.

اختفى توتو آخذاً معه كل الدعة والخمول حين التقط سالم صوت باب شقته يُفتح مثل قطته.

رفع رأسه عن وسادته، وانتشل نظارته يرتديها وهو ينهض ليجلس في فراشه بهدوء وبطء، كأن هناك جهاز استشعار سيصفر إذا التقط حركته.

مدّ يده صوب درج الكومود، ولكنه سمع صوتًا جعله يتراجع ويسقط حذره.

- بابي! بابي! إحنا رجعنا!

تنفس الصعداء حين وجد صغيره يدخل الغرفة، وهو يحجل على ساق تلو الأخرى قافزًا صوبه على الفراش، مما أفزع القطّة. ألقى أدهم بنفسه على حجر أبيه، فعانقه سالم وربت على ظهره وهو ينصت لخطى حبيبة القادمة من الصالة، ثم سمعها تجر كرسي المائدة بالخارج.

- غيّر هدومك على ما أشوف ماما.

- أوكيه، بس هاجي أناام جانبكم.

هزّ رأسه موافقًا على شرط وحيدته، ثم خرج من الغرفة فوثبت قطته برشاقة وحطت على قوائمها وسارت خلفه.

خرج إلى الصالة، فوجد سمراءه جالسة إلى المائدة، متكئة برأسها على كفيها مغطية وجهها.

بدت مهمومة ومرهقة، خصوصًا حين رفعت يديها عن تقاسيمها، فرأى عينيها حمراوين خاويتين من التعبير، فتأرجح شك سالم بين إن كان هذا بسبب قلة النوم أم فرط البكاء.

- كنتي عند عمر؟

- خبطت عليه ما فتحليش، واتصلت بيه ما ردش. مش بعيد يقاطعني هو كمان بسببك.

هزّ رأسه غير مبالي، وظل يحدق إليها. ودّ أن يسألها لمّ لم تنتظر حتى يأتي لمصالحتها، أو لمّ عادت بمفردها من دون قريب يتوسط

بينهما كما تفعل في العادة، ولمَ عادت بعد أقل من أربع وعشرين ساعة، ولمَ تبدو مرهقة إلى هذا الحد.

فضَّل أن يسألها سؤالاً إجابته أقل تعقيداً:

- هتنامي؟

- أنا حامل.

نظقتها ببطء وبنبرة مرهقة، لكنه ابتسم، وهو شيء نادر ندرة هطول الثلوج في أسوان في أغسطس.

جلس على الكرسي المجاور لها، وأمسك يدها، وقبَّل جبينها:

- إن شاء الله بنت، وهنسميها حليلة.

رأت السعادة في عينيه، فبكت.

حاولت أن تغطي وجهها بكفيها ثانية وهي ترتعش وتهز كتفيها.

لم يعد يفهم أهي تبكي من فرط السعادة، أم أن هناك ما يزعجها.

ما عاد قادراً على فك شفرتها.

وقف عاجزاً على تهدئتها حتى هدأ أنينها من تلقاء نفسه، ثم قالت:

- الدكتور شخص أدهم بأنه سيكوباتي.

- هو فيه دكاترة نفسيين فاتحين في العيد؟

- ده اللي شغلك؟ كلمته في التلفون يا أخي.

- طب فهميني الكلام ده معناه إيه.

- معناه إن ابنك عنده بواذر عنف إجرامي يا سالم. ابنك هيطلع

زي السفاحين اللي بنشوفهم في نتفليكس.

- ابني اللي في كي جي تو هيبقى سفاح ويتعمل عليه فيلم وثائقي

يا حبيبة؟

- هو أنا جايبة حاجة من عندي؟ نتايج مقياس الانحراف السيكوباتي طلعت إيجابية. يعلم ربنا إن أنا ما قصرتش معاه في حاجة، أنا عمري ما كنت قاسية عليه علشان يطلع بالمبول دي.

- يا ماما مفيش حاجة اسمها تروحي لدكتور يقولك ابنك هيطلع سفاح. هو مش هينجم.

- ده أفضل خبير سلوك في مصر، وأنا واثقة في تشخيصه لأنني من الأول حاسة إن فيه حاجة غلط بس ما تخيلتش إنه للدرجة دي.

صمت بضع ثوانٍ، ثم زفر وسألها:

- إيه سبب المرض ده؟

- إنت يا سالم. المبول دي بيكون معظمها وراثي و...

قاطعها بهدوئه المعتاد:

- وبما إنه وراثي فأكيد ورثه من أبوه الشرير مش كده؟ ليه لما

بيكون متفوق وشاطر يبقى ابنك حبيبك، ولما يخيب يبقى

ابني اللي حاله مايل؟

- علشان أنا عمري ما قتلت.

- يعني أنا اللي قتلت؟

- إنت بالنسبة له قاتل، هو قال كده للدكتور. قاله إنه كان عايز

يقتل القطعة علشان يبقى قوي زي بابي اللي قتل الخروف.

- هو أداء فريضة ربنا دلوقتي بقى قتل يا حبيبة؟

- ما تحرفش كلامي. اللي بقوله واللي الدكتور بيأكده إن إنت

كمان عندك ميول سيكوباتية وابنك اتشرب ده منك وقلدك في ردود أفعالك زي ما بيقلدك في طريقة أكلك وشربك ولبسك وكلامك وبرودك، وأنا مش مستعدة إنني أجيب طفل تاني ويطلع زيك.

عادت للبكاء، ثم قالت:

- أنا أصلاً مش عارفة إنت ليه بقيت كده يا سالم؟ ليه البرود واللامبالاة اللي إنت عايش فيهم دول؟ إنت حتى مش مخضوض من الكلام اللي قلتهولك عن تشخيص الدكتور لحالة أدهم، ولا كأنه ابنك. أنا مرعوبة!

بكت بشدة أكبر، فاهتزت كعصفور يحاول التحليق وسط عاصفة غاشمة.

وضع رأسه على كفه، وأخذ يراقبها تبكي، ثم ربت على كتفها بحذر وهو يقول بفتور:

- إيه اللي ممكن أعمله علشان أطمئك؟

أمسكت يده وتشبثت بذراعه قائلة:

- ساعدني. خيليني أحس إن فيه أمل بينا يا سالم، إنت وصلتني لمرحلة إنني بدأت أفكر في الطلاق. بس لما اكتشفت إنني حامل قلت ربنا بيدينا فرصة تانية، ربنا بيقولي إن فيه أمل في علاقتنا إنها تتجدد وتحسن.

تثاءب رغماً عنه، فقد ناداه توتو لأنه تخطى ميعاد نومه اليومي. نظر إلى الساعة السوداء المعلقة على الحائط ليجد أنه تأخر

ساعة عن أحلامه، فقرر أن يجاريها لينهي تلك المناقشة ويعود إلى فراشه الدافئ:

- إيه اللي ممكن أعمله علشان أحسن علاقتنا؟
- روح لدكتور نفسي.

* * *

من طبع سالم الالتزام بمواعيده، فلا يذكر أنه تأخر مرة، لكن ولأول مرة في حياته تعمد أن يماطل وأن يتأخر عن مواعده. أشعل السيارة الرابعة وهو ينظر إلى ساعته، ليدرك أنه تأخر خمس عشرة دقيقة عن مواعده.

بدأ ضميره يحُضه على الإسراع وإنهاء السيارة، فلبّى. بعد بضعة أنفاس عميقة وسريعة، أنهى سيارته وألقاها من نافذة سيارته «الماتريكس» الرمادية المتهالكة، ثم نزل وهو يراقب ذاك البرج بشارع «١٥٤» تحت رداء الليل الذي خفت ضي قمرة، كأنه في مشهد فيلم جريمة.

ليست جريمة قتل مثيرة، بل جريمة بحق ذاته وكبريائه، كتلك التي يُقدّم عليها الآن وهو يدخل المصعد ليرفعه إلى الدور الثاني عشر، لملاقة الدكتورة سلوان عبد السميع، الطبيبة والخبيرة بالصحة النفسية.

في المصعد، كان يفكر لماذا لم تلاحظ حبيبة طباعه تلك من قبل، ولم تعتقد أنه «صار» باردًا، و«أضحى» غير مبالي، و«أمسى» حامل العواطف، على الرغم من أنه لطالما كان هكذا.

ودَّ أن يخبرها بأن تلك هي خصاله منذ مراهقته، فإن كان هناك

حقًا تغير في ديناميكية علاقتهما، فسيكون تغيرًا من قبلها هي، فمعنى أنها بدأت تلاحظ عيوبه الآن، أن حبها له قلَّ.

هكذا هو الارتباط، علاقة عكسية تنص على أنه كلما زاد حبك لشريك حياتك، قلَّت قدرتك على تمييز عيوبه، كأنك كفيف يشتري سيارة.

لكنه لم يعرض عليها وجهة نظره هذه، آثر أن يتحمل العتاب والذنب كله بمفرده، لأنه يدرك أنه لن ينتج عن مواجهتها سوى الكثير من الصياح وصفق الأبواب وتوجيه الاتهامات، ثم لملمة الملابس والرحيل عند أخيها أو خالتها، واضطرار سالم إلى مصالحتها مجددًا.

وصل إلى الطابق المنشود، وبدأ يفكر فيما هو مقبل عليه. كيف سيكون شكل تلك الخبيرة التي من المفترض أن تشخصه كأنه أُنْتِيكة في انتظار أن يُقِيمها البائع ويُسعرها الشاري.

تخيلها امرأة ترتدي سترة صوفية رمادية عالية العنق، ونظارة نظر مكبرة، وشعرها معقوص إلى أعلى، تهز ساقيها بحذاء مدبب الكعب، ولها أظافر طويلة وحادة، وتضع أحمر شفاه داكنًا عتيقًا.

تصورها مصفرة الأسنان التي تبرز من بينها مسافات واسعة، ولعلها مدخنة شرهة، ولعلها أكثر اضطرابًا من مرضاها.

حاول تصور الغرفة التي سيتمدد فيها على الشازلونج كما في فيلم «بئر الحرمان».

تخيل دهانًا رماديًا، وأثاثًا أسود جلدًا يُصدر صوت احتكاك سخيفًا مع جسدك، وأن بغرتها مكتب زان داكنًا يقابله، وتتراص

على الجدران شهاداتها التي تختال بها، وفي الزاوية تمثال برونزي
أو مزهرية من الكريستال البلجيكي.

دخل سالم من باب العيادة بعد أن فتحت له الممرضة، ليتفاجأ
بأنه في غرفة تضج بالألوان الفاتحة من تدريجات الأبيض والبيج،
ثم هناك الزاوية مدهونة بالأزرق السماوي الذي تُبرز درجته رقة
الأرائك الوردية والخدائد البنفسجية والزهور النضرة البهيجة.
نظر حوله ليتأكد ثانية من عدم وجود كاميرات ليضمن خصوصيته،
لكن العيادة كانت كسائر أجزاء ذاك البرج الشاهق، مجردة من أي
كاميرات مراقبة.

جلس بضع دقائق، بينما حدثته الممرضة العشرينية بابتسامة
مريحة:

- دكتورة سلوان في انتظارك. اتفضل.

ولج الغرفة ليجدها أكثر أريحية من صالة الاستقبال.
الأثاث فاتح نظيف، الحائط عارٍ من أي شهادات أو صور أو
لوحات، والأرائك منبسطة تتزين بشيلان هندية الطابع تنبض بالألوان
الدافئة، وفي الزاوية كانت تجلس سلوان.

خمسينية، فارعة، رفيعة، عريضة الكتفين، مسطحة الصدر، شعرها
كستنائي قصير تتموج خصلاته البوهيمية حول عنقها الطويلة.
نظرت إليه بعينيها مسحوبتي الطرف واللتين تلمعان ببريق الذكاء
الحاد، ثم ابتسمت بشفتيها العريضتين اللتين يستتر أسفلهما فك ناتئ
يكشف عن أسنان مصطنعة البياض.

- مساء الخير.

قالتها وهي تنهض عن كرسيها البنفسجي العالي، آخذة بضع خطوات لتلاقي مريضها بمنتصف الغرفة. صافحها وقد صح تخيله في أمر واحد، أظافرها كانت طويلة وحادة كما تصور.

- اتفضل.

- أقعد فين؟

- في المكان اللي ترتاح له.

نظر إلى الكراسي المختلفة بالغرفة بين جلدي عالٍ، وإسفنجي مستدير بلا ظهر، وأريكة طويلة تقابل كرسي سلوان.

تخير الأريكة، فجلس وهو يراقب سلوان التي أفقدتها ملابسها هيبة الطبيب النفسية الكلاسيكية التي في مخيلته. فقد كانت ترتدي سترة وردية، أسفلها قميص قطني أبيض، وسروال جينز، وحذاء رياضياً مطرزاً عليه بضع زهور وردية. فلم ينزعج سالم فقط من فكرة أن ملابسها متصايبية لا تناسب عمرها، بل إن مظهرها لم يواكب أجواء الإثارة والغموض التي رسمها بخياله.

استقرت سلوان في جلستها واضعة ساقاً فوق الأخرى، لتريح عليها حافظة الورق الجلدية التي تسند إليها دفتريها، ثم نظرت إلى شيء يعلو رأس سالم، فالتفت ليجدها ساعة بيضاء ذهبية الإطار تشير إلى العاشرة مساءً.

- طبعاً أنا عارفة اسمك من الاستمارة اللي مليتها بره، بس أنا بحب أتعرف بنفسني على كل ضيف بيشر فيني لأول مرة. هسألك شوية أسئلة وإن مش هتجاوب غير على اللي ترتاح للرد عليه، اتفقنا؟

هز رأسه إيجابًا.

- السن والمهنة والحالة الاجتماعية.
- سبعة وتلاتين سنة، مبرمج، متجوز وعندي طفل ومنتظر الثاني.
- ابتسمت ابتسامة أعاق البوتوكس وصولها إلى عينيها الضيقتين.
- مبسوط إن هيجليك طفل ثاني؟
- هتبسط أكثر لو طلعت بنت.
- ليه بتفضل البنات؟
- نفسي في بنت شبه أمي.
- يا بخت والدتك، أكيد فخورة بإن ابنها بيحبها أوي كده.
- يمكن.

- ما عبرتلكش عن فخرها بيك قبل كده؟
- ما عبرتليش عن حاجة من ساعة ما ماتت.
- الله يرحمها.

كتبت ملاحظة، ثم أضافت:

- ووالدك؟

أطرق مراقبًا يديها اللتين لم تترددا في الوشاية بتقدم عمرها، ثم سألها:

- ممكن أدخن؟

- أكيد.

انتشلت المِرمدة من على الطاولة المجاورة لها وناولته إياها، بينما أخرج سجائره من جيبه وسألها وهو يستعد لإشعالها:

- إنتي بتسجلي أو بتصوري أي حاجة بتتقال هنا؟

- لآ، أنا بكتفي بالملاحظات اللي بكتبها. تقدر تقول عليا «old school».

هز رأسه، ثم نفت دخانه وتفقد ساعة يده موضحًا:

- أنا عارف إن الجلسة وقتها محدود، فهخش في الموضوع على طول. أنا جايلك علشان عايز أعرف إذا كنت سيكوباتي ولا لا.

- إيه اللي مخليك شاكك في إنك سيكوباتي؟

- مراتي شايقة كده.

- للدرجة دي بتشق في رأيها؟

- هي دارسة علم نفس، فأكيد عندها سبب علمي يخليها تشوفني كده.

- يعني إنت هنا بس علشان تنفذ رغبة زوجتك؟

- يمكن، ويمكن فضول شخصي. أنا قرئت عن الموضوع على الإنترنت بس الصورة ما وصلتنيش كاملة.

- وفي اللي قرئته على الإنترنت، لقيت صفات مشتركة بينك وبين السيكوباتيين؟

هز كتفيه وهو يطبق على سيجارته بشفتيه، ليضع يديه بجيبه وهو يقول بأريحية:

- طول عمري عارف إن برمجتني مختلفة عن باقي الناس، بس مش للدرجة إني مجنون.

- السيكوباتية مش جنون. ده اضطراب ممكن يكون وراثي أو عضوي بسبب تشوهات في اللوزة الدماغية، أو اضطراب

في الكروموسومات، أو حتى الظروف الاجتماعية المحيطة
بالإنسان، خصوصًا في فترة الطفولة والمراهقة.
استعدت كأن الجلسة على وشك اتخاذ منحني مختلف، فقربت
الأوراق منها، وسنت قلمها قائلة:

- هسألك شوية أسئلة ملهاش إجابة صح أو غلط، بس ليها
إجابات صادقة أو مختلقة. خيلنا نتفق على الصدق، موافق؟
هز رأسه موافقًا، وربّع ذراعيه منصتًا لسؤالها الأول.
- شايف إن حياتك اليومية مثيرة للاهتمام؟
هز رأسه نفيًا.

- بتثمر بمشاكل ومجاذلات زوجية كثير؟
- لأ، لأنني بحتوي المشكلة قبل ما تكبر.
- وده مش بيحسك إنك اتهزمت في النقاش بسهولة؟
- لأ، لأنني أصلًا مش بتناقش مع حد.
- ليه؟

- لأن الغرض الوحيد من أي نقاش في مجتمعنا هو إنك تثبت
لنفسك إنك صح وإن رأيك اللي انتصر.
- وإنك مش مهتم تنتصر على اللي قدامك؟
- أنتصر عليه فكريًا؟
أطرق مفكرًا، ثم مط شففيه وأردف:
- لأ.

دوّنت بضع كلمات، ثم تابعت:
- راضي عن حياتك الجنسية؟

هز رأسه موافقًا.

- يعني معندكش أي خيالات مش قادر تحققها بسبب العادات والأعراف؟

دفن سيجارته في المِرمدة ببطء، ثم أجاب بثقة:

- أنا لو عايز أحقق حاجة هحققها بغض النظر عن أي عادات وأعراف. بس لو قصدك تسألني إذا كان عندي أي ميول غريبة، فلا.

- بتتناول أي عقاقير مخدرة أو مشروبات كحولية بشكل منتظم؟ هز رأسه بلا.

- بتحس في حياتك بالظلم؟

- هو فيه حد ما اتظلمش؟

- بس فيه ناس ما بتسكتش عن حقها. يا ترى إنت منهم؟

- أنا عمري ما سكت لحد حاول بيعجي عليا.

- حتى لو أخذ حقك ده هيسبب خروجك عن القانون؟

- أنهى قانون؟ قانوني ولا قانونك ولا قانون المجتمع ولا قانون ربنا؟

حكَّت شحمة أذنها، ورفعت حاجبيها الرفيعين المصبوغين كشعرها، بشيء من الإعجاب بردوده الفلسفية، ثم قالت:

- إنت إيه قانونك يا سالم؟

- العين بالعين.

- والقانون ده مخليك راضي عن حياتك؟

- الرضا مش بيوجب غير الخراب. اللي بيرضى بيسكت ويسيب

الدنيا تلطش فيه بدون ما يعمل حاجة يحمي بيها نفسه. لو كلنا راضيين محدش هيطمع، ولو محدش طمع محدش هيشغل ولا يتعب ولا يسعى ولا يعمر الأرض. هنفضل محلك سر لحد ما ننقرض.

- وإنت طمعان في إيه؟

أخرج سيجارة جديدة وهو يفكر في إجابة لسؤالها:

- مش عارف. فيه حاجة ناقصة في حياتي مش قادر أحدد هي إيه.
- سخييف شعور إنك تبقى مش عارف تحدد إيه اللي ناقصك،
صح؟

- المشاعر كلها سخييفة.

- حتى الحب؟

- ده الحب أسخفهم.

توقف عن الحديث ليشعل سيجارته وينفث دخانها، ثم أردف مفسراً:

- كدبة رأسمالية اخترعوها علشان يجبروك تشتري وتصرف بدافع شعور وهمي. لو بتحب ولادك دخلهم مدرسة مصارينها مش هتتسدد غير لما تبيع كليتك، لو بتحب مراتك جييلها المجوهرات الغالية دي، لو بتحب الحياة الكريمة اشتغل خمستاشر ساعة وخذ مرتب قليل وبوس إيدك وش وضهر. الحب هو أساس كل بذخ وكل استغلال عاطفي. الحب ملوش هدف غير السماح للنظام والمجتمع بتحريكك زي الماريونيت.
- بتحس إن الناس بتستغلك بسبب حبك ليهم؟

- لاء، لأنني ببساطة ما بحبش حد. ربنا خالقني من غير الأوبشن ده.

- ولا حتى مراتك وابنك؟

مط شفتيه ونظر إلى أصابعها القابضة على القلم، ثم قال بعد تدبر:

- شعوري ناحيتهم شعور بالمسؤولية. ده شعور أصدق بكثير من الحب.

- ومامتك، كان إيه شعورك ناحيتها؟

أطرق إلى الأرض من دون أن يطرف له رمش.

ضغط على سيجارته وسحب دخانها بكسل، ثم أخرجه بتراخٍ

قائلاً:

- إيه السؤال الثاني؟

ابتسمت سلوان بغرض أن تطمئنه.

انشغلت بورقتها، وأخذت تدوّن ملاحظاتها، ثم نظرت إلى سالم

لبضع ثوانٍ محاولة أن تحدد تعبيراته وانفعالاته، لكنه أهدأ مريض

مر عليها وأقلهم تفاعلاً، لكن الأهم أنه كان أصدقهم، وهو انطباع

يندر اتخاذه عن مريض في أثناء جلسته الأولى.

- هسألك سؤال، لك مطلق الحرية إنك ما تجاوبش عليه، بس

لو هتجاوب، أتمنى توعدني إنك هتجاوب بصدق.

هز رأسه مرحباً بالفكرة، فأردفت:

- خرجت قبل كده عن القانون؟ وأقصد هنا القانون الجنائي.

عمرك ارتكبت جريمة؟

تفرس قسماتها لبضع ثوانٍ، ثم أحنى ظهره مقترباً منها كأنه على

وشك أن ينطق سرّاً:

- إنتو فعلاً حالفين قسم إنكم ما تطلعوش أسرار مرضاكم؟
- اقتربت منه وأحتت ظهرها مثله، وهمست بصوتٍ أخفض:
- العيادة دي مثلث برمودا، اللي بتقوله فيها بيختفي للأبد.
- أطفأ سيجارته، ثم تكلم من دون مزيد من التفكير:
- اللي خلاني أجيلك هنا مش علشان تقولي لي إذا كنت سيكوباتي ولا لأ. أنا جاي أعرف منك إيه علاج السيكوباتية لأنني متأكد مية في المية إني فعلاً سيكوباتي.
- ليه متأكد؟
- بيقولوا على الإنترنت إن السيكوباتي مش بيحس بتأنيب الضمير أو الذنب اتجاه الناس حتى لو كان أذاهم أذى كبير. الكلام ده ينطبق عليا بالمللي.
- إمتى آخر مرة أذيت فيها حد؟
- إمبارح الفجر.
- أذيته إزاي؟
- ثبت نظارته على أنفه، ثم همس كأن هناك مَنْ يتنصت عليهما:
- قتلته.
- قطبت سلوان حاجبيها المقوسين، وحاولت أن تخفي صدمتها، وأن تلتزم الاحترافية.
- ازدردت ريقها بصعوبة وقد انتصب ظهرها الذي كان مقبلاً على سالم، فالتصقت بمسند كرسيها، ثم همست إليه:
- قتلته ليه؟
- لأن ده شغلي. أنا قاتل مأجور.

صُفّق الباب وُفُتِح على مصراعيه، وسمع سالم وسلوان الممرضة وهي تصيح:

- يا فندم ما يصحش كده فيه حد جوه.

التفت سالم وطبيبته صوب الجذاب ذي الجسد الرياضي وطابع الحسن والغمازتين والشعر الكثيف اللامع والعينين الكحيلتين الناعستين ورائحة العطر الفرنسي والبدلة الأنيقة والساعة «الرولكس» الذهبية.

نظر هادي الحكيم إلى سالم عبد الرحيم نظرة غاضبة، وقال بابتسامة معاتبة:

- ده اللي اتفقنا عليه يا صديقي؟

الفصل الخامس

- دخل هادي الغرفة وصفق الباب في وجه الممرضة، ثم التفت إلى الطيبة سلوان بابتسامته الساحرة، واقترب منها بخطى واثقة:
- «Pardon» يا هانم على المقاطعة.
- أمسك يدها وقبّلها بأرستقراطية، ثم قدّم نفسه قائلاً:
- هادي الحكيم.
- تأمل أنحاء الغرفة، ثم استقر نظره على سالم الذي لم تختلج ملامحه من دخول هادي المفاجئ.
- أردف هادي بضيق وهو يجلس على الأريكة بجواره:
- أنا الطبيب المعالج لسالم. سمعت المعلومات اللي مريضني كان بيقولها لك.
- ضحك مستهتراً:
- طبعاً ده كلام فاضي، سالم عمره ما قتل ولا لمسك حتى قصافة.
- لم يعلق سالم، وسحب سيجارة جديدة من علبته وأشعلها، بينما عقب هادي:
- هو من كتر ما حياته الزوجية مملة بقى مصاب بهلاوس.

سحب هادي السيجارة من بين أصابع سالم بهدوء، ثم ثناها بالمرمدة، ورمقه محذرًا إياه من التدخين ثانية، ثم أكمل حديثه:

- الهلاوس دي بتخليه يتصور إنه قاتل محترف، وإن حياته كلها أكشن ومغامرات.

أرجعت سلوان ظهرها إلى الورا في محاولة لاستيعاب ما يدور. حين دخل سالم عيادتها، توقعت أنه أتى يشكو الاكتئاب أو ربما الوسواس القهري، لكن آخر ما ظنته هو أن يكون قاتلاً سيكوباتيًا، والآن ها قد أتى ضيف آخر يتضاد مع الأول في كل شيء.

تفحصتهما من رأسيهما حتى أقدامهما، كأنها تحاول أن تقرأ الطالع وهي تنفرس قسماتيهما وملابسهما ولغة جسديهما، لتلاحظ أن هادي يستخدم يديه كثيرًا منفتحًا على العالم وخارجًا عن إطار مساحته الشخصية، ويلمس ذقنه ويثرئ بعنقه بنرجسية من برهة إلى برهة، بعكس سالم المتيبس الذي لا يحرك يديه إلا إذا كان سيشعل سيجارة.

قلبت صفحة جديدة، وأعدت قلمها، وقررت أن تهزم التوتر الذي انتابها، وأن تريهما وجهًا يختلف عن الوجه المريح الحنون الذي عادة ما تلبسه لمرضاها الأرستقراطيين.

- إيه نوع الهلاوس اللي مريضك بيشتكى منها يا دكتور هادي؟

حدق إليها هادي، وتبادل النظرات مع سالم الذي ابتسم له ساخرًا متحديًا إياه أن يجيب بدقة، حتى حكَّ هادي طابع حسنه وأجاب سلوان بثقة:

- هلاوس بصرية.

- من أي نوع؟ هلاوس مرافقة للذهان ولأ الهذيان ولأ الفصام،
ولأ نوع مختلف؟

ابتسم هادي ومشط شعره ضاحكًا بلا إجابة، فأردفت سلوان
بشبات:

- ما أعتقدش إنك طبيب نفسي. أظن إن سالم صادق في اعترافه،
وإنت جيت وراه علشان خايف يطلع أي تفاصيل تخص
شغلکم. إنت هنا علشان حاسس بالخطر.

- سالم عمره ما كان مصدر خطر بالنسبة لي.

- أوكيه. ده معناه إنك شريكه مش مديره. لو كنت مديره كان
زمانك قتلتني وقتلته بدل ما تحاول تكذب علشان تطلعه من
هنا بأقل خسائر، مضبوط؟

صفق هادي وابتسم معجبًا بفطنة سلوان قائلاً:
- برافو يا دكتورة.

ربت على كتف سالم بحماس وهو يضيف:

- دكتورتك شاطرة يا سالم. هل ده بقى استنتاجها، ولأ إنت اللي
حكيت لها عن اللي عملناه إمبراح؟

* * *

قبل الجلسة بأربع وعشرين ساعة

أغلق حاسوبه، وترجل صوب خزانته مخرجًا قميصه الأبيض
الناصع، مُحضراً نفسه لمواجهة زوجته، وعلى الرغم من أن قطته
كانت تموء وتخرخر حوله كأنها تنهاه عن تركها، فإنه لم يستوقفه
إلا رنين هاتفه.

نظر إلى رقم المتصل، ثم ضغط على زر الرد، وأخذ ينصت لمحدثه بصمت من دون أن ينطق حرفاً.

كان المتصل هادي وهو يطير على الطريق الصحراوي أسفل البدر المتوسط الفضاء الليلي المزدان بالنجوم المتألثة المحروم القاهريون من رؤيتها.

أسرع بسيارته الكلاسيكية على صوت إيديت بياف في طريق عودته من الساحل الشمالي، بعد أن مسح بصماته من كل إنش بفيلاً الدَّغَش، وتأكد أن ابنة شقيقته هايدي قد توقف نبضها، وأرسل الفيديو المقيت إلى سلطان عن طريق تطبيق الهاتف الذي برمجه سالم حتى لا يتمكن أحدهم من اختراقه أو تتبُّعه، وليكون الوسيلة الآمنة لتبادل أي معلومات تخص أي جريمة يرتكبونها.

- كل سنة وإنّ طيب يا أبو أدهم. معلش هقاطع طقوسك العائلية المملة، وهخليك تلبس وتجهز علشان في طاجن صيادية لازم يتاكل الليلة. هجيب الشيروكي من البيت وأبقى عندك خلال ساعتين.

هز رأسه، ونظر إلى ساعة يده، ثم أجاب بكلمة كانت كل ما نطقه خلال هذه المكالمات:

- تمام.

نزل من البناية وليس في جيبه غير مفاتيحه وهاتفه وعلبة سجائره وقداحتة.

ترجل إلى آخر الشارع وصولاً إلى كوبري طرة. صعد، ثم نزل، ثم انعطف يمينا صوب مكب القمامة الذي يحيط بمنطقة بناء مظلمة.

أسند ظهره إلى نصف حائط من الطوب الأحمر، ثم أخرج علبة سجائره، وانتقى واحدة أشعلها، ثم نفث دخانها صوب السماء. اخترقت العتمة هالتان من نور، كأنهما عينا القمر تسبحان وسط ظلمة البسيطة على حيد المكب.

لكن بعد دقائق اتضح أن الهالتين ليستا للبدر، بل لمصاييح «جيب شيروكي» سوداء تعلو وتهبط مع اعوجاج والتواءات الطريق الجامح، حتى استقرت السيارة المجردة من أرقامها أمام المُدخن الشره المستمتع بوحده.

اتجه سالم إلى سيارة هادي، ثم فتح الباب ليجلس وما زالت سيجارته بفمه، فقال له:
- التدخين يدمر الصحة.

انتشل هادي السيجارة من بين شفّتي سالم، ثم ألقاها من النافذة.

تأفف سالم وجلس بجوار هادي، فاستقبله الأخير بابتسامة مرحبة وهو يقول:

- وحشتني.

- اطلع!

تخطى فضاظة سالم وتجاهله لترحيب صديقه له، واستأنف قيادته الانتحارية.

يطير بسرعة ١٢٠ كيلومترًا بالساعة، ثم يفرمل فجأة ليتفادى حفرة أو يعلو مطبًا بالطريق الذي يحفظه عن ظهر قلب. وتزداد جرعة الأدرينالين كلما ظهرت سيارة نقل ثقيل بالطريق، فيباغتها

ويسارعها على ألحان أغنية «Milord» المبهجة، وهادي يردد وراءها
بروح معنوية مرتفعة:

فلتأتِ يا ميلور

وتنضم إلي طاولتي

الجو بارد بالخارج

ولكن الجلوس هنا معي سيريحك

مد سالم يده وأطفأ الراديو الذي تخرج منه الأغنية الأثيرة لقلب
هادي.

نظر إليه هادي متأففاً، وخيم صمت الليل على الأجواء.

- لو هتطفي الأغنية اتكلم معايا. عملت إيه في العيد غير إنك

دبحت واديت المدام والولد العيدية وحاجات المتجوزين

المملة دي؟

لم يُجِبْه ولم يلتفت إليه، كأنه غير موجود من الأصل.

التفت هادي صوبه وهو يكلمه من دون أن ينظر إلى الكورنيش

الخالى الذي يطير على أسفله.

- يعني ما بتردش؟

- انجز علشان عايز أدخن.

- طلباتك أوامر.

دعس على البنزين أكثر، وأخذ سالم يتساءل إن كان سيموت يوماً

ما بسبب قيادة هادي الشيطانية.

* * *

أسند ظهره إلى السيارة السوداء اللامعة مدخناً سيجارته وهو يراقب

الأبراج الشاهقة المطلة على النيل، مفكرًا كيف سيبدو المنظر من الأعلى إذا تأمل الشروق المطل على نهر حابي من إحدى هذه النوافذ. سحب النفس الأخير من سيجارته وألقاها أرضًا، فأحمد أنفاسها المعافرة بطرف حدائه، ثم أخذ عُقبها المطفأ ووضعها في جيبه. انضم إلى هادي الذي يُخرج حقيبتين معدنيتين من السيارة. جاوره عند الزاوية المظلمة التي تعمى عنها كل كاميرات المراقبة المعلقة فوق المتاجر والمحال، وأخرج من ظهر السيارة بدلة بيضاء من النايلون كبديل مربى النحل، ارتداها مثل هادي. دخلا مرتدين البدلتين النايلون البيضاء اللتين تغطيان كل جزء بجسديهما إلى البرج.

استدعى هادي المصعد وانتظر لحظات كان سيدها الصمت، حتى رنَّ المصعد معلنًا عن وصوله، فولجاه.

ضغط هادي على رقم ثلاثة عشر، ثم التفت إليه سالم سائلًا إياه: - تعرف يعني إيه سيكوباتي؟ أغلق المصعد بابه الثقيل.

أخرج هادي من جيبه مفتاح الشقة وهو يشرح:

- واحد مختل عقليًا يستمتع بعذاب الآخرين.

فُتح الباب حين وصل إلى الطابق المنشود، فخرجا.

سارا حتى الشقة المنشودة. فتح هادي الباب بالمفتاح، ثم دخلا.

لم تكن ملامح الشقة واضحة بسبب هذا الظلام، فاستعان سالم بكشافه الصغير، بينما أغلق هادي الباب خلفهما بالمفتاح بنفس عدد الدورات التي فتحها.

كشف الكشف الصغير عن مائدة وأثاث عربي الطراز، ومبخرة
مشتعلة وصل دخان بخورها الثقيل إلى أنفيهما.
وضع هادي حقيته على المائدة، وأخرج أدواته وهو يهمس إلى
سالم:

- ما سُفتش فيلم «Psycho»؟ كان عن واحد سيكوباتي بيقتل
الستات.

أخرج من الحقيبة حبلًا خشنًا، ولاصقًا أمريكيًا شديد الالتصاق،
وست سكاكين من أنواع وأحجام مختلفة رصها بدقة من الأكبر إلى
الأصغر، وأردف:

- وفيه فيلم تاني اسمه «American Psycho» بتاع كريستيان بيل.

عمل دور يهبل. بس إنت شاغل بالك بالموضوع ده ليه؟
أخرج سالم من جيبه مسدسًا كاتمًا للصوت، تفحص أجزاءه
وهو يجيب شريكه:

- حبيبة شايفة إني سيكوباتي.

ضحك هادي ساخرًا:

- إنت سيكوباتي!

أخرج خزينة طلقات ومسدسًا من الحقيبة الثانية، ثم أردف وهو
يعدُّ مسدسه ثم يضعه على المائدة بجوار باقي أدواته:

- إنت أبعد ما يكون عن السيكوباتية. أنا شايف إنك...

- ههشششش.

أسكته سالم، ثم أشار صوب الباب حين استشعرت أذناه حركة.
سمعا صوت المفتاح يُدار بداخل الباب، فتأهبا.

سحب هادي السكين الكبيرة، بينما أحكم سالم قبضته على مسدسه، ثم سارا على أطراف أصابعهما صوب الباب.
وقف هادي عند الطرف الأيمن، بينما قابله سالم على الطرف الأيسر.

لف المفتاح لفته الأولى.
أشار سالم إلى هادي بأنه سيقوم بالضربة الأولى.
لف المفتاح لفته الثانية.
هز هادي رأسه موافقًا، وأحكم قبضته على سكينه بحماس طفولي.
لف المفتاح لفته الثالثة.
دخل صاحب الشقة وقد ألصق الاثنان ظهريهما بالحائط، فلم يلاحظ وجودهما في هذه العتمة.
ركل الباب بساقه وراءه لينغلق، غير مدرك أن مساعدَي عزرائيل يقفان خلفه.

تمشى حتى منتصف الصالة مترنحًا، وإذ بسالم يهجم عليه من حيث لا يدري، كأن أمعاء الظلام قد لفظته.
همَّ صاحب الشقة أن يصيح، لكن بخفة، أطبق سالم يده على فمه حتى شد اللاصق على فمه فكتم صوته.
بسرعة، قيّد سالم يديه، ثم ركل قدميه فأبركه أرضًا، وإذ بهادي يربط ساقيه ليشلّا حركة ضحيتهما تمامًا.
نزل هادي على ركبتيه ليصل إلى مستوى نظر ضحيته، وكلمه بابتسامة مستفزة وعينين تبرقان حماسة وحمية:
- سلطان الدَّغش يتمنى لك عيدًا مباركًا.

حرص هادي على أن يُريه السكين الحادة التي سينهي بها حياته، فاكتنف الضحية المقيدة الهلع، وصار يرفس كالتيس بيديه وقدميه المقيدة، ويصارع اللاصق على فمه ليحرر صرخة قد تكون المنجدة.

قال سالم لهادي:

- ما تقتلوش بالسكينة.

- ليه؟

- علشان قتلت اللي قبله بنفس السكينة. البوليس ممكن يربط بين الجريمتين ويوصللنا.

- مش فاهم.

- ما توحدش طريقة قتلك. شوف طريقة تانية.

- ممكن أقتله بسكينة تانية. أنا جايب معايا كل السكاكين.

ظل سالم يحدق إليه من دون تعليق، فحاول هادي أن يقنعه:

- ممكن أطعنه في مكان مختلف عن اللي طعنت فيه اللي قبله.

- مكان غير الستة وتلاتين مكان اللي خدهم المرحوم اللي قبله؟

استشعر التهكم بنبرة سالم، فبدأ صبره ينفد، خصوصاً أنه يكره

التحاور في أثناء القتل، فهذا يقلل من تحمسه ويهدئ من حميته.

- عايزني أقتله إزاي يعني؟ قتلتك إني...

قاطع هادي صوت الطلقة المكتومة التي خرجت من فوهة مسدس

سالم لتخترق بسلاسة رأس الضحية المربوطة.

سالت الدماء الدبقة، فنهض هادي سريعاً حتى لا تتلطح بدلتة

البيضاء.

ظل سالم يحدق إلى الرأس الذي اخترقته رصاصته وهو يرى
بركة الدم الصغيرة تتسع وتمدد، وخُيِّل إليه أن تلك الجثة تنظر
إليه بعتاب.

ضرب هادي الأرض بعصية، وصاح في سالم غاضباً:
- ليه يا سالم؟ ليه؟ ده كان دوري. أنا كنت مرتب نفسي على إن
أنا اللي هقتله يا أخي.
- معلش.

فك سالم مسدسه، وقابل غضب هادي الطفولي بلامبالاة.
أعاد مسدسه إلى حقيبته، ولملم أدواتهما بالحقيبة الأخرى، وأتبع
التعليمات الموجهة إليهما بأن يتركا الجثة مكانها، ثم خرجا من الشقة
كما دخلاها واستدعيا المصعد.

لم يكن هناك أي تغيير بتعبيرات سالم، كما صعد كما سينزل، إلا
أنه شتان بين حماس هادي في أثناء صعوده، والغضب والحنق وخيبة
الأمل التي تعتصره الآن.

خرجوا من البرج وهادي يفك غطاء الرأس والقناع الأسود في
طريقه للسيارة، كذلك فعل سالم وهو يخرج سجائره، ويشعل واحدة
يتلذذ بأنفاسها بينما يخلع بدلته البيضاء.

شد هادي السيجارة من بين أصابع سالم، وألقاها على الأرض
ودعسها أكثر من مرة بغضب، ثم صاح:

- لو هتقف تضيع الوقت في السجائر، شوف حد غيري يوصلك.
ركب السيارة ووقف بابها بعنف.

ركب سالم بجواره من دون أي تعليق، وإذ بهادي ينطلق بسرعة

أقصى من التي أتى بها، كأنه أقسم على أن ينهي حياتيهما الليلة على
الأسفلت.

لكن وعلى أي حال، هكذا كانت حقيقتهم، لا هادي الحكيم
بالرزين الهادئ، ولا سالم عبد الرحيم بالرؤوف المسالم.

الفصل السادس

حاولت سلوان أن تتدارك ما قصه هادي عليها للتو، فسألته:

- يعني إنتو الاتنين قتلة مأجورين!

أجابها هادي ساخرًا:

- قولي «hitman» أشيك بكثير. نرجع لموضوعنا. اللي حكيتهولك

ده معناه إننا مش سيكوباتيين زي ما حضرتك ومراته بتحاولوا

تقنعوه.

- كونكم بقتلوا أشخاص لا أذوكم ولا سببولكم ضرر ولا عندكم

دافع شخصي لقتلهم، فده ملوش مسمى غير سيكوباتية.

- طب ما الجنود في الحرب بيقتلوا العدو، وظباط الشرطة

بيقتلوا المجرمين في المطاردات، وعشماوي بيعدم اللي

عليه الدور بدون ما يكون له دافع شخصي. ده معناه إنهم

سيكوباتيين؟

- دول بيقتلوا علشان يحموا المجتمع، إنما إنتو إيه قضيتكم؟

أجابها سالم بلسان خمل:

- الموضوع مش دافع وقضية. دي وظيفة زي أي وظيفة.

- لآ يا سالم «excusez-moi» بقى، الموضوع مش وظيفة والسلام.
ده شغف، أنا كل ما بيجيلي أورد ر جديد بتبقى معنوياتي مرتفعة
ومتشوق ومتحمس للي هعمله. أنا إنسان عنده ضمير مهني
يا دكتورة، وبراعي الناس اللي شغال معاهم، بدليل إني بقالي
أكثر من عشرين سنة «hitman» ومحدث قدر يمسك عليا دليل
واحد، عارفة ليه يا دكتورة؟

لم يترى لىسمع إجابتها، وأردف شامخ الرأس واضعاً ساقاً فوق
الأخرى:

- لأنى فنان شغوف متقن لعمله.
بدأ التوتريطفو على سطح المشهد ثانية، فحاولت سلوان أن تظل
متمسكة بزمام الحوار، فقالت لهادي:
- ده مش شغف، ده إدمان.
- أنا مش مدمن حاجة، بدليل إن إمبراح لما سالم ما احترمش
الدور وقتل هو الراجل مكاني، أنا ما تضايقتش.
كان يكذب.

* * *

قبل الجلسة بأربع وعشرين ساعة
لكم هادي بوق السيارة وقد انتابته نوبة غضب أخرى، حتى
تطايرت أجزاء من المقود، وانقطع صوت البوق، ودمت براجم
أصابعه الناتئة وهو يصيح:
- ده كان دوري أنا!

توقف عن لكم البوق، وظل سالم ينظر إليه ببرود من دون تعليق.

لهث هادي، ثم فتح النافذة وأخرج رأسه منها ليتنفس بعض الهواء المنعش لعلّه يهدأ.

داعب صبا الليل قسمات وجهه الأرستقراطي، ثم التفت إلى سالم، وحاول أن يعبر له عن مكنونه بهدوء.

- المرة اللي فاتت إنت اللي قتلت سامح العدوي، فالمفروض المرة دي أنا اللي أقتل شريف عادل. أنا ما سبتش حفلة شندويلي والساحل باللي فيه علشان آجي هنا أتفرج عليك وإنت بتقتله بالطريقة دي.

علت نبرته ثانية، واهتاج مجددًا:

- قتلته بطلقة في دماغه في ثلاث ثواني. فين أم المتعة في كده؟
- سلطان بيدفع لنا فلوس علشان نقتل، مش علشان نستمتع.

لَكم البوق ثلاث مرات صائحًا:

- غلط! غلط! غلط! طول ما إنت بتعمل شغلك من غير متعة، عمرك ما تتعرف معنى الحياة، وهتفضل جماد معندوش مشاعر.

رمقه سالم بشيء من الانزعاج، فتنهد هادي وسحب منديلًا يمسح به يده التي دمت، ثم قال بنبرة أهدأ:

- سالم، إنت عارف أنا بحبك أد إيه، بس إنت أحيانًا بيبقى ليك تصرفات بتخرجني عن شعوري.

لم يُعِر سالم رأيه اهتمامًا، وخرج من السيارة أسفل الكوبري ذاته تحت القمر نفسه عائدًا إلى منزله، بينما أكمل هادي قيادته الانتحارية، ولا يسيطر عليه سوى الغضب.

انطلق مسعورًا يشفق على نفسه كظمآن كان على شفا خطوة من أن يروي جوفه بماء عذب، وإذ بجبار يسكب المياه أمامه من دون أن ينالها.

لذلك، يعلم أنه لن يغمض له جفن الليلة قبل أن ينهل من البلال ما يُخمد لظى تعطشه للدماء.

قادته غريزته إلى ذاك الكوبري الحديدي الذي يبدأ وينتهي بأسدين شامخين، ويكثر على جانبيه إناثهم اللاتي يتشرن كطوارق الليل في أيام الأعياد.

كان يعلم أن العيد هو موسم المومسات، فلم يتبقَّ على الكوبري منهن إلا اثنتان.

واحدة تقف بستره مقطعة وسروال ضيق يصرخ بتفاصيل جسدها، لكنها كانت بأقصى نهاية الكوبري، وهو لم يعد يطيق الانتظار. وقف أمام الدانية الواقعة بمنتصف الكوبري بعباءة سوداء مفتوحة، أسفلها سروال جلدي أحمر، وفوقه بلوزة شيفون ذهبية لامعة كمنار بمنتصف بحر عاتم.

انتظر ثلاث ثوانٍ حتى اقتربت منه ذات مساحيق التجميل الفاقعة وهي تنفخ علكتها الوردية.

فتح لها نافذته، فاستندت إلى السيارة بغنج وهي تفحص هيئته، حتى قال لها بابتسامة أمير أوروبي:

- بونسوار.

- بونسوارين يا برنس. لوحدك؟

هز رأسه مؤكدًا كلامها، فقالت:

- يبقى تُمنمية.

- اركبي.

اختالت وتمايلت متغنجة أمام السيارة الفارهة وهي تطرق علكتها، ثم ركبت بجواره لتعبي السيارة برائحة عطرها الرخيص المخلوط بعقب البيرة ودخان السجائر والحشيش. أدار المحرك، وهمّ أن ينطلق، لكنها استوقفته:

- على فين يا إكسلانس باريس؟

فتحت راحتها ومدت يدها نحوه:

- الدفع مقدّمًا.

ضحك ساخرًا، فهي لا تعلم أن تلك آخر ثمانمائة جنيه ستمسكها بحياتها.

مد يده بسترته وأخرج أربع ورقات من فئة مائتي جنيه، وقال بنبرة مشجعة:

- برافو. أهم حاجة في الشغل، الحرص.

صفّ «الجيب شيروكي» بمرأب سيارات لبناية تحت الإنشاء على الحيد الثاني من كورنيش المعادي.

نزل سلالم حجرية أوصلته إلى لسان خشبي تذوب نهايته في قلب النيل الذي بدا كالحبر الأسود تحت سماء الليل العاتمة، ولا نور سوى لبدر بدا قاصيًا عاجزًا وهو يغوص بين سحب الظلام. نظرت حولها إلى تفاصيل تلك المنطقة المنعزلة الساكنة، وسألته بفضول:

- ألا إحنا فين كده يا برنس؟

- الصبر.

قالها واقفاً عند طرف اللسان يفك لانش أبيض مكتوباً عليه بأحرف ذهبية وبخط فرنسي متشابك «بياف».

ابتسمت متعلقة اللبان وهي ترى هادي يركب اللانش الصغير خاصته:

- يا حلاوة. هي المركب الآلاجة دي كمان بتاعتك يا باشا؟

- عجباكى؟

- إلا عجباني، يا بخت المودام.

أمسك يدها ليساعدها على صعود اللانش كسيد نبيل، ثم أدار المحرك الذي خرَّ كاسراً صمت ليل المعادي، فخرجت تموجاته محدثة حلقات تتسع وتمدد حتى تختفي بسواد النهر.

وصلا إلى منزله المنتصب على جزيرة منعزلة على الحيد الآخر من النيل.

كان منزلاً أوروبى الطراز من طابقين، بحديقة خضيرة الحشائش، مثمرة الأشجار، يعتني بها هادي في أوقات فراغه.

حين توقف اللانش داعب أنفيهما عطر النعناع والورد المزروعين بالحديقة، ممزوجاً برائحة العشب المبتل.

نزلا من اللانش، وتوقفا عند اللسان الخشبي الذي يقودهما إلى المنزل الأبيض.

ربط اللانش، وعقد حبله باللسان، ثم وقف خلف الباغية التي دُهلّت بجمال المنزل والحديقة والنيل والليل وكل ما صاحبهما من أجواء مهدئة للأعصاب.

استشعرت وجوده خلفها، فالتفت إليه قائلة بانهار:

- إيه ده يا برنس. ده إنت عايش في الجنة لوحدك.

دخلت الجنة التي يقطنها الشيطان، ووقفت عند رقة وجمال المنزل الزاخم بالأتيكات والكريستالات والجرامافون الهائل في الزاوية الذي تجانبه مكتبة أسطوانات إيديت بياف، وصورها، وبعض الأخبار المهمة في مسيرتها الفنية الموضوعة في إطارات من الذهب معلقة على الحائط كلاسيكي اللون.

وضع أسطوانة إيديت بياف، وأتى صوت البيانو يتبعه تغريد عصفورته الباريسية ببحة يملأها الشجن، وهي تغني «C'est l'amour»، فرفع الصوت إلى آخره، واتجه صوب ركن الخمر وانتقى زجاجة من النبيذ الأحمر، فتحها وشرب منها مباشرة.

- مش هتسقينني حاجة يا جنتل؟

- مفيش وقت. تعالي.

سحبها من يدها ونزل بها السلالم حيث القبو المعتم. فتح الباب وجعلها تتقدمه. أشعل الضوء. خلع سترته وقميصه. أخرج من جيبه قفازيه الجلديين.

وقفت بائعة الهوى تتأمل المكان البارد الكئيب وهي تمصمص شفيتها وتقول:

- طول عمري فقريه. يعني إنت يا باشا عايش في الجنة دي كلها

وما حبكتش معاك غير في البدروم؟

- إنتي اسمك إيه؟

- نجلاء.

- طب يا نجلاء، أنا مش جايبك هنا علشان تمارسي معايا مهامك
كفتاة ليل في موسم الأعياد.
اتجه صوب الخزانة وفتحها، بينما قطبت حاجبيها الرفيعين
كالحمقاء:

- لا مؤاخذه، مش مجمعة الكلام.
أخرج فأسًا حمراء اليد، حادة الرأس، تمتد ذراعها إلى ثمانين
سنتيمترًا.

داعب الرأس الحديدي عنيف الزاوية بإصبعه، ثم راقص ذراع
الفأس بين يديه، وفسّر لها بابتسامة جذابة:
- أنا نحّات وعازز أحط راسك على الرف.



telegram @
yasmeenbook

الفصل السابع

حَكَّتْ سلوان عنقها، ثم شحمة أذنها بتوتر.

- إشمعنى اخترت البنت دي بالذات علشان تقتلها؟
رفع هادي كتفيه مبتسمًا:

- قدرها. حضرتك مش مؤمنة بالقدر؟

أرجعت شعرها خلف أذنيها، ثم حاولت أن تحافظ على نبرتها
الموضوعية وهي تسأله:

- بعد ما قتلتها عملت إيه؟

- حطيت رأسها على الرف. حرفيًا.

* * *

قبل الجلسة بأربع وعشرين ساعة

فصل رأسها عن جسدها بفأسه، مُصَفِّرًا على إيقاع بيانو الأغنية
التي لم تنته.

اتَّبَعَ خطى القدماء المصريين، وطَبَّقَ ما درسه عن التشريح بكلية
الفنون الجميلة، وما جمعه من خبرة من تحنيط جثث ضحايا
السابقات.

أسند رأسها إلى الرخامة حتى توقف عن النزيف، ثم غسله بالنبيد والماء.

انتشل مخها بخطاف رفيع، ثم وضعه في كيس بلاستيكي مضغوط ألقاه بجوار جثتها.

ثبَّت رأسها على مسمار عريض ينتهي بقاعدة حديدية. وضع القاعدة بالرأس المثبت على الرخامة الباردة، وغطاه بملح النطرون، وتركه حتى يؤدي السر الفرعوني سحره ويسحب منه الرطوبة ويمنعه من التعفن. أخذ برميلاً وضع به الجثة عديمة الرأس، وصبَّ فوقها الأسمنت الذائب.

دحرج البرميل إلى الخارج بعد أن جف الأسمنت، ووضع فوقه قالباً حجرياً ثقیلاً، ربطه بالحبل الخشن الذي تبقى من مقتل شريف عادل منذ سويعات.

أوقف البرميل عند طرف اللسان، ثم ركله فسقط، وسحبته شياطين النيل إلى القاع لتجاور جثث زميلاتهما. عاد إلى قبوه مصطحباً زجاجة النبيد.

خلع حذاءه، وجلس على الكرسي ذي العجل، ورفعته إلى مستوى الرخامة.

بفرشاة، نظر الملح عن رأس ضحيته، وعامله كقالب من الصلصال لتمثاله الجديد.

قلَّب الجص الأبيض السائل في طبقه، وبدأ يدهن وجهها وهو يصفر ويردد كلمات إيديت بياف:

إنه الحب الذي يجعلنا نحب
إنه الحب الذي يجعلك تحلم
إنه الحب الذي يريدنا أن نحب بعضنا بعضًا
إنه الحب الذي يجعلك تبكي

تر'. الجص السائل يجف ويتماسك، ثم وضعه في الماء البارد
ليزداد تماسكًا.

قلّب الأغاني وغيرها، وأنهى نصف زجاجة النبيذ.
انتشل القلب، ثم وضعه في ماكينة سكب الشمع. سكب الشمع
الياباني الساخن في القلب وتركه ساعة.

خرج من القبو، وصعد إلى المطبخ ليخرج شريحة من اللحم النيء.
تبّلها بالملح والفلفل الأسود والروزماري، وتركها تتفاعل مع
التوابل، بينما قشر بعض البطاطس وسلقها، ثم تركها لتبرد.
قلّب شريحة اللحم المتبلّة في الطاسة، وهرس البطاطس بالكريمة
لتراقص حواسه رائحة طهيه الذكي.

زَيّن طاولة طعامه بالشموع الفواحة التي نشرت رائحة اللافندر
في الصالة.

وضع طبق شريحة اللحم متوسطة التسوية كما يحبها، ومعها
البطاطس المهروسة وكأس النبيذ، ثم جلس ليتناول وجبته على
ضوء الشموع وسط الروائح المريحة للأعصاب والموسيقى التي
تطرب النفس.

أنهى طعامه، ثم نظر إلى ساعته، حان وقت إنهاء تمثاله الجديد.

حمل تمثال الشمع الذي تحنط بداخله رأس القتيلة.
بسكينه وخطافه، عدل بعض التفاصيل، واستخدم فرشاته ليزيل
بعض الزوائد، ثم وقف واضعاً يديه بخصره ليتأكد أنه راضٍ مائة
بالمائة على تحفته الفنية التي أتقنتها أنامله الخلاقة.
دخل حمامه لينهي يومه بحمام دافئ خرج منه بروح معنوية
مرتفعة، ثم ألقى نفسه تحت الغطاء عاريًا كما ولدته أمه، وأغلق عينيه
والألحان الباريسية تربت على رأسه وتداعب خصلاته المبتلة، حتى
نام هادئ البال باسم الثغر، وعلى رفه رأس جديد.

* * *

حاولت سلوان ألا تحفظ في مخيلتها أيًا من التفاصيل الشنيعة
التي قصها عليها هادي بفخر.
نظرت إلى وجهه، فأخافها الفخر الذي تلمع به عيناه، لأنه قتل
نفسًا ومثّل بجثتها بهذه البشاعة.
تظاهرت بالسعال لتكسب بعض الوقت لتهدأ أفكارها، وتتقي
سؤالها التالي بعناية.

- إשמعني إيديت بياف؟

تنهد مغرمًا:

- علشان روز علمتني إن الحب ما يبقاش حب لو مش على

صوت إيديت بياف.

- مين روز؟

* * *

كانت روز التي عاشت من الزمن تسعة عقود، امرأة قصيرة القامة، ممتلئة العود، بيضاء البشرة، حمراء الوجنتين، زرقاء العينين، بيضاء الشعر، وجميلة القلب.

قسمت المسنة ذات النظارة الذهبية المستديرة علكة المستكة إلى نصفين، أعطت أحدهما للصغير ابن السنوات الخمس وتركته يعلكها، بينما أخرجت أسطوانة ضخمة من ظرفها المتهالك، ووضعتها في جرامافون متقشر كثير الأعطال في زاوية أسفل النافذة الخشبية التي فقدت بعض درجاتها، وسمحت لأشعة الشمس أن تتسلل منها وتنعكس على عيني هادي الكحيلتين.

قالت روز بصوتها الأقرب إلى قلبه من صوت إيديت بياف:

- إيديت بياف ما تسمعش غير في الجرامافون.

خرج صوت الأكورديون يصاحبه البيانو ثم الكمان، فقامت روز التي بلغت من العمر أرذله تحرك ساقها ويديها، وتدور على مهل كفراشة مسنة وهي تردف:

- لو سمعتها بتغني في راديو ولا ترانزستور هتلاقه مش صوتها.

التكنولوجيا بتفسد كل حاجة حلوة.

مدت ذراعها صوب هادي الطفل ضئيل الحجم فأمسك يدها، ثم دار معها في الغرفة الضيقة ذات ورق الحائط المقشر والجدران المتآكلة والسقف الناشع بالماء والأثاث الخشبي البالي الذي يهتز من طعن عمره.

سألها هادي الصغير:

- هي بتغني إيه؟

أجابته بلكنة فرنسية متقنة:

- دي أغنية «La foule». بتحكي عن واحدة ماشية في الزحمة

والدنيا زقتها لحد ما وقعت في حضن حبيبها، بس زي ما الدنيا

اديتهاولها بسرعة سرقة منها بسرعة.

توقفت روز العجوز عن التمايل، ثم جاورت هادي على فراشها

الذي يُصدر أزيزًا مزعجًا.

داعبت رأسه، ثم أطرقت إلى الأفق وقد لمعت عيناها شجنًا:

- الزحمة فرقت بينها وبين حبيبها وخدته من حضنها، وكل واحد

منهم راح في طريق.

نظر هادي إلى وجه روز العزيزة، فرأى دمعة تفر منها. مسحها

بأنامله الصغيرة وهو يقول:

- إنتي بتعيطي يا روز؟

- الأغنية دي بتفكرني بأوليفيه. هو اللي اداني الجرامافون

والأسطوانات. هو اللي عرفني على إيديت بياف وعلى السينما

وعلى الموسيقى وعلى المسرح وعلى كل حاجة حلوة.

نظرت صوب النافذة حيث شمس الظهيرة الدافئة، ثم أضافت:

- كان صاحب أكبر محل ورد في وسط البلد. خلاني أبطل شغل

الشارع، وكرمني في بيته. ساعتها شغلتنا دي كانت برخصة

وورق من الصحة، والواحدة مننا ما كانش يهتمها حاجة، مش

شغل الضلمة والسر بتاع دلوقتي. بس برضو، الوقفة في الشارع

كانت صعبة. أوليفيه هو اللي عرفني يعني إيه بيت وراجل تحبيه.

- وهو فين دلوقتي يا روز؟

ضحكت بمرارة:

- مش بقولك الدنيا زي ما بتدي بسرعة بتاخذ بسرعة! الحرب لما قامت، أوليفيه راح يجيب مامته وإخواته من فرنسا. في نفس الليلة اللي وصل فيها بيت عيلته، النازيين قصفوا المدينة. يقولوا فضل هو وأسرته ثلاث أيام تحت الركाम لحد ما قدروا يطلعوا جثثهم. وفضلت أنا لوحدي مع أسطوانات بياف. الحاجة الوحيدة اللي بتفكرني إني في يوم من الأيام كنت حبيبة حد.

* * *

ابتسم هادي لسلوان، وقال موضعًا:

- روز الله يرحمها كانت البيبي ستر بتاعتي.
- البيبي ستر بتاعتك كانت شغالة في الدعارة؟
- محدش فينا ماضيه ناصع يا دكتورة.
- قلبت سلوان الصفحات، ودوّنت بضع ملاحظات وهي تردف:
- كنت بتحب روز للدرجة دي؟
- ما حبتش ست غيرها.
- أو مال ليه بتقتل الستات؟
- أنا ما بقتلش الستات في المطلق.
- بنات الليل بس؟ بتكرههم للدرجة دي؟
- مش كره على أد ما هو احتقار.
- مع إن روز كانت واحدة منهم.

تحسس حاجبه بضيق لم يقدر على إخفائه في نبرته وهو يقول:
- دي مقارنة غير مقبولة بالمرة. روز كانت ست راقية وشيك.
تعليمها فرانكوفون، ذوقها أرستقراطي، ورجالتها من كريمة
المجتمع، فإزاي تساوي واحدة تحت الكوبري لابسة عباية
بترتر وضاربة شعرها أكسجين وحاطة اتنين كيلو جبس على
خلقتها، بمدام روز فرانسيس؟

- ومامتك كانت شبه مين فيهم؟ روز، ولّا اللي واقفين على
الكوبري؟

ابتسم وحك زاوية فمه، ثم قال بنبرة محايدة:
- كفاية كلام عني. إحنا هنا علشان نتكلم عن سالم.
قالها مربتًا على كتف زميله، لكن سلوان لم تبال بتعليق هادي،
وأكملت بعزم:

- إيه المشترك بينك وبين إيديت بياف يا هادي؟
- أنا وهي برج القوس. عارفة إيه المميز في برج القوس؟ إنه زي
السهم، مهما شدتيه لورا، هينطلق بسرعة أكبر لقدام. علشان
كده أنا وإيديت على الرغم من إن طفولتنا كانت صعبة، إلا
إننا عندنا إصرار خلانا نوصل لكل أهدافنا غصبًا عن أي حد.
- كلامك مضبوط. على فكرة أنا كمان بحب إيديت بياف،
خصوصًا بعد ما شُفت الفيلم اللي بيحكى قصة حياتها اللي
مثلته الممثلة الفرنسية دي... مش فاكدة اسمها.

أسرع مجيبًا كطالب نجيب:

- ماريون كوتيار. أنا حضرت بريمير الفيلم في باريس.

- يا بختك. عموماً أنا شايقة إنه كان فيلم رائع، خصوصاً جزء طفولتها وحكاية والدتها فتاة الليل وأبوها اللي سابها تتربى في بيت دعارة بين البغايا.

قرأ هادي ما ترمي إليه الطيبة الأريية، فابتسم بخبث وهي تنظر إليه بثقة قائلة:

- نقدر نقول إن الطفولة عنصر مشترك بينك وبين إيديت بياف؟
نقدر نقول إن والدتك هي كمان كانت...
- مومس؟

قالها بفخر، ثم أرجع ظهره وجلس بأريحية وهو يرفع رأسه بشموخ.

قال وهو يؤرجح نظره بين سلوان وسالم:

- بما إن سالم قرر يجيينا هنا علشان نعري نفسنا. يبقى «D'accord»
أنا معنديش حاجة أتكسف منها.

* * *

القاهرة، ١٩٧٣

اسمه الحقيقي ناجي كما أسمته روز.

كانت روز مديرة الماخور القائم بوسط البلد لعقود تتوالى عليه أجيال من العاهرات المتمرسات اللاتي كانت إحداهن عشق والدة ناجي.

اختارت له روز هذا الاسم، لأنه نجا من خمس محاولات للقتل. الأولى كانت حين اكتشفت عشق أنها حامل من زبون تجهل هويته، فذهبت إلى حلاق الحي حتى يخلصها من ذاك العبء.

دخلت دكانه قبيل الفجر. حَضَر عدته. خلعت ملابسها وتسطحت على طاولته. أمسك كماشته وإذ بأنفاسه تتصاعد، وضربات قلبه تتضاعف، ويصاب بأزمة قلبية تنهي عمره القصير.

الثانية حين حاولت عشق أن تقفز من فوق فراشها خمس عشرة مرة لعل الجنين يسقط من بين ساقها، لكنه كان متشبثاً بالحياة ولم يمت. الثالثة كانت حين ألقت نفسها من فوق السلم فكسرت ساقها، ولكن بقي الجنين ينبض برحمها.

الرابعة عندما طلبت من أحد زبائنها أن يضربها ويركز لكلماته وركلاته على بطنها، لكن ناجي كان نطفة أعند وأقوى مما تخيلت عشق، فلم يهجر رحمها.

في المرة الخامسة والأخيرة كانت بعد أن وضعت الرضيع، وحتى قبل أن تمسح عرق الولادة عن جبينها أو تنظف نفسها من الدماء والمخاض، ناولتها روز طفلها لعل رؤيتها له تدب غريزة الأمومة في قلبها، ولكن مَنْ قال إن جميعهن خُلِقن ليكنَّ أمهات؟ انتشلت الرضيع من يدي قوَّادتها، وأطبقت على أنفاسه بوسادتها المتسخة.

صفعتها روز، وانتشلت منها الصغير الباكي الذي كان أول ما فتح عليه عينيه بهذه الحياة هو الاغتيال والنبد، فصاحت قائلة:
- إياكي تهوبي ناحيته! من النهارده، الولد ده ابني وفي حمايتي أنا. اعتبرت روز فرانسيس، التي حرمها رحمها الجذب من نعمة الأمومة، أن ناجي هو هدية تقاعدها، وقررت أن تصير أمًا في عمر الثمانين.

كان يبيت على فراشها ملتصقًا بالحائط البارد ذي الرائحة العطنة، ليظل محشورًا ليلاً بين ترهلات روز العجوز والحائط المشروخ، لكنه لم يكن يرى سوى الجرامافون العتيق المقابل للفراش، وكان يتأمله ليلاً ونهارًا، متخيلًا أنه سجن تعيش بداخله تلك السيدة الفرنسية التي يطرب صوتها مسمع شريكته بالغرفة، وأنها تغني بذاك الصوت الحزين طالبة العون، لعل أحدهم يلتفت إلى حالها ويحررها من ذاك السجن النحاسي الصدى.

كان ككل ليلة يصاب بالأرق ويعجز عن النوم. حاله كانت كحال المومسات اللاتي يقطنن معه، ينشطن ليلاً ويخملن نهارًا.

كيف له أن يسمع كل هذه الضحكات والقهقهات والصرخات والتأوهات ويظل نائمًا؟

كان يخرج على أطراف أصابعه الهزيلة بمنامته المتهدلة التي أذابها الغسيل حتى فقدت ألوانها ومعالمها، ويسير في الرواق بين الغرف بخفة الريشة حتى يقف عند غرفة أمه، حيث يخرج منها صوت يختلف تمامًا عن الأصوات الزاحفة من أسفل أبواب باقي الغرف. بكل غرفة، يسمع ضحكات امرأة تئن، تعليها صيحات ذكورية تشبه خفخفة الضباع، إلا أن ما يصدر من غرفة عشق هو صوت لسعات مدوية وتألم الرجال وصراخهم.

كان يشب على قدميه ليطول مقبض الباب ويفتحه خلسة بما يكفي، ليرى بعينه الداكتين أمه واقفة تارة بحزام وتارة بسوط، تجلد زبونًا وتضرب وتوبخ وتهين زبونًا من زبائنها المازوخين المعتادين.

كانت عشق هي الباغية السادية الوحيدة بذاك الماخور، وقد ذاع صيتها بين الذين يقرون النشوة بالألم والإهانة، فلم يرد فراشها من الزبائن. ليس لأنها أكثر العاهرات جمالاً، ولكن لأنها تقوم بتلك الممارسات السادية بمتعة حقيقية، وليس فقط تلبية لطلب الزبون. وهناك، خلف باب غرفتها، يقف ابنها ناجي صاحب الأعوام الثلاثة، يشاهد لذة العنف ومتعة تعذيب الآخرين وخضوع أعتى الرجال أمام سوطها.

مرت السنون، وبقي ناجي يشاهد مغامرات أمه، ويسمعها وهي تحكي لزميلاتها تجاربها وقصصها السادية، وهو يتمنى أن يصير مسيطراً وقوياً مثلها حين يكبر، لعلها تحبه إذا كان سادياً مثلها. ولكن على مَنْ سيمارس ساديته وهو لا يسلم من أذية أبناء الحي الذين ينادونه بـ«ابن العاهرة» كلما لمحوه في النافذة، ويتجمعون حوله ويلقونه بالحجارة إذا نزل الشارع، من دون أن يمنحوه حتى فرصة المقاومة التي تمنحها عشق لزبائنها!

لم يكن لديه سوى قسط الطريق وجراء الكلاب والفئران القارضة لصناديق الكرتون أسفل فراشه، ليمارس عليها جينات السادية التي ورثها عن أمه.

بعد كل جريمة يرتكبها بحق تلك الأرواح البريئة، كان يشكل الحيوان الذي عذب روحه بالصلصال الذي تجلبه له روز، فتمدح منحوتاته المتقنة بالنسبة إلى صبي هاوٍ وصل إلى عمر السابعة، فتربت على كتفه مشجعة إياه:

- إنت هتطلع نحّات عظيم زي مايكل أنجلو.

كان يتسم بسعادة، ويقتل أكثر لينحت أكثر وترضى عنه روز التي تجمع تماثيله وتضعها على تسريحتها، وتباهى بها أمام أمه السادية التي لا تبالي.

ظل يطبق ما يشاهده من أمه على الحيوانات، حتى أتم الثامنة من عمره، ووجد عشق ذات العينين الناريتين والعود المفروود والكتفين الشديدين قد ذبلت. فقدت وزنها، تطبق وجهها المستدير، اصفرّت بشرتها الفاتحة، انطفأ وهج عينيها الغامقتين، وارتعشت قبضتها التي كانت تُحكم على السوط والحزام والعصا.

فرغت غرفتها من الزبائن، وصار فراشها واسعاً عليها، وأصبحت تنقياً أكثر مما تنفس، وتحك جلدتها بسبب البقع الحمراء التي انتشرت عليه، وتبكي حزناً على شعرها الذي تفقده بغزارة، وتصيح ألماً من فرط حرارة جسدها، حتى فقدت بصرها، وبدأت تهلوس وتقول كلاماً غير مفهوم، إلى أن فقدت عقلها وحركتها وماتت.

حين سأل روز عن سبب موتها، أجابته:

- علشان كانت بتشرب سجائر. السجائر بتدمر الصحة يا ناجي، إوعى تدخن زيها.

هذا كان الرد الوحيد الذي استطاعت أن تُسكِت به فضول وتساؤلات الصغير عن أمه، لكنه حين كبر فطن أن والدته ماتت، لأن أحد زبائننا أصابها بمرض الزهري.

لم يُخلف موتها فرقاً كبيراً، ظل ينام محشوراً بين روز والحائط، ويعذب الحيوانات، ويراقب باقي المومسات اللاتي لم يجلبن له متعة تساوي ربع متعة مشاهدة أمه معذبة المازوخ.

ظل يسمع إيديت بياف مع روز وهي تترجم له أغانيها وتُحفظه كلماتها، حتى قررت في يوم أن تأخذه بين ذراعيها في ليلة اكتمل فيها القمر.

شغلت أغنية «La vie en rose» وأخذت تغنيها له، فكرر خلفها الكلمات بصوت عذب.

تنهدت روز، ثم همست إليه:
- إنت روحك روح فنان يا ناجي، اوعدني إنك هتطلع أرتيست، المجتمع كله يتكلم عنه.

أجابها ابن العاشرة من عمره بابتسامة مطمئنة:
- أوعدك.

قبّلت جبينه، ثم أخذت نفسها الأخير، وصعدت روحها إلى الأعلى قبل أن تزفره.

قبل أن تُدفن في الصباح، كانت إحدى بائعات الهوى الساكنات بيت الدعارة قد أخذت ناجي من يده وتركته أمام باب دار للأيتام، بعد أن ماتت الإنسانية الوحيدة التي كانت تكثرث لأمره.

* * *

ظلت سلوان تحرق إلى هادي الذي روى قصته بسلاسة، كأنها سيرة «أبو زيد الهلالي».

لم تعلق على تسامحه مع ماضيه، اكتفت بأن تسأله:
- اتعرضت لأي اعتداء جنسي في العشر سنين اللي عشتهم في البيت ده؟

أنزل ساقه عن الأخرى، ثم ضحك بشدة حاكًا رأسه:

- مين اللي هيسيب كل الستات دول ويبص لولد صغير؟
- نسبة مرضى البيدوفيليا مش هينة.
- وإيه اللي هيجيب راجل بتاع عيال لبيت دعارة؟
- يعني عمرك ما اتعرضت لأذى جنسي؟ طب ووالدتك؟
- والدتي هتعتدي عليا جنسيًا يا دكتورة؟!
- ضحك ساخرًا ظنًا منه أنه قال شيئًا طريفًا، لكن لم يتجاوب مع فكاهته أيُّ من سلوان أو سالم.
- قصدي ما كانتش بتعتدي عليك بالضرب أو بتثديك؟
- انكمشت ابتسامته، وحكَّ طرف أنفه، ثم أعاد ساقًا فوق الأخرى، وقال بجدية:
- هو فيه أم في مجتمعنا ده ما بتثديش أولادها يا دكتورة؟
- قال سالم:
- آه، فيه.
- انتبهت سلوان لنبرة التحفظ الشديدة في صوت سالم، وكانت قد نسيت وجوده للحظة من فرط اندماجها مع غرائبية هادي.
- التفتت سلوان إلى سالم، وتركت له مجالًا ليكمل:
- حبيبة أم كويسة و...
- تردد لثوانٍ، لكنه عقد العزم وأردف:
- وأمي كانت ملاك.

الفصل الثامن

الفيوم، ١٩٩٤

أسند سالم، ابن الحادية عشرة، ظهره إلى الحائط الأيسر من بهو معبد ديونيسوس.

تعلم من أمه أن هذا المكان هو بقايا قصر قارون الطاغية الذي خسف ربه به أرضه وجعل مكانه بحيرة، لتبقى شاهدة على معصيته وطغيانه، وتجعل منه عبرة للخلق من بعده.

على الرغم من أن هذه الحكاية بعيدة كل البعد عن الحقيقة والتاريخ، فإن مصدره الوحيد في ذلك الوقت لأي معلومة هو كلام أمه، فيصدق بإيمان دامغ، ويحفظه بقلبه، ويردده من ورائها. رفع رأسه صوب الحائط مستطيلي التصميم، وانتظر بضع دقائق.

يعلم أن جلوسه لأربع ساعات متواصلة لن يذهب سُدى، وستحدث المعجزة خلال دقائق كما تحدث كل عام بدقة في الحادي والعشرين من ديسمبر. وقد كان.

أدخلت الشمس ذراعها، وانسابت من النافذة المعلقة منذ القرن الثالث قبل الميلاد، وعبرت من خلال السقف الذي صبغته شحوم الدهر بالأسود، واستمر النور في ولوج المعبد، قاطعاً عدة أمتار حتى استقر عند قدس الأقداس، ولمست أشعة الشمس مومياء ما اتخذته أسلافه رباً للفيوم، الإله التمساح سوبك.

شاهد السحر، وغمر ضوء الشمس قلبه دفئاً، فابتسم ونهض ممتناً لكل ذرة فكر بذلها المصريون القدماء في التخطيط لتحقيق ظاهرة التعامد تلك.

مشى على الجسر الجيري المعلق فوق الدور السفلي من المعبد، وأمسك الدرابزين الخشبي واصلًا إلى قدس الأقداس، حيث سنا شعاع رَع ينير المكان الذي كان معتمًا منذ برهة.

هنا، شَبَّ على أصابع قدميه، ومد يده ليشعر بذاك الدفء السماوي الذي تسلل إلى روحه البريئة.

خرج سالم بعد أن تشبع بالسكينة وتمشى على الرمال، وقد امتزجت زرقاء السماء بحمرة الشفق بعد أن ودعتها شمس المغيب، وهنا أدرك أنه تأخر كثيرًا على ميعاد عودته إلى المنزل.

تخللت جسده نسمات ديسمبر محملة برائحة بحيرة قارون المحيطة بالمعبد.

وقف الصغير عند طرف البحيرة مقترباً من قارب صغير ذي شراع أبيض كبير، صاحبه هو عم رجب الصياد الذي يعبر به كل صباح وظهيرة من ذاك الحيد، وحتى الشاطئ المقابل حيث يقبع منزل سالم بين الغيطان المخضرة.

رحب به عم رجب ذو الجلد البائس والبشرة الخمرية التي لفحتها الشمس والعينين اللتين طابق لونهما زرقة البحيرة، ثم سأله:
- الله! إنت كنت فين كل ده يا سالم؟ أنا قلت روّحت مع حد غيري.

- كنت بشوف التعامد.

- تعامد إيه وكلام فارغ إيه. شوف مذاكرتك أولى.

قالها الصياد البسيط مجدفاً قاربه المحلق فوق سطح البحيرة البريئة من كل ما ألصق بها من أكاذيب أن بقاعها تقبع جثة قارون الطاغية ومُلكه.

تعلق سالم بالسمااء مراقباً رَحيل رَع وقدوم خونسو، لتستحيل الحمرة الدامية إلى زرقة مظلمة، ويحل سكون الليل لا يقطعه سوى هدير الموج وهفيف الريح ونداء الكروان وحفيف النخيل الذي يعانق البحيرة. ظن الفتى أن القمر يتبعه، وأن خونسو يراقبه، فقد أخبرته أمه بأنه مميز إلى الدرجة التي تجعل القمر يشعر بالفضول الشديد تجاه لياليه، فيترك الدنيا عتمة ليمشي خلفه ويتبع خطاه وحده.

- هتفضل سرحان في ملكوت الله، ومسهم كده لحد ما الحياة تطحنك؟

جدف، وشاهد الصبي المتأمل القمر والنجوم المتناثرة حوله، ثم أردف:

- إنت ناوي تطلع إيه؟

ثبّت سالم نظارته المتماسكة بفضل اللاصق الشفاف الملفوف حولها، ثم هز كتفيه قائلاً:

- مش عارف.

- طول ما إنت مش عارف هتفضل زي كيس الزبالة المرمي في البحيرة ده، موجة تجيبه وموجة توديه، إنما هو...

أصدر صوتًا يشبه طرقة البُنب، ثم أكمل:

- مهما عام ومهما بعد هيفضل كيس، لا ومش أي كيس، كيس زبالة تايه.

صمت رجب وأكمل تجديفه حتى كاد يقترب من الشاطئ، وهنا قرر أن يستأنف نصيحته:

- إنت ولأ جدع ودماغك نضيفة يا سالم. ما تطلعش زي باقي الخلق اللي هنا، كون أي حاجة غير بيع تماثيل فخار ولا صانع أسبته خوص ولا صياد في البحيرة. خليك دكتور، مهندس، ظابط، إن شا الله تكون حرامي، المهم تكون مختلف يا سالم. الأشباه كتروا أوي.

أرسي رجب قاربه، فنهض الولد الصامت وقفز من على القارب، وترجل فوق الشاطئ حيث الرمال المزدانة بالقواقع التي تلمع أسفل ضي القمر، وهو يتدبر نصيحة الصياد الثثار.

أحكم تعليق حقيبته القماشية التي رسمت له أمه عليها مشهدًا نوبيًا ليل وقارب شراعي كبير وزهور وشمس دافئة.

ترجل هادئ الروح، ساكن الفؤاد، إلى أن وصل إلى الجانب الريفي من القرية، حيث البرسيم الممتد حتى الطريق الأسفلتي السريع الذي تمر عليه الشاحنات ذات الأبواق المزعجة، والميكروباصات والأتوبيسات المسرعة، في طريقها إلى القاهرة وباقي المحافظات.

وهناك، وسط الخضرة، أسفل عتمة الفضاء الفسيح حيث لا جار ولا خليل، يقبع منزل أصفر باهت من طابقين وسطح عارٍ لا سور ولا مسند له.

لطالما وقف المنزل بمفرده كأنه زرع شيطاني ظهر من حيث لا تدري له مصدرًا أو أساسًا أو قاطنًا، فيهِياً للغرباء عن القرية أنه منزل مهجور يستحيل أن يسكنه غير مارد خبيث سيلتهم بُك إذا وطئت باب مسكنه. وجزءٌ من ذاك الوصف الفانتازي كان حقيقياً.

فتح سالم الباب الخشبي الذي دهنته والدته بالبرتقالي بالأمس ليبدو أكثر بهجة، على الرغم من أنها تعلم أن تغيير الألوان واستخدام موهبتها الفنية لن يضيفا أي سعادة حقيقية إلى هذا المنزل الذي يصيح ربُّه في وجهها بعنف:

- والأسبته دي مين اللي هيجدلها؟ أمي؟

- مرة على نفسه يحس إنه طفل مش شايب شايل على كتافه هموم الدنيا.

فطن الفتى موضع شجار والديه الليلة، لكنه دخل على أي حال ليتابع العراك الدائر بين أمه حليلة وأبيه عبد الرحيم.

فور أن انتبه عبد الرحيم لدخول ابنه، اندفع صوبه وصفعه صفعة أسقطت نظارته عن وجهه النحيل.

- كنت فين يا ابن الكلب؟

صرخت الأم وقفزت حيث ابنها، وحاولت أن تداوي ألمه بعناق دافئ وهي تصيح في زوجها:

- إلهي إيدك تتشل.

انتشل الصغير الذي لم يُصدر أي ردة فعل من بين ذراعي أمه،
وسأله:

- كنت فين كل ده؟ الشغل في السوق بيخلص الساعة تلاتة،
ودلوقتي الساعة ستة. سايب الشغل وبتلعب كورة مع صحابك
الصيع؟

أجابه ببات ذكوري لا يليق بتاريخ ميلاده:
- لأ.

- وکمان بتکذب؟
صفعه ثانية، ثم أطاح برأسه صوب الحائط، فسقط الصغير لكنه
لم ييلك.

صرخت حليلة بحرقة على ابنها، وحاولت تخليصه من أبيه،
لكنها فشلت، فما كان أمامها سوى حل أخير.

هرعت صوب سكين الفخار ورفعتها على زوجها وهي تجذبه
من جلبابه بكل ما أوتيت من قوة حتى يرحم صغيرها.
ترك عبد الرحيم ابنه الذي نzf جبينه، والتفت إلى زوجته
المتمردة.

نظر إليها بعينه القاسيتين، ثم ابتسم ساخراً:
- بترفعي السكينة عليا يا حليلة؟ بتهددي جوزك؟ طب ما توريني.
اغرسي السكينة في جتتي كده!

ارتعشت يدها من شدة ثباته الانفعالي ونظرة التحدي بمقلتيه،
فصاح فيها:
- يلا!

أخفق قلبها وارتخت أوصالها، فحليمة كانت بالفعل حليمة الفؤاد.
جذب منها السكين، فسلمته إياها خاضعة.
لطمها بعنف، فتكومت بجوار ولدها، فدوى طنين بأذنيها من
وطأة كفه الخشنة.

رفع عبد الرحيم سبابته وهو يقول وعيناه تبرقان شرًا:
- اللي يهدد يبقى أد تهديده. واللي يعمل حاجة يستحمل نتيجتها
يا حليمة.
بكت، لكنها حاولت أن تكتم أنينها أمام ابنها الذي صاح فيه
أبوه:

- ساعة زمن أرجع ألاقي الأسبنة كلها خلصانة يا ابن الصرمة
يا بتاع الأصنام.

في اللحظة التي خرج فيها عبد الرحيم من البيت، عانقت حليمة
ابن رحمها بقوة وهي تبكي مرتعشة هامسة إلى ربها:
- إلهي ما يرجع. يا رب خده وخلصنا منه.

رددتها وهي تعصر صغيرها جامد التعبير بين ذراعيها، وتضم
رأسه بين أضلعها، كأنها هي التي بحاجة إلى أن تشعر بالأمان في
حضنه وليس العكس.

ربتت على رأسه الحليق، وظلت تهمس في أذنه:
- حقك عليا يا ضنايا.

لم يكن سالم يبكي، فقد حفظه أبوه أن ذلك ليس من شيم الرجال،
كما علمه أن الرجل لا يتألم، لا يصرخ، لا يعبر، لا يتأثر، حتى ظن
الصغير أن الرجل الحق هو جماد مصمت لا صوت ولا حركة

ولا مشاعر ولا رحمة لديه، تمامًا كتلك التماثيل التي تنحتها أمه بأصابعها ويبيعها هو بالسوق.

وهكذا، لم يفعل شيئًا إلا أن وضع رأسه الجريح على صدرها، وأنصت لدقات قلبها وهو يتأمل ملامحها التي اتخذها مرجعًا لتحديد معايير جمال الأنثى: سمراء البشرة، لمياء الشفاه، كحيلة العينين، شعرها أسود كالليل، لامع كالقمر، ينساب كماء النيل، وتنسدل جدائله على كتفيها كانسياب شلالات وادي الريان.

داعب جدائل أمه الطويلة التي كانت أخف ما تحمله على منكبيها، مقارنة بما ألقاه الدهر على عاتقها من هموم ثقال خلال حياتها التراجيدية.

ترعرعت حليلة في منزل أزرق على طرف النيل، ينتهي بدرجتي سلم صوب النهر، ويتمايل بجواره قارب سماوي خشبي يهدهده الموح مع كل تيار.

اعتادت الصغيرة أن تجدل شعرها الثقيل على هاتين الدرجتين، مدللة ساقها الملفوفتين فوق سطح الماء، ثم تنهض لترسم مع أبيها على جدران المنزل بالأحمر والأخضر والأصفر، وبعدها تجلس معه على عجلة الفخار فتصنع معه أواني وطواجن وقللاً من الطمي يشكلها بأنامله، ينقشها بخطافه، ثم يضعها في فرنه، ويتركها تتماسك حتى يشتد عودها، ثم يخرجها.

يركب قاربه مع صغيرته الموهوبة بالفطرة، وينتقل بها من منزله إلى السوق، حيث يبيع منتجاته للأجانب السائرين في أفواج يقودهم مرشد يروي لهم عن موطن الآلهة ومولد الملوك ومدفن الطغاة.

كانت ابنة الشمس الصغيرة تصغي وتحفظ في ذاكرتها كل معلومة تسمعها، ثم تضيف إليها جزءاً من خيالها الخصب، فتراودها أحلام اليقظة وهي ترى نفسها مرشدة سياحية تهدي العجم إلى جمال موطنها، وتنشر سحر أساطير أجدادها بينهم، ولكن كضوء شفق باغته ظلمة الليل تلاشى حلمها.

كانت في الثامنة عشرة حين أتى سائق أتوبيس سياحي إلى السوق يشتري منها الفخار، ثم غازل سمارها وكحلها وحمرة خجلها، فمال إليه قلبها.

استمرت زيارات ذلك الفيومي القصير ذي العينين الخضراوين والبشرة الحنطية أشهرًا، حتى قرر أن يتزوج صبية الفخار ذات الجدائل.

فاتحت أباهما، فلم تلقَ إلا الصياح والسباب واللعن. كيف لنوبية أن تتزوج غير نوبي؟ كيف للصبية أن ترفض ابن عمها الأربعيني، وترضى برجل لا يحمل من سمرة الشمس أو طمي النيل شيئاً؟

هددها والدها بالخزي والعار، لكن حليلة الفؤاد كانت حرة الروح.

اتبعت قلبها وهربت مع عبد الرحيم الفيومي، لينتهي بها الأمر بذلك المنزل الباهت القاصي بأطراف الريف المعتم أسفل سطوة زوجها الطاغية، لا أهل ينصفونها ولا جيران يسمعونها.

مسحت حليلة النوبية دموعها التي لا تجف منذ أن اتخذت عبد الرحيم زوجًا، ثم ذهبت بسالم الساكت إلى الحمام فنظفت

جرحه وكبسته بالبن وربطت رأسه بالشاش، وقررت أن تأخذه معها إلى ورشتها في المنزل، وبدأت تمارس العادة الأقرب إلى قلب نجلها، صنعت تمثالاً من الفخار.

آنذاك كان يظن أمه إلهة، فحين قال له معلمه بالصف الأول الابتدائي إن الله يخلق الإنسان من صلصال، قال له سالم إن أمه تفعل ذلك، فهي تصنع تماثيل لحيوانات وأناس من الفخار.

ضربه بالخرزانة في فناء المدرسة، ونعته بالمشرك. كلمة لم تكن في معجم الصغير الحالم، لكنها راقت لزملائه بالفصل، وظلوا يدعونه بها حتى اعتادها كما اعتاد الضرب من معلمه في المدرسة ومن أبيه في المنزل.

لكن هذا لم يغير نظره إلى أمه، فما كان لرؤيته لها وهي تدير العجلة بقدمها الصغيرة، ثم تبدأ بأناملها التي باركها الخالق بنعمة الدقة والتشكيل أن تخلق تمثالاً مفصل الملامح، تفسير آخر عنده إلا أنها إلهة كآلهة القدماء المصريين.

جلس على الحصيرة الخشنة جلسة القرفصاء، ململماً أدواته حوله.

فردّ جريد نخل البلح البلدي الطراح، ونصب بجواره سلاح الجريد، وهو سيف حاد معقوف النصل، وقرب منه اللقط الذي يثقب به الجريد الأخضر بأنواعه ليستعد لصنع سبت بهيج الألوان. همّ أن يبدأ بتقطيع الجريد إلى شرائط، وأن يدق عليه بمطرقة، لكن حليمة استوقفته قائلة:

- رص الحاجة وخش نام. هخلص التمثال ده وأشتغل الأسبته.

- بس أنا عايز أجدلهم.

- هتمقق عينك فيهم وإنّ تعبان كده؟

- أنا كويس.

ابتسمت له حليلة برضا، ثم قالت له بحنان:

- تعرف يا سالم، أنا ما سُفّت راجل في قوتك. إنت سيد الرجال يا ولدي.

نهضت خصيلًا لتقبل رأسه، متحاشية أن تلمطه بالفخار الذي تخضبت به يداها.

بدأ تقطيع الجريد طوليًا، ودق عليه بمطرقة، ثم همّ يجذله غيبًا من دون أن يرفع عينيه عن ثُبّت الجنة تحت قدميها وهي تصنع جسدًا لرجل مفتول العضلات.

انتبهت لمراقبة صغيرها لها، فقالت بصوتها الحنون:

- عارف المعبد اللي كنت قاعد فيه النهارده ده فيه الموميا بتاعت مين؟

- سوبك التمساح.

- شاطر. أهو سوبك ده بقى كان إله البحيرات والفيوم. لما سِتّ حبس أخوه أوزوريس في التابوت ورماه في النيل، سوبك حماه ودل إيزيس على مكانه. إيزيس فضلت تعيط، فرّع قرر يساعدها ورجع لها جوزها من الموت. الخبر وصل لِسِت الملعون، قام دَوّر عليهم لحد ما لقاهم. عارف عمل فيه إيه؟

كان سالم يحفظ القصة بحذاقها، لكنه يدرك أن سرد تلك الأساطير هو الشيء الوحيد الذي يجلب السعادة لقلب أمه المعذبة،

فكان يتركها تحكي له من دون أن يقاطعها، ويتظاهر بأنه يسمع الحكاية لأول مرة، ليرى تعابير وجهها وهي تبسم، ثم تقطب حاجبيها، ثم يعلو صوتها، ثم تهمس، ثم تحرك يديها في الهواء وَفَقًا لِإيقاع القصة.

- عمل فيه إيه؟

- قطع جثة أوزوريس اثنين وأربعين حطة، وحط كل حطة في إقليم. افكر إنه لما قطعه انتصر عليه. ما كانش يعرف إن إيزيس حامل في حورس اللي هيكبر ويتربى على الحرب والقوة والشجاعة. عارف مين اللي حماه ورباه على القوة ودربه على الحرب؟

- مين؟

- سوبك التمساح. خبى حورس هنا في الفيوم وخلاه قوي وشجاع. وصار حورس الأمير المنتقم اللي جاب حق أمه وأبوه، ورجع لبلده مجدها لما قتل ست واسترد عرشه.

صمت الصغير مفكرًا، بينما انتهت أمه من تشكيل جسد التمثال المشدود، وبدأت تشكل رأسه المطاوع وتنقش تفاصيله بإبرتها.

سألها سالم:

- وأمه فرحت بيه لما قتل عمه؟

تنهدت حليلة، ثم نظرت إلى صغيرها المسكين الذي ما زالت علامات أصابع أبيه الغاشمة على وجنته، فقالت:

- هو صحيح انتصر، بس خسر عينه في الحرب. الانتقام بيعدمك البصر والبصيرة يا سالم.

لم يفهم فحوى مقولتها، فأعاد صياغة سؤاله:

- يعني أمه ما اتبسطتش لأنه جابلها حقها؟

- أمه فرحت علشان خدلها بتارها، بس اتقهرت عليه علشان
خسر أهم ميزة فيه؛ بصيرته.
أرته تحفتها الجديدة.

كان تمثالاً لرجل مفتول العضلات، له ذيل مدبب الطرف، ورأس
تمساح، يرتدي تاجاً عليه قرص الشمس.

ابتسم وهي تريه التمثال وتسأله قبل أن تضعه في الفرن:
- إيه رأيك؟

- جميل. هتبيعه بكام؟

- ده ليك إنت يا قلب أمك. علشان تفضل قوي وشجاع زي
سوبك.

طبعت قبلات كبيرة وكثيرة على وجنتيه وكفه ورأسه، ثم نهضت
لتضع التمثال في الفرن.

عاد عبد الرحيم يفوح منه عبق الحشيش ودخان السجائر، فتعكر
صفو الجو العائلي الدافئ بين حليلة وابنها، وهو يصيح في سالم:
- فين الأسبته يا ابن حليلة؟

أخذت حليلة الأسبته من ابنها السريع الذي أنهى عددًا لا بأس
به منها في أثناء حديثهما القصير، وألقته صوب عبد الرحيم بحنق.
قلّب نظره بينها، ثم ألقاها بالزاوية، وصاح فيها:

- فين إيراد الفرشة بتاع النهارده؟

مصممت شفيتها، وعادت للجلوس على عجلتها لتبدأ عمل
الطواجن وهي تحدث سالم بحب:

- يلا يا حبيبي خش نام دلوقتي علشان تصحى لصلاة العيد.

نفذ أمرها واتجه إلى غرفته، بينما التفتت حليلة إلى عبد الرحيم فور أن اختفى سالم عن نظريهما، فهمست وهي تستشيط غضباً:

- بقى يا ناقص، مورم لنا صداغنا في ليلة مباركة زي دي، وبدل ما تمد إيدك في جلابك تدينا العيدية ولا تكسينا بلبس العيد ولا تمللنا التلاجة لحمة، بتقولي هاتي؟

زفر خائفاً على فقدان سَطَله الذي رسمه حشيشه ومخدراته وبيرته:

- مش هيبقى نكد قبل وبعد الدماغ يا حليلة. فين الإيراد؟

- جبت بيه هدمة وجزمة كاوتش لابنك اللي هدومه دابت، وحتتين لحمة علشان تطفحهم بعد الصلاة.

- والباقي؟

- باقي إيه يا حسرة؟ هو أنا عاد حد يشتري مني بسبب سمعتك العطرة. ده إنت متداين لطوب الأرض.

- يا ولية يا كدابة! ده محدش بيع في السوق كله أدك. هتفضلي تدعي عليا الفقر لحد ما ربنا يسخطك قردة ويفقرك فعلاً!

زفرت حليلة وانكفأت على العجلة مستأنفة عملها وهي تستغفر ربها وتسأله الصبر.

* * *

يستغرب سالم من نفسه في تلك السن، لم لا ينام ليلاً كباقي الأطفال؟ لم تعامله وظائفه الحيوية معاملة خفاش معلق بالسقف المتصدع، فيرى الأمور منقلبة رأساً على عقب؟

نهشه الأرق وهو مستلقٍ بجوار أمه التي غطت في النوم حتى شخرت.

أشفق عليها من شخيرها المرهق، وخشونة كعبيها من فرط الوقوف في السوق.

ظل يفكر، لم لم يُخلق إلهاً في مصر القديمة كالذين تتغنى بهم أمه؟

لم لم يصطفه خالقه ليحيا بعصر القدماء حيث قوانين العدالة الاثنان والأربعون؟ لم يحيا في هذا الزمان الذي أصبح فيه القسط خرافة مبالغاً فيها أكثر من أسطورة إيزيس وأوزوريس وست وحورس. أدرك في سن مبكرة أنه ما من قسط بلا قوة كالتى وهبها سوبك لحورس، حتى يحقق العدالة ويثأر لروح أبيه ويظفر بحكمه.

ظلت تلك التفاصيل تسرح من دون راعٍ في عقله المراهق، حتى فتحت أمه عينيها ونهضت عن الفراش.

مدت يدها صوب القلة الفخارية الموضوعة عند النافذة المفتوحة، حيث يطل القمر عليهما.

شربت وتناثرت بضع قطرات على جلبابها المهترئ، ثم تفقدت ابنها قبل أن تعود لنومها.

- برضك ما نمتش؟

هز رأسه بلا، فنصحته بنبرة نعسة:

- نادي على توتو ثلاث مرات علشان تنام ويحميك من الكوابيس.

- ناديته بس هو مش سامعني.

فركت عينيها، ثم مدت ذراعها صوب عنقه حتى يُرسي رأسه عليها.

ألقت رأسها على الوسادة، ثم وضعت راحتها الدافئة على رأسه

متجنبة أن تلامس جرحه الحديث، ثم بدأت تهمس في أذنه بآية الكرسي كي تسكن أفكاره، وتسكت الأصوات الصارخة في رأسه، ويطمئن فؤاده وتغفو عيناه.

ارتخى، تشاءب، نام.

سمع صياحًا، فانتفض مستيقظًا.

- عليا الطلاق لو ما طلعتي بالإيراد لأكون دافنك في التو.

تحول خمول سالم إلى ذعر فور أن أدرك وجود أبيه في الغرفة وهو يصيح.

وجد أمه ملقاة بجواره على الفراش يخنقها عبد الرحيم بعنف قائلاً:

- يا الفلوس يا روحك يا حليلة.

وثب سالم صوب أمه، وحاول أن يدفع عنها ذلك الغاشم قبل أن يقطع الأكسجين كلياً عن رئتيها.

فور أن انتبهت حليلة إلى أن سالم استيقظ، خرجت منها ضحكة مبحوحة تتنافر مع صراعها مع الموت، ثم قالت بصوت أجدهه الخناق:

- إحنا بنلعب، ما تخافش.

لم يصدق سالم كذبة أمه التي تقولها كلما كاد زوجها يقتلها أمام عيني وحيدهما، فاستبسل وحاول أن يشد والده من ياقته، فلم يفلح.

حاول أن يحكم ذراعيه على عنقه كي يحل عنها، فلطمه عبد الرحيم بمؤخرة رأسه، مما جعل شفته تنشق ويسقط من فراشه الدافئ مرتطمًا بالبلاط البارد.

خرج سالم حافي القدمين، وترك أمه بين يدي المارد الخبيث،
ثم عاد بعد ثوانٍ وهو يأمر أباه:
- سييها!

رفع عبد الرحيم يديه عن حليلة فور أن شعر بنصل بارد ثقيل
موضوع على قفاه. استدار ليجد ابنه ممسكًا بسلاح الجريد المعقوف
مهددًا حياته به.

كان هذا اليوم، الذي قرر فيه سالم أن يكون حورس، حتى وإن
كان سيفقد عينه.

ترك عبد الرحيم حليلة، ووقف أمام سالم بنظرات نارية أجج
مفعول المخدرات لظاها:

- بتقول إيه يلا؟

- بقولك سييها.

صفعه وصاح:

- تاني علشان مش سامعك.

فقدَ سالم الإحساس بوجنته، فصاح من دون الخضوع لبطش
أبيه:

- سييها!

لطمه لكمة أعنف:

- لو ذكر عيدها كده.

تلبست سالم روح حورس، ورفع سلاحه، وحدد المكان الذي
سيغرسه فيه، فهو لم يرث حِلَمَ الفؤاد من أمه.
سقط عبد الرحيم صارخًا من شدة الألم المباغت.

استغرب سالم، كيف سقط أبوه متألماً وهو لم يطعنه بسلاح
الجريد بعد؟ هل حضر سوبك وأكسبه قوة سحرية فعلاً؟
استنكر سذاجة تفسيره حين أدرك أن حليلة استغلت انشغال
عبد الرحيم بتعنيف سالم، وحملت القلة الفخارية من على النافذة،
ونزلت بها على أم رأسه قبل أن يقتله سالم ويضيع مستقبله.
فردت جناحيها مثل إيزيس، وضمت صغيرها بين أضلعها، ثم
طارت من الغرفة إلى الخارج.

إلى هذه اللحظة، يتساءل سالم لم قررت أمه أن تأخذه إلى السطح؟
لم ظنت أنها حين تصعد الطابقين لاهثة مرتعشة متأبطة ابنها ستنجو؟
لم توقعت أن قفل الباب الخشبي المتهالك الذي يفصل بين السطح
ودرجات المنزل سيحول بينها وبين برائن عبد الرحيم المتوحش؟ لم
لم يلهمها الله بأن تركض في الحقل وصولاً إلى الطريق الأسفلتي،
حيث قد تجد سيارة مارة تستغيث بها؟

والأهم، لم تعافى عبد الرحيم سريعاً من تلك الضربة، واهتاج
كثور ضخمت المخدرات قواه وقادته بعنف صوب السطح حيث
تكوّرت حليلة ضامة طفلها؟ لم فتح الباب وكسر القفل بركلة واحدة؟
لم في لحظة خاطفة انتقى حليلة، وانتشلها من بين ذراعي صغيرها،
واستعمل وجهها ككيس ملاكمة؟

لم أسقط سالم سلاحه في أثناء الركض؟ لم وقفت حليلة عند
طرف السطح حيث لا سور ولا مسند؟ لم ركل عبد الرحيم بطن
حليلة بهذه السادية؟ لم سقطت من فوق السطح بهذا العنف أمام

سالم؟ لَمْ سَكَنْتَ تَمَامًا وَلَمْ تَنْطِقْ بَعْدَ أَنْ وَقَعْتَ عِنْدَ طَرَفِ الْمَدْخَلِ الْحَجَرِيِّ؟ لَمْ سَأَلْتَ كُلَّ هَذِهِ الدَّمَاءِ وَامْتَزَجْتَ بِالْعَشْبِ الْأَخْضَرِ؟ لَمْ صَمْتٌ حَفِيفُ النَخِيلِ، وَانْطَفَأَ ضَوْءُ الْقَمَرِ، وَتَخَدَّرَ الْهَوَاءُ، وَسَكَنْتَ حَرَكَةَ الْكُونِ؟ لَقَدْ فَقَدَ حُورَسُ عَيْنًا وَاحِدَةً فِي أَثْنَاءِ حَرْبِهِ، فَلِمَ فَقَدَ سَالِمٌ فُؤَادَهُ قَبْلَ حَتَّى أَنْ يَخُوضَ أَوَّلَى مَعَارَكَه؟ صُدِّمَ عَبْدُ الرَّحِيمِ، وَلِلْحِظَةِ نَظَرَ إِلَى مَا اقْتَرَفَتْهُ يَدَاهُ، وَبَقِيَ وَاقِفًا عِنْدَ طَرَفِ سُورِ السَّطْحِ بِجَوَارِ سَالِمٍ يَشَاهِدُ الْمَشْهَدَ مِنْ أَعْلَى وَاضِعًا يَدَيْهِ فَوْقَ رَأْسِهِ، وَهُوَ يَسْتَدْرِكُ أَنَّهُ تَحُولٌ مِنْ مَسْطُولٍ مَتَوَحِّشٍ إِلَى قَاتِلٍ رَسْمِيٍّ.

رَكَضَ عَبْدُ الرَّحِيمِ إِلَى الْحَقْلِ حَيْثُ رَقَدَتْ جِثَّةُ زَوْجَتِهِ. نَزَلَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَفَمِهِ مَفْتُوحٌ فِي ذَهُولٍ، وَإِذْ بِالذَّهُولِ يَتَحَوَّلُ إِلَى فَاجِعَةٍ حِينَ تَأْكُدُ مِنْ تَوَقُّفِ نَبْضِهَا.

صَرَخَ وَبَكَى، لَيْسَ نَدْمًا، بَلْ ذَعْرًا مِنْ حَبْلِ الْمَشْنَقَةِ الَّذِي سَيَنْتَظِرُهُ. سَمِعَ سَالِمٌ يَقْتَرِبُ مِنْهُ وَهُوَ يَقُولُ بِثَبَاتٍ لَا يَتَنَاسَبُ مَعَ مَنْ شَهِدَ عَلَى مَقْتَلِ أُمِّهِ لِلتَّو:

- الرَّاجِلُ مَا يَعِيطُشْ!

كَانَ هَذَا آخِرَ مَا سَمِعَهُ عَبْدُ الرَّحِيمِ قَبْلَ أَنْ يَهْوِيَ سَالِمٌ عَلَى عُنُقِهِ بِسِلَاحِ الْجَرِيدِ لِيَصِيبَهُ فِي مَقْتَلٍ.

ثَارَ سَالِمٌ وَنَفَسَ عَنْ كُلِّ صَرَاخَةٍ أَلَمَ كِتَبَتُهَا بِدَاخِلِهِ بَعْدَ كُلِّ صَفْعَةٍ وَلَطْمَةٍ وَرَكْلَةٍ وَلَكَمَةٍ سَدَّدَهَا أَبُوهُ لَهُ وَلِأُمِّهِ.

انْفَجَرَ الصَّغِيرُ الَّذِي طَالَ صَمْتُهُ وَصَبْرُهُ، وَظَلَّ يَصْرُخُ وَهُوَ يَطْعَنُ

كل موضع يطوله بجثة أبيه، حتى وهنت أحباله الصوتية، وتخلدت كتفاه، وتلون وجهه ويداه بالدماء، فسقط على ركبتيه يلهث.

زحف على أربع حتى جلس بجوار أمه. وضع رأسها ملكي الملامح على فخذه، فظلت تنزف على سرواله.

دأب شعرها الأملس، وأخذ يتأمل الأفق بحواس خدرتها فاجعة ما أصابه، حتى رآهما فجأة وسط البرسيم، سوبك وحورس.

ربت سوبك التمساح على كتفه، ثم دعاه حورس الصقر لينضم إلى صف الأمراء المنتقمين الذين فقدوا أعينهم.

قبل الدعوة، وتصالح مع فكرة أنه ثار لوالدته، وفي المقابل فقد بصيرته.

أعاد رأسها برفق حيث كان، ثم نهض ممسكاً بسلاحه الدامي. استحم ليزيل عنه آثار الجريمة من دماء وطن. فتح خزائنه ليللم ثيابه ويضعها في حقيبه المدرسية.

فتح الثلاجة وانتشل ما وجدته من لقيمات فطير وجبن. جمع كل ما قابله من أموال تُخبئها أمه بشقوق السقف حتى لا يجدها الطاغية الذي سقط في دمائه بالخارج.

وضع ملابس العيد التي ابتاعتها له، والحذاء الرياضي الجديد، فوقها سترة من جلد صناعي رخيص مهترئ، والتف بكوفيته. همّ بالرحيل، لكن قبل أن يخرج، لمح آخر ما صنعه أنامل أمه الفقيدة.

خبأ تمثال سوبك التمساح الفخاري بالجيب الداخلي لسترته بأعلى اليسار حيث فؤاده، وترك كل شيء خلفه.

خرج من الباب ودعس العشب ولم ينظر إلى أعلى، لم يعد يبالي إن كان خونسو يتبعه.

لم يعتقد أن الظلماء ستكون بتلك الوطأة، وأنه لن يستطيع أن يرى حتى كفه، ولكن فليذهب النور والضوء والضياء والشمس ورَع وقدس الأقداس إلى الجحيم، فهو يعرف طريقه كأنه خطط لتلك اللحظة في أحلامه مائة مرة.

لم يكن ليتبين الطريق، لكنه كان ثابت الخطى، واثق المسار. فعلى الرغم من أن ظلام ليل الريف موحشٌ، حتى وإن كان قمر سمائه بدرًا زمهريًا، فإن بالنسبة إليه لم تكن عتمة هذا الحقل أكثر ضنكًا مما مر به في حياته عامة، وفي هذه الليلة خاصة.

الفصل التاسع

قال سالم للطبيبة بعد أن تذكر كل تفصيلة تخص ليلة مقتل أمه:

- ما بحبش أتكلم عن أمي.

علق هادي:

- يعني أنا أحكيكم كل حاجة عن «maman» بدون ما أسيب من حياتها تفصيلة أد كده.

قالها مشيراً إلى جزء من عقلة إصبغه، ثم أكمل:

- وإننت مش عايز تحكي خالص؟ إنت كده بتغش. ولّا إنتي إيه رأيك يا دكتورة؟

- أنا رأيي إننا نسيب سالم يحكي اللي هيبقى مرتاح يشاركنا بيه. التفتت سلوان إلى سالم، وسألته بابتسامة:

- تحب تكلمنا عن والدك؟ دوره كان إيه في حياتك؟

- دوره كان الضغط، فطبيعي يبقى رد فعلي الانفجار، وهو أول حد اتدمر في الانفجار ده.

همس هادي بابتسامة متلهفة خلق بها جواً من التشويق:

- قصده يقولك إنه قتل أبوه وهو عنده حداشر سنة.

حَكَّتْ سلوان حاجبها الأيسر بعدم ارتياح، ثم تفقدت الوقت في ساعة الحائط مهوَّنة على نفسها بأنه لم يتبقَّ إلا خمس عشرة دقيقة على انتهاء تلك الجلسة اللعينة.

لم تجد سوى ذلك السؤال التقليدي لدى الأطباء النفسيين لتتلقَّ به مرتبكة:

- وحسيت بإيه لما... لما قتلت باباك؟

مط سالم شفتيه بفتور:

- ولا حاجة.

- لا غضب، ولا حزن ولا ذنب ولا...

- ولا أي حاجة. مجرد صمت فضل عايش جوايا لحد دلوقتي.

- خططت لقتله، ولَّا الموضوع كان وليد اللحظة؟

- كان رد فعل لحادثة.

- وإزاي حادثة اتحولت لمهنة وحرفة بتمارسها باستمرار وبأجر

يا سالم؟

قطع هادي الحوار، فهو لا يطيق أن تُسلَّط الأضواء على غيره مطوَّلاً:

- المايسترو سلطان الدَّغش.

* * *

الفيوم، ١٩٩٤

لم يحدد سالم إن كانت نعمة أم نقمة أن يقتل أباه في ليلة عيد الأضحى، فالنقمة أن الكثير من سائقي الميكروباصات رأوه على الطريق، والنعمة أنه ركب بجوار أحد السائقين فوجد وسيلة سريعة للهرب في تلك الليلة التي يكثر فيها المسافرين.

تفحصه السائق الذي تفوح منه رائحة حشيش مطابقة لرائحة مَنْ
ردعه قتيلاً، ثم سأله بلسان ثقيل:
- نفرين قدام؟

هز رأسه موافقاً، وألقى حقيبتيه على الكرسي الأوسط بينهما،
ثم أغلق النافذة وأراح رأسه على الزجاج حتى اكتمل عدد الركاب
الاثني عشر.

شغل السائق شريط خالد عجاج لتبدأ أغنية بلغت مقدمتها قرب
نصف دقيقة من أنغام الأورج المفرحة، يصاحبها الطبل والصاجات
التي هز السائق رأسه على إيقاعها وهو يشعل سيجارته الملفوفة، ثم
أخذ يغني كلماتها بصوت أعلى من صوت المغني:

ودعها ودعها ودع

ضيعها ضيعها ضيع

دي همومك انساها انسى

والبسة رجعها وودع ودع ودع

بدا له أن السائق وخالد عجاج سيكرران كلمة «ودع» إلى ما لا
نهاية في بهرجة شعبية لا تتناسب مع حالته السوداوية.
فتح سالم النافذة إلى آخرها، ثم أخرج منها ذراعه فرأسه فكتفه،
وأغمض عينيه وترك الهواء البارد يلطمه لعله يفيق من خدره، لكنه
لم يستيقظ، وهنا تأكد أن حالة التخدر الصامتة تلك ستصاحبه لما
تبقى من عمره.

نزل في موقف الميكروباصات مع تكبيرات صلاة عيد الأضحى
ليرى لوناً من الحياة لم يبصره من قبل.

هل أتت أمه إلى القاهرة سابقاً، أو كما دعتها هي «مصر»؟ هل
تمشت بين هذا الزخم من الميكروباصات البيضاء والقرمزية والرمادية
وسط تلك النداءات المتداخلة للسائقين وصبيانهم؟ أسمعَت من قبل
زمامير باعة البلاطين وغزل البنات، ورأت هذا الكَم من البالونات ذات
الألوان المبهجة في مكان واحد؟

أشهدت تلك البنايات التي تحجب الأفق، ولاحظت أن الشمس
في القاهرة أصغر وأبعد مما تبدو عليه بالفيوم، وفطنت أن سطوة
رَع على سماء القاهرة أضعف من سطوته على سماء قريتهم؟ أكان
سيعجبها مشهد المباني القاتمة الشامخة التي تضخ حجارتهارودة
غربية؟ أكانت لتلاحظ أن القاهرة رمادية باهتة، أم كانت ستنبهر
بحيويتها وسرعة المترجلين بشوارعها؟

قادته قدماه حتى أقرب مسجد من موقف الميكروباصات، ووقف
يشاهد الناس يسجدون.

فكر أن يتوضأ وينضم إلى المصلين، لكنه تذكر أن معلم التربية
الدينية بمدرسته، وشيخ المسجد حيث يحفظ القرآن، أخبراه بأن لا
صلاة تُقبل من مشرك يصدق أساطير الفراعنة والمساخيط، فماذا
سيقولان إذا عرفا أنه أضاف كبيرة القتل إلى كبيرة الشرك؟

تراجع عن فكرة الصلاة، قرر أن يجلس على الرصيف البارد، يمد
يده في جيبه ليتأكد من أن سوبك ما زال في مكانه.

وضع يديه الباردتين في جيبي سترته الممزقة، وتدبر منظر السماء،
والسحب الثقيلة تتكاثف حتى التحمت، وأقسمت إنها لن تسمح
لشمس البكور أن تسطع من فوق أكتافها، ولا لأشعتها أن تخترق

ثغراتها، فاستسلمت السماء ورضخت ليصبح يومًا رماديًا ملبدًا بالغيوم.

هكذا استمرت حال السماء حتى انتهت الصلاة، وانفض الناس من عليّة القوم ومتوسطي الحال بملابسهم الجديدة وسط أهاليهم، ليتقافز الأطفال ويفرقعوا البمب والصواريخ في طريق عودتهم إلى منازلهم. لم يتبقَّ في محيط المسجد الرخامي سوى الشحاذين، وحراس العقارات، والباعة الجائلين المزعجين الذين يتهافتون على السيارات الفارهة اللامعة التي ينزل منها «بهوات» يوزعون أكياسًا سوداء مبتلة ودبقة.

كان أول هؤلاء «البهوات» هو إسكندراني خمسيني، ذو شعر مصبوغ، وشارب كث، وأنف معقوف، وعينين راكزتين، وأسنان صفراء، وابتسامة واسعة، وقميص عجيب اللون.

وقف وسط صبيته، الذين لا يتعدى عمر أكبرهم على عشرين عامًا، وهم يوزعون الأكياس على كل من تقع عليه أعينهم، فيأتي مستلم الكيس مُقبلاً يد الإسكندراني بامتنان، كأن طبع قبرة من شفتي غريب شققها الرياء والنفاق هو القربان المقدم لإله لحم الأضحى. استقبل قبلاتهم الممتنة بضربة خفيفة على الكتف، تليها ابتسامة ساخرة، وهو يقول:

- ياكش يطمر في أشكالكم.

انفض الناس من حول الإله الإغريقي ذي القميص الفاقع فور أن نفدت خيراته، وأخذوا آخر كيس لحم وزعه صبيانه.

التفت حوله بنظاراته الشمسية الأعرض من قُطر وجهه، ثم نظر إلى

الشاب العشريني صاحب السروال الأسود القاتم والقميص الأبيض
الناصع والسترة الجلدية الباهظة الجالس في المقعد الخلفي للسيارة،
يغني بفرنسية مثالية مع صوت إيديت بياف، محرّكاً يديه كأنه ممسك
بأكورديون سحري:

تحت سماء باريس تطير أغنية

ولدت اليوم بقلب صبي

تحت سماء باريس تـ...

قطع غناءه طرّق الإسكندراني صاحب السيارة على النافذة الداكنة
ليعكر صفوه.

زفر عاشق إيديت بياف والتفت إليه، فوجده يومئٍ إليه بغرور كي
ينزل من السيارة.

وضع نظارته «الريان»، وعدل ياقة قميصه، وفتح الباب.
وقف بحذائه «التمبرلاند» بجوار مستدعيه، فاردًا كتفيه بغرور،
ورافعاً رأسه بشموخ، بينما زجره ونهره:

- إنت بروح أم الكرواسون جاي تسمعنا الخرا ده، ولا جاي
تشوف شغلّك؟

نظر إليه بعجرفة، ثم زفر وهو يُخرج من جيبه علّكة بالمستكة،
مضغها وهو يمسح محيطه بعينيه من وراء نظارته السوداء، ثم أشار
برأسه وأعلن:

- اللي على الرصيف.

نظر حيث أشار، ليجد سالم جالساً على الرصيف وهو يحدّق
إلى السماء.

- إشمعنى؟

- قاعد بشنطة مدرسته يوم العيد لو حده على الرصيف ليه؟ تلاقيه
هربان من أهله ولّا عامل مصيبة.

- أما نشوف. ولّا يا غزال!

تحرك غزال الذي كان مراهقًا طويل القامة لديه ندوب غريبة في
وجهه ورقبته. فتح حقيبة السيارة ليخرج منها كيسًا أسود من اللحم
حفظه لتلك اللحظة، ثم ذهب نحو سالم كما أشار إليه سيده.
وقف غزال أمام سالم، وسأله بصوت عريض ونبرة حادة:
- قاعد هنا ليه؟

لم يود سالم أن يتحدث مع ذلك الغريب، فنهض بهدوء مبتعدًا
عنه.

ناداه، لكن سالم أكمل طريقه من دون أن يلتفت إليه، ولكن غزال
هرول يلاحقه وجذبه من كتفه قائلاً بخشونة:

- يا جدع بكلمك. إنت جاي من أنهي داهية؟

التفت سالم إليه قائلاً:

- لو عايز تنشلني فأنا ما حلتيش غير رُبع فطيرة وحتة جبنة.

- دي هيئة حرامي؟

فحصه سالم من رأسه حتى أخمصَي قدميه من دون تعليق حتى كاد
يكمل سيره، لكن غزال استوقفه مقدّمًا له الكيس الأسود وهو يقول:
- خُذ!

حذق إليه من دون أن يلمس الكيس أو يخرج يديه من جيبه
وهو يسأله:

- إيه ده؟

- تمن سهرتي مع أمك. هيكون إيه يعني؟ لحمة يا حيلتها. كُل واشكر.

ألقى غزال الكيس في وجه سالم ثم استدار، لكنه لم يلحق أن يبتعد كثيرًا.

اندفع سالم صوبه منقضًا عليه انقضاضة رَع الصقر على أبيب الحنش غارسًا مخالفه في عنقه.

ثبته على الأرض بقبضة، وكوّر الثانية وهوى بها على وجهه عدة مرات وهو يهمس من بين ضروسه:
- ما تجيش.. سيرة.. أمي.

عند السيارة المقابلة للرصيف، وقف صاحب القميص الفاقع، ومرشده الشاب ماضغ العلكة، يتابعان المشاجرة.

ابتسم العشريني وهو يشاهد سالم يضرب غزال بعنف، مما يؤكد حسن اختياره لسالم دونًا عن جميع أولاد الشارع المجتمعين هذا اليوم لتسول اللحم.

همّ أحد الفتيان أن ينقذ صديقه من قبضتي سالم، لكن حافظ الأغاني الفرنسية منعه قائلًا:
- خلينا نشوف آخره.

خلص فيه سالم السنين التي تعرض فيها للتنمر والسخرية من قبل زملائه بالفصل.

أفقدت اللكمات السريعة والمباغثة غزال وعيه، بينما ظل سالم يصيح فيه:

- ما بحبش.. حد.. ييجي.. عليا.

لاحظ الدماء التي غطت ملامح غزال العريض، فتوقف وهو يلهث.
انتبه للدم على قبضتيه، فمسحهما بقميص غزال، وظل صدره
يعلو ويهبط بأنفاس متسارعة حتى سمع صوتاً رقيقاً يقول له:
- خُذلك لبانة تهدي أعصابك.

التفت سالم إلى المتكلم صاحب السترة الجلدية السوداء.
ابتسم له ابتسامة ساحرة تليق بأبطال أفلام هوليوود وهو يقول:
- طبعاً إنت بتسأل نفسك مين ده؟ يا ترى يعرف الشاب اللي
شلفطله وشه؟ يا ترى هينتقم مني ولا هياخدني على القسم
من سُكات؟

ظل سالم يحدق إليه متعجباً من طريقة كلامه الاستعراضية ونبرته
المرحة التي لا تناسب الموقف.

- هادي الحكيم، «supervisor» المسكين اللي لخبطته خلقته
ده، ومدير العلاقات العامة لكل الأعمال الإجرامية اللي بيقوم
بيها الراجل اللي هناك ده.

أشار صوب سلطان الذي ظل واقفاً يتابع ما يحدث عن بُعد.
- إحنا شايفين إن عندك مهارات وإمكانات هائلة تؤهلك للشغل
معانا، جاهز تسمع الـ «offer»؟

لم يفهم سالم كلمة مما نطق بها هادي، فأكمل اللبق كلامه باسمًا:
- هعتبر سكوتك علامة الرضا. الـ «offer» بتاعنا يشمل تأمين
صحي واجتماعي، ومسكن ومأكل وملبس ومشرب، زائد
حوافز سنوية لو حققت التارجت المطلوب. أما بقى الساليري...

اقترب منه أكثر مما ينبغي، وهمس في أذنه بنبرة مشوقة:
- مفاجأة.

بقي سالم تائهاً من دون أن يهضم عبثية الموقف، فقال هادي:
- لو محتاج وقت تفكر مفيش مشكلة. بس خليك فاهم إن
إحنا مش مجرد ناس شغالة مع بعض. إحنا أسرة وشركا في
النجاح، وبنكبر وبتتوسع بسرعة، وده معناه ترقيات أسرع. أنا
بدأت زيك، ووصلت للمنصب ده في سنتين بس، وبقى عندي
عربية وشقة وبلف العالم. لو عايز تبقى زيي، فأنا ماددلك إيدي،
وأوعدك إني هنقلك كل خبرتي بمتتهى النزاهة والشفافية.
مد هادي يده صوب سالم الذي لم يفتن حرفاً مما سبق، ولكنه
سمع «فراش وطعام وماء»، وهذا جل ما أمله في هذه اللحظة.
على الرغم من أنه كان متيقناً من أن هادي مخبول، فإنه مد يده
وصافحه.

ابتسم هادي وعانق موظفه الجديد بحماس وهو يقول:
- مبروك. مش هتلاقي «team» أحسن مننا تبني معاه كاريرك.
تأبطه هادي ذو الرائحة العطرة، وتمشى معه خارجاً من الزقاق
الذي سالت دماء غزال على ترابه، ثم خرجا إلى الساحة الفسيحة
حيث تصطف سيارات سلطان الدَّعْش.

فتح هادي الباب الخلفي لسالم، فانزلق بالسيارة، ثم جلس الأول
بجواره وأغلق الباب.

وقف سلطان وفتح الباب الخلفي منزعجاً، موجهًا كلماته إلى
هادي:

- انزل يا أبو مَستِيكة، اقعد جنب السواق.

ضحك هادي، ثم قال لسالم:

- أعرفك على الـ «big boss» المايسترو سلطان الدَّغش.

نزل هادي منفذًا أوامر رئيسه ليجلس بجوار السائق، ويترك مساحة
لسلطان كي يجاور سالم.

تفحص سلطان كل إنش بجسد سالم من دون أن يلمسه، ثم سأله:

- عندك كام سنة؟

- حداثر.

التفت إليه هادي، وسأله بحماس:

- وإنت هربان من قتل مين؟

حاول سالم أن يداري قلقه من السؤال، بأن يجيبه عليه بسؤال آخر:

- إيش عرفك إني قتلت؟

- تقدر تقول إني موهوب.

أشار إلى طرف أنفه بنرجسية:

- بشم قتالين القتلة من على بُعد...

قاطعه سلطان بعصبية وهو يقول لسالم:

- سيبك من الولا الأهطل ده. قتلت مين؟

- أبويا.

صفق هادي منبهراً:

- واو! برافو!

أردف سلطان كأنه لم يسمع هادي:

- قتلتة ألماني ولا أمريكياني؟

- يعني إيه؟
- يعني خلصت بنظام وسرعة زي الألمان، وخفيت أي دليل ضدك وتاويت جتته؟ ولا قضيتها عربجة رعاة البقر وشغل المجانين بتاع كلت وودنه وسلخت جلده، وعملت من شعر صدره باروكة ده؟
- غزيتيه وسيتته.
- فين؟
- غزيتيه في أماكن كتير.
- قصدي سيبت الجتة فين؟
- قصاد الدار.
- كتم سلطان انبهاره، لكن هادي المفضوح قال بابتسامة كشفت ضروس العقل:
- واااو! قتلت باباك في الشارع؟
- لأ، في الغيط.
- سأله سلطان:
- ليه؟
- علشان جه عليا.
- مط سلطان شفتيه، ثم ابتسم للمرة الأولى متمزجًا بوقع كلمات سالم على أذنيه، فسأله:
- اسمك إيه يا ولأ؟
- سالم.
- لأ. أنا هسميك...

- سميه حبيب.
- ده عندها لما نكون بنسمي أنارب مش صبيان الدَّغش يا وحيدها.
- التفت سلطان إلى سالم قائلاً:
- أنا هسميك بحر، سريع وغدار وملوش أرار.
- أنا مش غدار.
- هو اللي يقتل أبوه اللي كساه وأطعمه ما يبقاش غدار؟
- واللي يسب الصَّبِي بتاعه غرقان في دمه في الشارع ما يبقاش غدار؟
- للمرة الثانية، ابتسم له سلطان منبهراً بجراءته على الرغم من
حادثة سنه، فقال:
- أحيه عليك يا بحر! ده إنت قلبك ميت يا ولأ.
- ما اسميش بحر. أمي سمتني سالم، وهفضل سالم.
- ربت سلطان على كتفه وأجابه:
- اللي تشوفه يا حلاوة.

الفصل العاشر

أخذاه إلى قصر سلطان الدَّعْش المُنزوي عن أعين العالم في منطقة منعزلة إن افْتُتِح بها سيرك جامع، فلن يصل ضجيجُه إلى أي إنسان في المدينة.

تحيط بالقصر الحجري مزارع وحقول شاسعة من الموالح المفضلة إلى قلبه.

كان يجمع الصَّبية من الشوارع والملاجئ والإصلاحات للعمل في مجالين: أولهما زراعة تلك الموالح، وثانيهما تجارة المخدرات والفتونة والقتل وفقًا لتقييم شخصية الفتى المختار.

فإن كان عذب اللسان، خفيف الحركة، لحوحًا، عديم الكرامة، ولم يجرب المخدرات في حياته، فليتسلم وظيفته بقسم تجارة المخدرات، ولتكن غرفة نومه بالعنبر المستطيل في الطابق العلوي وسط زملائه المراهقين.

ولكن إن كان مراهقًا، غليظ اللسان، حاد الطباع، انفعاليًّا، سريع الغضب، قوي البنيان، مصابًا بجروح وندوب يُحبَّذ أن تكون بمنطقة الوجه والعنق، فليتقدم لاستلام سلاحه والانضمام إلى قسم الفتونة

والأعمال التخريبية لمرافقة أصدقائه «الديلرز» وحمايتهم، أو مرافقة سلطان في تنفيذ صفقاته وعملياته الخطرة التي تتطلب قوة بدنية لا عقلاً مدبراً.

أما القسم الأسمى والأهم والأقرب إلى فؤاد الدَّغَش، فمتطلباته أن تكون ميت القلب، ثابت الانفعال، حَسَن التخطيط، دقيق الملاحظة، لا تملك علامات بدنية مميزة. ردود أفعالك سريعة، وحركتك أسرع، ولا تشوب صحتك شائبة، ولديك حياة طبيعية تُعسر على الناس توقع أن لديك صلة بعالم الإجرام.

إن كنت تملك تلك المتطلبات، فسيطوي سلطان سيجارة محشوة بأفيونه الفاخر، ويلقي الحشيش في مبخرته، ويناولك برتقالة من أجود محاصيله، ويمضي معك عقد احتكار أزلياً ينص على أنه سيوفر لك بيئة تدريبية على يد محترفين من روسيا وسيبيريا، وسيهب لك مسكناً وثلاث وجبات يومية، وبدل نفقات وبدل تلفيات، وتأميناً طبيّاً على أعلى مستوى، وتأميناً اجتماعياً لأسرتك في حال قُبض عليك، لأنه في حالة وقعت بين يدي الحكومة، ستُذبح داخل زنزانتك بموسى مخبأ أسفل لسان أحد صبية الدَّغَش لضمان عدم إفشائك لأسراره.

فور الانتهاء من التدريب، ستوضع في فترة اختبار غير مدفوعة الأجر، ستُجبر فيها على أن تعيش تحت سقفه عشر سنوات، تنفذ المهام المسندة إليك، وتقتل بلا أجر مرة شهرياً.

إنها مرحلة التأسيس، تأخذ سلاحك وتقوم بما يسميه العاملون بمجال خدمة العملاء «shadowing»، أي مرافقة الظل.

ترافق أحد القتلة المحترفين مدفوعي الأجر كظلمهم، لتتعلم أصول المهنة من كتب لمدة عام، لأن سلطان مؤمن بأن الفرد إن ركز على تعلم شيء محدد لعام واحد معتمدًا على الملاحظة والتجربة، سيحترف هذا الشيء.

وعليه، بعد أن تنهي عام مرافقة الظل، ستصبح قاتلاً تحت الملاحظة، تقتل مقابل فراش ووجبة دافئة.

تنهي سنينك العشر بقصر الدَّغش، ثم تكون ترقيتك الأولى، أنت الآن قاتل مدفوع الأجر.

تحصل على مبلغ يتراوح بين ثلاثين إلى خمسين ألف دولار على الرأس الواحد، ويتضاعف معدل المهام المسندة إليك من واحدة شهرياً إلى اثنتين أو ثلاث وفقاً للعرض والطلب.

بعد مرور خمسة أعوام أخرى (أي إجمالي أعوام عملك بوصفك قاتلاً يصبح خمسة عشر عاماً)، تصير شريكاً، لك نصف الأجر المدفوع لسلطان من عملائه على كل مهمة، وهو مبلغ يتراوح بين مائة ومائة وخمسين ألف دولار، بالإضافة إلى مكافأة سنوية تحصل عليها مع نهاية السنة المالية، بناءً على جودة أدائك وقياس مستوى رضا العملاء عنك.

آنذاك، حين كان سالم بالحادية عشرة، وعند دخوله مصنع القتلة هذا، لم يكن ليستوعب أيّاً مما سبق. كل ما أدركه هو أن هناك مَنْ هم قتلة مثله، وأنهم متصلحون مع جريمته، بل يأملون تنميتها وتطويرها لشيء سيوفر له لقمة ورشفة ومضجعاً.

لقد كان صبيّاً، صحيح قاتلاً، لكنه ما زال صبيّاً تائهاً ومكلوماً

على مقتل أمه أمام عينيه، ومشحونًا بأعوام من الصمت والألم البدني والنفسي الذي لم يشعر به يتفجر إلا حين نزل بسلاحه على عنق مَنْ عذبه. وعلى الرغم من أنه في موقف يجعل المشاعر تتأجج في فؤاده، فإنه لم يشعر بشيء.

شغلته تلك الفكرة بينما يريه هادي عنبره ويُعرفه على زملائه ويأخذه في جولة في القصر، ثم جلب له ثيابًا نظيفة لم يحلم يومًا بأن يضعها على بدنه الهزيل الذي قشفته ملوحة البحيرة وخشونة الجريد وتراب السوق.

قاده إلى الحمّام ليستحم ويزيل عن نفسه غبار الطريق الذي لم يكن يتخيل أن هذه نهايته.

وقف سالم في الحمّام الذي لم يتدارك فخامته ونظافته، ووعى أنه وللمرة الأولى سيستحم في بانيو ذي خلّاط مياه بارد وآخر دافئ، من دون الاضطرار إلى استخدام «الطشت» و«البستلة» و«الوابور».

أدار الخلّاط مثل عقارب الساعة، فانساب الماء الساخن فوق رأسه، فوقف يتساءل ماذا يفعل الآن بيديه إن كان لن يعبئ الماء بالكوز من الطشت ويسكبه فوق رأسه.

قرر أن يفحص الأشياء الموضوعة على طرف البانيو. اندهش من أن الصابون ليس قطعة مربعة، بل سائل كمسحوق غسيل الأطباق، وتفوح منه رائحة عطرة.

انتشل الليفة التي تجاور الصابون المعطر، أيسمون تلك القطعة الحريرية ليفاً!

لم يقتنع بأن هذا الشيء الناعم الذي داعب ظهره من المفترض أن يؤدي نفس الغرض لليفة بيتهم التي كانت أمه تسليخ بها جلده ليلمع من فرط النظافة وسط أبناء القرية.

استسلم لرفاهية الحمام، غسل جسده الرفيع كله، ودعك وجهه بالصابون، ثم ترك المياه تقوم بعملها وتزحلق عنه الرغاوي.

في اللحظة التي فتح فيها عينيه بعد أن تخلص من الصابون، رأى بنظره الضعيف هادي يقف أمامه مستنداً إلى مقبض الباب الموارب. وقف ذاك الأنيق، ذو الرائحة الأكثر عطراً من الصابون السائل الباهظ، وهو يمزغ علكة المستكة اللاذعة، يتأمل جسد سالم العاري من رأسه حتى أخمصَي قدميه.

تلك النظرات جعلت سالم الذي كان يشتكي شح مشاعره، يضطرب!

قال هادي بأريحية مَنْ وُلد بيت للبغياء واعتاد مشاهدة النساء والرجال عراة:

- عايز أنحت لك تمثال.

اقترب هادي وأغلق الباب خلفه متأملاً سالم من كُثب وهو يضيف:

- بفكر أعملك تمثال برونز زي «Le Penseur» بتاع أوغوست رودين. حاسس إنك مفكر زيه. اقفل الحنفية، تعالى معايا. أنا هنحتك زي ما إنت كده.

اقترب هادي أكثر حتى ناله رذاذ المياه المنزلق على رأس سالم الحليق، ومد يده صوب جسده ليلمس عضلة كتفه العارية مردفاً:

- هحتاج بس آخذ مقاسات كل حة في جسمك و...

لم يلحق أن يلمس بدنه.

أحكم سالم قبضته على معصم هادي، ثم جذبه بقوة ليرطمه بالحائط السيراميكي الأبيض، ويلطم وجهه بعنف مباغت.

جذبه من قميصه، وألقى به على الأرض، ثم انحنى أمامه على ركبة واحدة قرر أن يثني عليها مرفق هادي كاسراً ذراعه من مفصله. صاح هادي صيحة بدأت بتأوه من ألم كسر ذراعه، ثم انتهت بضحك هستيري كأنه يتمازح مع صديق عزيز.

لم يبال سالم لردة فعل هادي المريضة، ولكنه هدده بثبات:
- لو لمستني ثاني هشنقك بمصارينك.

أمسك هادي ذراعه التي كسرها له ذلك العنيف قليل الكلام، وظل يضحك والمياه تنزل عليه فابتل بالكامل، حتى صاح بنبرة مرحة:
- إنت نيتك مش تمام على فكرة. أنا كنت عايز أعملك تمثال للذكرى.

انتشل سالم سرواله ليستر عورته، بينما أردف هادي بالنبرة نفسها:
- إنت عصبي وعنيف ومعدكش رحمة. إنت من النهارده شريكي، مش شريكي وبس. إنت بقيت صديقي.

* * *

قال هادي لسلوان وهي تتأمل آخر عشر دقائق في الجلسة:

- من ساعتها وأنا وسالم الشاكوش اللي الدَّغش يطبق بيه عدله.

- القتل هو العدل من وجهة نظرك؟

انسلَّت الإجابة من فم سالم:

- هو القصاص.

- القصاص ما يكونش غير بالموت؟ هو إنت شايف الموت إزاي؟
أجابها هادي متفلسفًا:

- بداية جديدة. حياتك دي بتنتهي بموتك، بعدها روحك بتبعث
من جديد وتبدئي حياة مختلفة باختيارات وبداية ونهاية
مختلفين.

داعبت سلوان طرف قلمها، ثم نظرت إلى سالم بفضول:

- وإنت يا سالم؟

- اختيار. أنا ما اخترتش حاجة في حياتي، لا بدايتها ولا أحداثها،
بس نهايتها هتكون من اختياري أنا.

استمعت سلوان إلى كلماته، ثم انتبعت للساعة، لم يتبقَّ من
الزمن إلا خمس دقائق، فأخذت تفكر فيما ستفعله بعد نهاية تلك
الجلسة.

صحيح أنها أقسمت ألا تفشي أسرار مرضاها، ولكن في حالة
أن ذاك المريض هارب من قضية ما زالت تحت التحقيق، لها حق
الإبلاغ عنه حتى لا يُتهم بريء مكانه.

لكن إن أبلغت عنهما، فلا دليل لديها على كلاهما، كما أنها لا
تعرف لهما عنوانًا ولا حتى رقم هاتف.

ماذا لو كانا يكذبان؟ ماذا لو أنهما مصابان بالفصام وكل ما نطقا
به هلاوس أو ضلالات؟

كلاهما مصاب بالفصام؟ أي حبكة أمريكية ركيكة هذه...

قطع هادي أفكارها وهو يعقد أصابعه ويرفع رأسه بشموخ ويقول:

- أعتقد بعد كل اللي سمعته ده، اتأكدتي من نظريتي.

- نظرية إيه؟

- إننا ناس طبيعية بتمارس عملها بإتقان وشغف، لا سيكوباتيين ولا حاجة.

خلعت نظارتها وهي تراقب الدقائق الأخيرة:

- أستاذ هادي، أهم صفة في الطبيب النفسي هي الصراحة، وبصراحة، أنا حاليًا ما أقدرش أشخصكم باضطراب غير السيكوباتية، ولو إنه مش من الطبيعي إنه يتم تشخيصك من أول جلسة. بس دي حقيقة واضحة زي الشمس.

لم يرقه تعليقها. حذق إليها كصبي حرمة أمه من لعبته المفضلة، وسألها:

- أقدر أفهم ليه؟

- لأنكم بتقتلوا ناس أبرياء ما أذوكوش.

- لو أبرياء ما كانوش اتخطوا في سكة الدَّغش، ولا دخلوا شبكته، أو اشتغلوا معاه، أو حتى كسبوا عداوته.

- مش شرط، ممكن يكونوا...

- حتى لو كانوا فعلاً أبرياء زي ما بتقولي. فالموت هو قدرنا كلنا في النهاية. والقدر هو اللي اختارنا ننفذ مهمته في الناس دي، بالطريقة دي، وفي التوقيت ده يا دكتورة.

عجزت سلوان عن مسaire جنون هادي ومنطقه المختل، فحكت جبينها من دون تعليق، وكادت تختم الجلسة، لكن سألها سالم بهدوء:

- إيه علاج السيكوباتية؟

صاح فيه هادي:

- علاج إيه يا سالم؟ إحنا مش مرضى.
أجابته سلوان:

- الاعتراف بالمرض هو بداية العلاج. بس للأسف، السيكوباتية
من الاضطرابات اللي ملهاش علاج نهائي، ولكن نقدر ن...
ردد هادي جملتها بعصبية غير متوقعة:

- ملهاش علاج؟ يعني إنتي سايبانا نقلّب في ماضينا ونفتّحلك
في جراحنا علشان في النهاية تقولي مفيش علاج؟ كان لازمته
إيه الرغي ده كله؟ كتتي زهقانة فقولتي تسلي نفسك بقصص
اللاتين الهبل اللي فتحولك قلوبهم، يا دكتورة؟

- أستاذ هادي من فضلك اهدا. السيكوباتية صحيح ملهاش علاج
نهائي شامل، بس دايمًا فيه طرق لتحسين السلوك أو ترويضه.
- ترويض؟ إنتي شايفانا حيوانات مسعورة؟ أنا كده فهمت. إنتي
بتسجليلنا، صح؟ عايزة تبلغني عننا وتعملي لنفسك بروباجندا
ولقاءات في التلفزيون ويستضيفوكي في «الستات مايعرفوش
يكذبوا»، مش كده؟

- من فضلك يا أستاذ هادي، أنا وضحت لأستاذ سالم قبل ما
تقتحم علينا الجلسة إني مش بسجل.

سألها سالم بهدوء بوذي متعبد في صومعته:

- يعني مفيش أي شاهد على وجودنا غير الممرضة؟
- أيوه.

انشغلت بأوراقها ومراجعة ملاحظاتها وهي تقول:

- هحد دلکم ميعاد الأسبوع الجاي، بس هحتاج أرقام تلفوناتکم
و صور من البطاقة ...
تلقت رصاصة في رأسها.

اندفعت الطلقة من فوهة مسدس سالم وقد أخرس دويها كاتم
صوت السلاح الذي كان يخبئه بجرابه في سرواله من الخلف -
كالعادة - لتستقر الرصاصة بمنتصف جبين الطيبة التي ظنت نفسها
فطنة حين تركتهما يقصان عليها تفاصيل كل ما عاشاه من مآسٍ،
وتظاهرت بالاستيعاب والحكمة والتعاطف والتفاهم، وطلبت منهما
صورًا من البطاقة لتسليمهما إلى السلطات.

انفجرت ملامح هادي حين رأى خط الدماء الرفيع ينزل من
جبين وجهها المحقون بالبوتوكس، ثم همس إلى سالم بحماس
منقطع النظر:

- أنا اللي هقتل الممرضة.

هز سالم رأسه بلامبالاة، ثم أخذ المِرمدة التي دفن بها سجائره
طيلة الجلسة، ووضعها في كيس بلاستيكي أخرجه من جيبه، ثم نهض
ليأخذ دفتر الملاحظات الراقد بين يدي الطيبة القتيلة ويمزق كل
الأوراق التي كتبت فيها سلوان عنهما حتى لا يترك أي دليل ضدّهما.
انتبه هادي لحالة صديقه، فاستوقفه قائلاً:

- ما تصدقهاش يا سالم. إحنا مش سيكوباتيين، المجتمع هو
اللي عايش دور الضحية.

الفصل الحادي عشر

دعس هادي على زر استدعاء المصعد وهو يصفر لحن «La vie en rose»، ويعدل وضع مسدسه في جرابه بعد أن صرع به الممرضة. وقف سالم بجواره يدس أوراق ملاحظات سلوان في جيبه، ثم ينظف عدستَي نظارته بمنديله الورقي في انتظار وصول المصعد.

همس هادي إلى شريكه:

- كل ده بسبب وسوسة مراتك اللي هتوديك في داهية.

لم يعلق سالم، لكن هادي لم يتوقف عن الثثرة:

- مش حابب أنتقدك. بس إنت أحياناً بتندفع في تصرفاتك.

لو ما كنتش ماشي وراك ومتابعك من وإنت في البيت،

كان زمان الدكتور دي سلمتك للبوليس بعد البلاوي اللي

عرفتها عنك.

- وإنت كنت قاعد ساكت؟

ازدرد هادي ريقه وابتلع معه حرجه، ثم قال:

- أنا حكيت علشان أدعمك، علشان أشجعك تفتح لي قلبك

وتحكي لي عن اللي مضايقتك، بدل ما تلجأ للغريب.

- أنا مخطط من الأول إنني هقتلها في نهاية الجلسة بعد ما تقولني
إيه علاج السيكوباتية.

- سيكوباتية إيه يا سالم. يعني لازم أحلف على المصحف إننا
زي الفل.

- إحنا زي الفل؟ فعلاً؟

رنّ المصعد معلناً عن وصوله، فولجاء، أجابه هادي وهو يضغط
على زر «G»:

- آه، فعلاً. لو فكرت في الموضوع هتلاقي إننا لا بنعذب اللي
بنقتلهم، ولا بنسلخهم وهم أحياء، ولا بنمثل بجشهم، ولا
بنغتصبهم، ولا...

- ورف التماثيل اللي في أوضة نومك؟

- هواية فنية بخلد بيها ذكرى كل واحدة فيهم. وبعدين، أنا بعمل
كده بعد ما بقتلهم، يعني مش بيعسوا بحاجة.

انغلق باب المصعد، وساد الصمت الثقيل لبرهة، فلم يحتمله
هادي، وكسر هذا السكون معقّباً:

- ثم إحنا بنقتلهم علشان ده شغلنا. لا أنا ولا إنت بنعرف نعمل
حاجة تاني. ده أنا ليا صاحب بيقتل بدون أي مقابل مادي علشان
يقلل الزحمة. فاكر نفسه ثانوس بروح أمه.

ضحك هادي لعله يقلل من ضيق شريكه، لكنه لم يلمح على
وجهه ولو نصف ابتسامة فاترة.

زفر هادي متأثراً بمزاج صاحبه المتعكر، وأردف:

- أنا مش فاهم إنت ليه غاوي جلد ذات. ما كل دقيقة فيه واحد

بيموت ولا حد بيحس بيه، واللي بنقتلهم أوساخ يستاهلوا
القتل. والله البشرية كلها تستاهل القتل، حتى أنا وإنت وحبيبة
وأدهم...

قاطع شعوره بفوهة مسدس سالم تنغرس في ضلعه بعنف،
وسالم يهمس إليه:

- محدش يقدر يقرب من مراتي وابني.

- يخرب بيت قلبة مُودك.

أزاح هادي المسدس عنه، وأردف متجاهلاً تهديد رفيقه له بالقتل:

- قصدي إن دي النهاية الحتمية لينا كلنا، ليه مكبرين الموضوع؟
أعاد سالم مسدسه إلى جرابه وهو يقول:

- لا أنا ولا أي حد يخصني هيموت بالطريقة دي. دي مش نهايتي.

- يا سيدي أنا معنديش مانع نهايتي تكون على إيديك.

وضع هادي يده على كتف سالم، وقال مبتسمًا متجهًا بيده نحو
وجهه:

- هو أنا هلاقي أعز منك يقتلني؟

حدجه سالم بنظرة حادة ومقتضبة جعلت هادي يُنزل يده عنه
بهدوء.

توقف مصعد البرج عند الطابق المنشود.

خرج سالم أولًا، وهمّ هادي أن يتبعه، لكن صديقه التفت إليه
ولكمه بخفة، فاستقرت قبضته على عينه الناعسة.

وضع هادي يده موضع اللكمة المباغطة وتأوه، فقال له سالم:

- دي آخر مرة تفكر تراقبني.

- ده جزائي علشان خايف عليك وعلى مصلحتك؟ سلطان لو
شم خبر هيدفنك حي.

رحل سالم عن البناية، بينما ظل هادي يضغط على عينه المصابة،
ويحاول فتحها وإغلاقها عدة مرات لتتضح رؤيته التي شوشتها لكمة
ذاك العنيف الذي يتخذه صديقاً.

* * *

لم ينتبه سالم في أثناء الجلسة إلى أن حبيبة اتصلت به عشرات
المرات.

فتح باب سيارته وهو يجيب عليها، فأتاه صوتها وهي تبكي
وتصرخ:

- الحقني يا سالم، عمر اتقتل!

* * *

يعرفها الزبائن باسم «صافي»، والضباط بقسم مباحث الآداب
بـ«صفاء السُكري».

كانت ضيقة الملابس، صارخة الملامح، مسرفة في استخدام
اللامع والبراق من مستحضرات التجميل، وتضع ذيل حصان أسود
صناعياً رديئاً.

تُركب أظافر طويلة كالمخالب، وقد دهنت السجائر الرخيصة
أسنانها المسوسة بطبقة صفراء مقرقة.

منطقتها هي شارع جامعة الدول، حيث تقف عند ناصية ورثتها عن
أمها، تدخن سيجارتها وتحقق إلى السيارات بابتسامة متكبرة، إلى
أن وقفت أمامها تلك السيارة السوداء اللامعة المجردة من أرقامها.

- أنزل قائد السيارة نافذته السوداء وابتسم لها.
- لاحظت صافي أنه مصاب بكدمة سوداء حول عينه الكحيلة، فاتكأت على طرف نافذته، وضمت ذراعيها وهي تنفث دخانها لتبرز ثدييها المرمرين، ثم سألته بصوتها المبحوح:
- مين اللي شلفطك كده يا سيد الرجال؟
 - حد بعزه.
 - يبقى يفتح الله. أنا مش من بتوع اضربيني وهزئيني. طريقك أخضر.
 - ضحك هادي ساخرًا من أسلوبها، ثم أشار إليها بأن تركب السيارة، فقالت:
 - أعرف طلباتك الأول، يمكن ما تناسبنيش.
 - اسمك إيه؟
 - صافي.
 - شوفي يا صافي، أنا مفيش حاجة بتبهرنني أكثر من المومس الإنفة.
 - اخلص يا عمنا، طلبك إيه في ليلتك دي؟
 - ودنك.
 - شهقت بسوقية، ثم قالت:
 - وده أصله إيه ده؟
 - أنا عايز أتكلم.
 - تتكلم وبس؟
 - آه، مش مطلوب منك غير إنك تسمعيني.

- والحساب هيكون على الكلام بس؟

- عايزة كام؟

تأملت هيئته المترفة، وسيارته الفارهة، ونبرة الاحتياج التي بصوته، ونظرات الوحدة التي بعينيه.

- عايزة خمستلاف جنيه.

فتح لها الباب، فلم تصدق أنه وافق على مطلبها المبالغ فيه بهذه البساطة.

وثبت بجواره وأغلقت الباب، ثم قالت:

- بس هنتكلم بما يرضي الله.

ضحك ساخرًا، وانطلق بقيادته القاتلة.

* * *

بدأت الأجواء للوحة لفان جوخ، السماء الزرقاء يتوسط كبدها قمر ناضج مائل إلى الصفرة، ينعكس وجهه على صفحة النيل المترقرة، أسفل نجوم كافحت ليتسلل ضيها من أسفل طبقة سميكة من التلوث. تراقصت تموجات الماء مع ملامسة نسيمات الصيف لها، لتختلط مع حفيف أوراق الشجر المحيط بحديقة الجزيرة النيلية التي يسكنها هادي بمفرده.

لم يشغل الموسيقى هذه المرة، اكتفى بزجاجة نبيذ أحمر تجاورها كأسان وطبق من الفاكهة، وآخر من جبن الجودة الدنماركية البرتقالية يتوسط طاولة تضيئها الشموع.

قطع هادي لنفسه التفاح وهو جالس على المقعد الخشبي، مستندًا إلى شجرة البرتقال، متأملًا النيل، وملقيًا ما قطعه بطرف السكين بفمه.

- إشمعنى خمستلاف جنيه يا صافي هانم؟
- إجابتي كلها صعبنيات، وإنت شكلك بيه ما تفهمش في الهم.
- وأنا لو ما فهمش في الهم، كنت هدفع فلوس لواحدة من الشارع علشان تسمعني؟
- تسلم يا ابن الأصول.
- ما تخديهاش على صدرك يا ست صافي. أصلي وأصلك واحد.
- إزاي، العين برضك ما تعلاش عن الحاجب.
- نظر إليها برهة يتفرس نظراتها، ثم سألها:
- عايزة الفلوس في إيه يا صافي؟
- أطرقت إلى الأرض، ثم أجابته بحزن:
- أمي الحكومة عكستها إمبارح، والمحامي مصاريفه كثير.
- أمك شغالة زيك؟
- لأ. قصدي أيوه. أصل أنا أول مرة أنزل مكانها، عمري يعني ما...
- عايزة تفهميني إنك بنت بنوت؟!
- فرت منها دموع أذابت قناع العهر الذي حاولت ارتدائه:
- أمي شغالة في الكار المنيل ده علشان تصرف عليا أنا وأخويا.
- بس أنا من إمبارح مش عارفة أعمل إيه ولا أجيب فلوس منين علشان أخرجها.
- ملكيش أهل؟
- أبويا ما نعرفش أراضيه، وأمي أهلها كلهم متبرئين منها، وأخويا الكبير بعيد عنك بيشد بودة وفلوسنا كلها رايحة على علاجه.
- مسحت دموعها.

- أنا حمدت ربنا أول ما لاقيتك بتقول عايز تتكلم بس. شوف يا بيه، وكتاب الله لو عايز تقعد سنة ترغي أنا هسمعك، بس تُصدق في وعدك ليا، تتكلم من غير ما تلمسني.
ابتسم وأعاد السكين إلى طبق الفاكهة، وصب لنفسه نبيذه ليرتشفه ويمض مع الجبن:

- زي ما قتللك. أنا مش عايز منك غير ودنك.
- اعتبرها ملكك. بس ما تأخذنيش في ديك السؤال يعني، راجل قيمة وسيمما زيك، مش لاقى واحدة من مستواه يفضفض لها؟
- اللي في مستوايا دلوقتي مش هتفهمني. والزم من علمني إن اللي زيك يبسمعوا أحسن من أي طيب نفسي.
أعاد ملء كأسه وهو يسهب في الحديث:

- كان فيه واحد صاحبي رايح لدكتورة نفسية وأنا مشيت وراه. هو فاكرا إني عملت كده علشان خايف يطلع أسرار شلغنا بره، بس أنا عملت كده علشان كنت عايز أبقى جانبه وهو بيتكلم عن الحاجات اللي بتوجعه وبتضايقه. مش سهل إنك تتعري قدام حد مهما كنتي فاكرة نفسك قوية ومستبعية. وأنا ما أقدرش أحكي عن حقيقتي وعن ماضيا قدامه، فيه حاجات ما ينفعش سالم يعرفها عني.

- صاحبك ده شكله عزيز عليك أوي.

ابتسم ابتسامة مريرة، وقال:

- عزيز عليا؟ سالم ده أكثر واحد بحبه وبخاف منه. أنا شغلي إني أختار رجالة الدَّغش.

- ويطلع مين الدَّغش ده؟

- لأ بصي، أنا هتكلم وإنتي هتهزي راسك من غير رغي علشان ما أطلعش من المود.

- خلاص يقطعني. اعتبرني شديت لصق على بُقي. كمل.
ارتشف مزيدًا من النيذ، ومضغ الجبن وشرائح التفاح، ثم استأنف:

- أنا اللي مختار كل رجالة الدَّغش، وأنا اللي مقسمهم. دي موهبتي. أول ما شُفت سالم على الرصيف، عرفت إنه مش بس هيبقى دراعي اليمين. أنا كنت متأكد إن هيبجي يوم وياخد مكاني. أنا ما بحبش حاجة في حياتي غير شغلي، ومع ذلك مستعد أقدمهوله عن طيب خاطر وهو ولا هنا.

ترك كأسه الفارغة على الطاولة، ثم أطرق إلى النيل للحظات مفكرًا:

- أنا جوايا حاجات لو قلتها، هخسر كثير.
أمسكت يده واقتربت منه أكثر ببراءة تخلو من أي عهر، وقالت:
- الدار أمان، اعتبر إنك بتكلم نفسك في المرايا.
استشعر في صوتها ذي البحة المثيرة، صدقًا، فربت على كتفها، وابتدأ حديثه بابتسامة مُرّة:

- أمي كانت شغالة زي أمك. الفرق إن أمك كانت بتبيع نفسها علشان تصرف عليكم، وأنا أمي كانت مستعدة تبيعني لو ده هيزودها قرش.

* * *

كان في السادسة من عمره يتراقص على موسيقى إيديت بياف بغرفة روز العجوز التي باتت بالمشفى تلك الليلة إثر غيبوبة سُكَّر شديدة.

كما علمته، وضع الأسطوانة بالجرامافون، وترك إبرته تراقصها، وبدأ يدور حول نفسه في زوايا الغرفة وهو يغني ويردد الكلمات بلغة طفولية مختلفة وأبعد ما تكون عن الفرنسية.

وقف عند تسريحة روز وسحب باروكتها البنية، وبدأ يلف بالشعر المستعار كأنه يراقص فتاة كما في الأفلام القديمة، ولكنه كان يجهل أن هناك ضبعًا يراقبه من خلف الباب الموارب.

لم يعرف أن ذاك البدين القصير، ذا المؤخرة المترهلة والجلباب الأبيض والذهب الثقيل، يستند إلى الباب، ويتابع حركاته ورقصه. ولج الكائن الجيلاتيني الغرفة، ثم أغلق الباب خلفه، فانتفض ناجي واستعجب.

لَمْ قد يدخل أحدهم إلى غرفة ما من نساء بها بهذا الماخور؟

جلس المترهل على الفراش، وأشار إلى الصغير:

- تعالى، ما تخافش.

اقترب ناجي منه على استحياء، فسأله الرجل:

- تيجي نلعب سوا؟

- ما بلعبش من غير روز.

- وهي فين روز؟

- عند الدكتور بتاخذ حقنة.

- عارف الناس بتاخذ حقنة فين؟

- لأ. ما أخذتش حقنة قبل كده علشان أنا قوي ومش عيان.

- طب تيجي نلعب دكتور وعيان؟

غرس أصابعه بذراع الصغير، وانتشل من يديه الشعر المستعار،
ثم وضعه على رأس الطفل وبدأ يسرح له الباروكة بأصابعه:
- كده شكلك حلو.

- بس البواريك للستات.

- مين قالك الكلام ده؟

سحبه من يده نحو التسريحة، سرح له الباروكة بدقة، ثم سحب
مساحيق التجميل، ووضع له أحمر الشفاه وحمرة الوجه وقلم الكحل
ليكحل له جفنيه، والصغير يظن أنهما يلعبان لعبة جديدة.

- بص لنفسك كده في المرايا. إيه رأيك؟

- بقيت شبه البنات.

- لأ بقيت ولد قمرور.

تحسس وجهه وكتفيه وذراعيه وفخذه، ثم همس:

- مش هنلعب عيان ودكتور؟

- أنا الدكتور.

- وأنا العيان.

لم يفهم ناجي ما يفعله به مفترسه الثلاثيني، فبقي جامدًا في مكانه،
مستسلمًا له من الصدمة.

لا يدري أي لعبة تلك، وما قواعدها، وكيف يمكن أن يكسبها.

كل ما أدركه أن ما يحدث هو أمر خاطئ، أمر مؤلم، أمر مرعب،

أمر لا يجوز أن يحدث لأي طفل بالكاد تعلم العد على أصابعه العشر.

* * *

فلتذهب كأس النيذ إلى الجحيم، تجرع هادي من الزجاجة مباشرة.

تجنب النظر إلى وجه صافي، لكنه تخيل تعبيراتها من نبرة صوتها المفجوعة وهي تسأله:

- كانت تعرف؟

- روز؟

- أمك. كانت عارفة إن الراجل ده دخلك الأوضة علشان...

- لأ. اللي فهمته بعد كده إنه كان قاعد مستني دوره زي أي واحد، ولكن القدر ساقه ليا.

- قلت لحد؟

ألقى مكعب الجبن في فمه، وهز رأسه مبتسمًا ابتسامة مرة.

* * *

بعد أن انتهت اللعبة وخرج مريض البيدوفيليا، بقي ناجي جالسًا على الفراش عاريًا.

تزعزحت الباروكة من على رأسه، وساح كحله وتلطح وجهه بأحمر الشفاه، وابتل جسده كله بالعرق البارد الذي أصاب بدنه الصغير برعشة مرعبة.

أصابه شعور مختلط من الخزي والعار والألم والخدر والغدر، فظل يحدق إلى السجاد إلى أن سمع أمه تضحك بالمرمر.

لسبب ما زال يجهله، وجد نفسه يخرج من الغرفة ركضًا، ويلقي جسده العاري المنهوش بين ساقيه.

أحاطها بذراعيه، وأخذ يبكي بغزارة مرعوبًا ناشجًا.

استغربت الموقف، فانتشلته بعيدًا عنها كأنه موبوء، وهي تقول:

- إيه اللي ملطك كده؟ ومشلفط سحتك زي النسوان ليه؟

بقلب مكسور وعينين كادتا تقعان مع دموعه المنهمرة، قال:

- هو اللي حطلي مكياج وقلعني وقالي هديك حقنة.

- هو مين ده يا واد؟

تلفت حوله حتى رأى طرف جلباب مغتصبه من خلف باب

موارب، فقال:

- الراجل ده.

حكى لها ما صار بأدق التفاصيل، فانقبضت ملامح عشق وجذبت

ناجي من يده من دون أن تبالي بأن تستر بدنه العاري.

ركلت باب غرفتها، سحبت سوطها من على فراشها وخرجت.

اتجهت صوب الغرفة التي ولجها صاحب الجلباب الأبيض

والمعصم المرصع بالذهب، وركلت بابها.

باغتته من الخلف وأنزلت عليه سوطها، فانتفض وقد طرّقع

صوت اللسعة.

- عملت إيه في ابني يا نجس؟

- أنا كنت...

- أنا عرفت كل حاجة. لو ليك في العيال، كنت تقول وإحنا

نتصرف، مش تتسحب زي الحرامية وتنهش الواد.

- أصل أنا...

- لا أصل ولا فصل، حسابه فين؟

- حسابه؟ إنتي عايزة فلوس؟

- أو مال هعوز منك إيه يا روح أمك؟ ولا فكرك إنه علشان عيل هتاكل عليا حقه؟

حتى مريض البيدوفيليا مغتصب الأطفال استغرب دناءتها.
مد يده بجلبابه، وأخرج نفس الحساب الذي كان سيدفعه لأي
مومس بالبيت، فلسعته بسوطها مجدداً:

- هات أدهم ثلاث مرات يا روح أمك. ده ضنايا.

أخرج ثلاثة أضعاف المبلغ الذي كان سيدفعه لأي مومس.
عدت عشق الأموال، ثم دستها في صدريتها وقالت:

- معلوم.

ألقت بابنها صوبه، وقالت بحزم:

- بعد كده ابقى ادخل البيت من بابه، بلاش الحركات الوسخة
دي.

منذ هذه الليلة، وناجي صار طبقاً جديداً على قائمة ملذات هذا
الماخور.

* * *

نظر هادي إلى صافي.

انهمرت دموعها، وسال أنفها فمسحته بطرف شالها الصيفي
الخفيف وهي تقول:
- يا حسرة قلبي عليك.

ابتسم هادي ابتسامة ساخرة مريرة، وقال:

- صعبت عليكى للدرجة دي؟

أجابته بلغة غير الكلام، عانقته.

وضعت رأسه على صدرها، وضمته بين ذراعيها كأنها تعتذر إليه

عن قسوة أمه وجريمة مفترسه وشناعة طفولته.

ولأول مرة، منذ وفاة روز العجوز، شعر هادي بأن هناك مَنْ يحنو

عليه بصدق.

الفصل الثاني عشر

القاهرة، ١٩٨١

هذا الصباح، قرر ناجي أن يقتل قلوب.

قلوب هي قطة بيضاء لها عين زرقاء وأخرى خضراء، وتتميز بوحمة سوداء حول أنفها الوردي تشبه القلب، وأخرى مماثلة عند مؤخرتها. لذلك، سمّتها زوجة حارس العقار القاطنة فوق سطح البناية المقابلة لهم، قلوب.

كانت قلوب تلعب كعادتها فوق السطح المقابل لماخور روز، فراقبها ناجي من نافذة الغرفة وهو مستلقٍ على فراشه.

شعر بأنها تغيطه بلهوها على سور السطح، بل يكاد يجزم أنها تتعمد مضايقته بموائها المدلل، وإذلاله بتنقلها الحر من سطح إلى سطح، على عكس ناجي حبيس هذه البؤرة النجسة، بعد أن صار داعرًا تحت الطلب وفقًا لأذواق مرضى البيدوفيليا.

نهض عن فراشه، فتتج عن حركته صوت خشخشة الكيس البلاستيكي الذي يغطي به الفراش ليحمي المرتبة من حالة التبول اللاإرادي التي أصابته منذ أن اغتُصِبَ منذ عامين، وترك روز تشخر بجواره.

استغل نوم العاهرات ظهرًا، وخرج من الشقة صافقًا الباب خلفه. سار عابرًا الطريق وهو يلهو بالمفاتيح ويصفر ويغني، حتى دخل البناية المقابلة وصعد سلالمها المكسورة، ونعلاه المهترئتان تحتكان بالبلاط الخشن.

أنصت في كل دور صعده لأصوات البيوت الدخيلة عليه؛ صوت وردة الحنون الذي ينساب من الراديو فتدندن ربات البيوت خلفها وهن يطهين، ضحكات الأطفال، صياح الأمهات وهن يُنادين أولادهن للاستحمام أو للمذاكرة.

تجاهل تلك الحميمة التي حُرِم منها منذ تشكّل في رحم أمه، حتى وصل إلى السطح.

لكمت شمس الظهيرة الحامية عينيه فدعكهما، ثم اتجه صوب القطة البيضاء.

كانت تداعب شبحًا في الهواء لا يبصره غيرها، وتقفز يمنة ويسرة محاولة الإمساك بخيط خفي لا تدركه العين البشرية.

لعلها تُبصر ما لا يبصره البشر، ولكن قلوب لم تع نية ابن الثامنة الذي أحكم قبضته عليها، وركض السلالم نزولًا حتى عاد إلى البيت.

دخل الحَمَّام والقطة التي اختطفها تموء بين يديه وتحاول الهرب من بين قبضتيه، ولكنه صفق الباب بساقه ووقف أمام الحوض.

سد بالوعته بالسداة المطاطية السوداء المهترئة، وفتح الصنبور إلى آخره حتى امتلأ الحوض الذي أكله الجير، وفاضت ماؤه على جانبيه.

خربشته القطة لكنه لم يشعر بالألم، بل أخذ يربت على جسدها الزغب اللين، وقبل رأسها، ثم أحكم قبضتيه على عنقها وغطسها في الحوض الفياض من دون أن يغلق الصنبور.

صارعت قلوب المسكينة الغرق، وأخذت تقطع جلد يدي ناجي الناعميتين بمخالبها الحادة، ولكنها كانت أصغر من الغل الدفين بداخله الذي دفعه إلى تفريغ قهره وسخطه بهذا الكائن الأبيض العاجز.

استمتع ناجي بفكرة أن هناك روحًا تتعلق بقاؤها من عدمه برغبته وقوته وسطوته هو فحسب، بل كلما قاومت وعجزت عن تحرير نفسها من بين قبضتيه، شعر الصغير بالنشوة.

كادت قلوب تموت لو لم تدخل روز الحمام وتُصعق من هذا المشهد، فتصيح في ناجي.

انتفض وترك القطة المختطفة، فوثبت مرتعبة وهي تموء وتصرخ وتزمر حتى خرجت من الحمام، وصحبته روز وفتحت لها باب الشقة لتخرج، ثم عادت روز إلى ناجي.

لم يتحرك من مكانه، صنبور الحوض مفتوح، وماؤه يسيل على الأرض، ملابسه مبتلة، كفاه تملأهما الخرايش الدامية، ورأسه متدل على صدره، وعيناه لا ترتفعان عن بلاط الحمام المكسور.

جذبت روز يديه تتفقدتهما، ثم قالت بنبرة حادة:

- الإيد البريئة دي اللي بتعمل تماثيل وبترسوم، تقتل؟

- أنا كنت بحمّيها.

- وكمان كداب! ليه كده يا ناجي؟ ده أنا وقفت في وش أملك لما

حاولت تقتلك، تطلع إنت القاتل؟ القطة المسكينة دي عملتك
إيه علشان تغرقها؟

لم يُجبها، فأغلقت الصنبور وزفرت بثقل.

- إنت غضبان. باين في عيونك الحلوين دول. العالم قاسي عليك
من يوم ما اتولدت يا ناجي. بس ده مش مبرر علشان إن إنت
كمان تقسى على مخاليق ربنا.

- عارفة عشق بتعمل فيا إيه؟

- أنا عارفة إنها كانت بتضربك ومش بتديك الحب اللي تستحقه.
بس خلاص، إنت شايف هي بقيت عيانة وحالتها عاملة إزاي.
حاول تسامحها.

- هي ما قالتش آسفة علشان أسامحها.

- خلاص، ما تسامحهاش، بس كفاية غضب. مش أنا معاك
يا حبيبي؟ إنت مش عارف أنا بحبك أد إيه؟

كان يعرف أن روز تجهل ما يحدث لناجي منذ عامين. فقد
حرصت عشق على إخفاء هذا الاستثمار الجديد عليها. وحتى بعد
أن مرضت عشق ولازمت الفراش، أوصت زميلة لها بالإشراف على
حساب ناجي ومتابعة زبائنه بنفسها من وراء ظهر روز، فهي الأخرى
صحتها صارت كثيرة الاعتلال في الآونة الأخيرة حتى فقدت سيطرتها
على ماخورها.

أردفت الحنون بعد أن طبعت قبلة على خد ناجي:

- اوعدني إنك مش هتعمل كده تاني أبدًا. اوعدني إنك مش
هتنتقم من الدنيا في حيوان بريء ما أذكش.

راقت له الفكرة، لماذا ينتقم من روح لا ذنب لها، بينما يمكنه أن يقتص من التي آذته منذ أن كان نطفة في رحمها؟ ألم يحن الوقت لعشق أن تدفع ثمن خطاياها؟
أخذ قراره.

في الصباح التالي، خرج من غرفة روز متشيئاً بفكرته.
سيتسلل إلى غرفة عشق، سيفتح بابها ويلج عتبها ويطأ فراشها ويتكى على ركبتيه الصغيرتين ويثب عليها وهي نائمة، ويعتصر عنقها بيديه كما اعتصر عنق قلوب الزغبة.
سيرها تقاومه وتتوسل إليه وتبكي راجية إياه أن يرحمها، لكنه لن يلبي رغبتها، وسيكون الرجل الوحيد الذي أسقط عنها سوطها وكسر شوكتها.

قبل خروجه لم تكن روز بجواره على الفراش، فتوقع أنها في الحمام.
وصل إلى غرفة أمه وكله عزيمة على تنفيذ خطته، ولكن تغيرت أحداث السيناريو الذي رسمه.

لم تكن عشق بمفردها في الغرفة، روز وزميلاتها كن حول فراشها، ومعهن رجل رفيع كث الشارب يغطي وجهها بالملاءة البيضاء ويقول:

- البقية في حياتكم.

بكت المومسات وصرخن وعددن كما الأصول.
وقف ناجي عند الباب يتساءل، كيف ماتت عشق من دون أن يخنقها بيديه؟ من دون أن يراها تقاوم؟ من دون أن يشاهدها تتوسل إليه وتطلب السماح والغفران؟

بكى معهن، وإلى هذه اللحظة لا يعلم أبكى لوطاة الشعور
بالموت، أم لأنه فقدَ قصاصًا لن يحققه أبدًا؟

* * *

فقدَ هادي كاريزمته الأرسقراطية، خلع هدوءه ونبرته الناعمة
وابتسامته الساحرة، وأخذ يصيح في وجه صافي بنبرة تختنق مرارة
وحسرة:

- كان هيصصل إيه لو ماتت قبل اليوم ده بستتين؟ قبل ما تبيعني
وتقبض تمنى؟ طب ليه موتها ما تأخرش ساعة، أكون على
الأقل خدت حقي منها؟

- علشان ربك بيعبك. يعني كنت عايز توسخ إيدك بالدم.
- ترجمتك للموقف ركيكة أوي يا صافي.
نمّت حركة عينها على عدم فهمها لجملته. قرأ هادي تعبيرات
الغباء المرسومة على وجهها، فقال:

- قصدي إن تحليلك غلط. مش هي دي الحكمة.
- طب قولى إنت، إيه حكمة كل اللي شُفته ده؟

* * *

القاهرة، ١٩٨٣

ماتت روز في عام ١٩٨٢.
توفيت في الصباح، وقبل أن تُدفن كان ناجي قد أُودع في دار
أيتام في الظهيرة.
كانت حياته هناك بلا معايرة أو تنمر، فجميعهم لقطاع أو منبذون
لا حول لهم ولا قوة.

ما من عزيز أو قريب أو سند أو أهل يتباهون بهم، أو يُشعرونهم
بالفوقية على غيرهم.

لم يشتمَّ في الدار رائحة العهر أو الخمر أو المخدرات، لم يرَ
رجالاً عراة أو نساء غانيات أو مرضى بيدوفيليا.

لكنه أيضًا لم يرَ جرامافونًا، ولم يسمع صوت إيديت بياف، ولم
يشعر بدفء عناق روز، ولم يشتمَّ رائحة المستكة التي كانت تفوح
من علكتها اللاذعة.

كان آمنًا من أي انتهاك جنسي، لكنه كان وحيدًا وضجرًا، وما من
شيء يمقته ناجي ابن العاشرة بقدر الضجر.

كان أحيانًا يُروح عن نفسه باصطياد قطة أو فأر ليقتله ناكثًا عهده
لروز، ولكن ذلك لم يشبعه أو يغنيه من جوع الثأر ورغبة القتل التي
بدأت تتضخم بداخله.

كَبُر هدفه، فقد مر عام على بقاءه في تلك الدار المملة ذات
الجدران البيضاء.

كوّن بعض الصداقات في أثناء لعبه بالصلصال والطمي النوبي،
فقد كان أمهر الأيتام في تشكيل التماثيل إلى درجة أن أقرانه صاروا
يتقربون منه ليعلمهم، ولكنه كان يرفض نقل مهاراته إليهم، فإن صاروا
جميعًا يجيدون تشكيل الصلصال، فما الذي سيميزه؟

فكر ناجي الذي بدأ يُكوّن صداقات للمرة الأولى في حياته
القصيرة، لمَ لا يقتل أحد هؤلاء الفتيان المنبهرين بمهارات أنامله
على سبيل التجربة؟

عقد العزم، حدد موقع تنفيذ الجريمة، والضحية.

كان اسمه مصطفى، صبي في السابعة من عمره، فهمه بطيء مقارنة بسنه، ولكن نموه الجسدي يسبق عمره، فقد فاق ناجي طولاً وعرضاً ووزناً.

ناداه ناجي ذات صباح وهو يلعب بالصلصال، جلس بجواره وقال له:

- تيجي معايا الحوش أوريك حاجة عجيبة؟

- حاجة إيه؟

- شجرة بتطرح شوكلاتة.

- يا سلام؟

- أصل أنا حفرت حفرة رميت فيها قطعة شوكلاتة، وقعدت أرويها كل يوم في الشمس لحد ما عملت شجرة شوكلاتة لذينة جداً. تيجي تاكل معايا؟

المسكين بلع الطعام، وداعب كرشه، ولعق شفتيه، ولحق بناجي. قاده إلى منطقة هادئة بالقرب من المخزن الذي يخبرهم المشرفون بأنه غرفة الفئران ويهددونهم بها كلما أخطأوا.

- دي أوضة الفيران.

- ما أنا زرعت الشجرة جنبها علشان العيال بتخاف تيجي هنا. اوعدني بقى إن الشجرة دي هتفضل سر بينا.

تلفت مصطفى حوله:

- هي فين الشجرة دي؟

استعد ناجي حتى ينفذ الخطوة الأولى من خطته، وهي أن يضرب رأس مصطفى بذلك الحجر الملقى جانبًا.

انتشل الحجر من على الأرض، واقترب من خلف مصطفى بخطوات مدروسة حتى سمع اسمه ينادى من بعيد.

- ناجي!

قطع صوت المشرف السَّيمَج لذة أفكار ناجي الإجرامية وهو يناديه، فألقى الحجر سريعًا، ووضع يديه خلف ظهره.

اقترب منه المشرف قائلاً على عجل:

- فوت قدامي.

ابتسم ناجي بخبث:

- ليه؟ ده أنا حتى لسه ما عملتش حاجة.

- لما أقولك فوت يبقى تفوت من سُكات.

جذبه المشرف من ياقة قميصه، ثم دفعه أمامه.

لم يكن ناجي الصغير يتعرض في الدار لأذى جنسي من أي نوع، ولكنه لم يُعَفَ من الأذى البدني المبرح.

كان كل مشرف بالدار مزودًا بخزانة رعاء متلهفة لتهذيب الصغار بعنف على سفاسف الأمور، فكان المساكين يخافون من مجرد التفكير في عصيان أوامر مشرفيهم، فيما عدا ناجي.

كان يحترف التمرد على السلطة، وإغاظة كل راشد بهذه الدار، حتى صاروا كلهم يتجنبون التعامل معه، وبخاصة بعد أن تأكد لهم أنهم مهما مدوه على يديه وقدميه، ومهما صفعوا وجهه، سينفذ ناجي ما يريد من دون أن يخضع لهم.

قاده المشرف الأسمر إلى غرفة مدير الدار.

فَهِم ناجي أنه اقترف خطأً جسيماً، وإلا فلماذا يستدعيه أكبر رأس في الدار؟

لم يدخل مكتبه سوى مرتين، ذاق فيهما توكة حزام المدير على وجهه، مرة لأنه صفع مربية على وجهها لأنها شتمته، والثانية لأنه دبَّ شوكة في يد زميل له سرق منه طعامه، لكنه هذه المرة واثق بأنه لم يفعل شيئاً. تصالح مع فكرة أنه سيُضرب الليلة وسيرحل بعين متورمة، لكنه تفاجأ حين دخل مكتب المدير بأنه يرتدي أكثر ثيابه أناقة، وتفوح من غرفته رائحة البن المطحون الطازج، إنها القهوة المخصصة التي لا تُقدَّم سوى للمتبرعين الأثرياء والمتكفلين بالأيتام.

قال مدير الدار هلامي الحجم بابتسامة زائفة:

- ادخل يا ناجي يا حبيبي.

أطلَّ ناجي برأسه فرأى الضيوف.

امرأة وقورة الملبس، شعرها الأملس يفرش كتفيها المكتنزتين، ويقابلها زوجها.

كان أرستقراطي الهيئة، يشبه «الأفندية» ذوي الطرابيش الذين روت له روز عنهم أيام نشاطها كباغية متمرسة.

كان «الأفندي» يضع ساقاً فوق الأخرى، فانبهر ناجي بحذائه اللامع وبدلته السوداء الأنيقة النظيفة.

كان كثيف الشعر، ممشوق القوام، يرتدي ساعة «رولكس» مرصعة، وسلسلة ذهبية واضحة من أسفل ياقة قميصه ناصع البياض، وتفوح منه رائحة عطر فرنسي.

دقق ناجي في النظر حتى توقف عند أظافره، فهو لم يرَ رجلًا يملك أظافر نظيفة ومقصوفة وتلمع هكذا من قبل.

قطع المدير تأمله وهو يشير صوب «الأفندي» مدخن السيجار:
- تعالى يا حبيبي، سلّم على بابا بسيوني وماما حنان.

اقترب ناجي من بسيوني وسأله:

- أنت بتبصلي كده ليه؟

قال المشرف بابتسامة تشي بأن عشر خرزانات سترن على يد ناجي بعد رحيل الضيف:

- مش إحنا اتعلمنا يا حبيبي نقول للكبير «حضرتك»؟

قالت حنان الحسناء الأنيقة للمشرف:

- مفيش داعي للرسميات دي، إحنا هنبقى عيلته.

التفتت إلى ناجي، وقالت بابتسامة حنون:

- إحنا حابين يا ناجي إنك تيجي تعيش معانا. إيه رأيك؟

قلّب نظره بين حنان وزوجها الذي لم يتوقف عن تدخين سيجاره وهو يتأمل ناجي من رأسه حتى أخمصي قدميه.

- يعني إيه؟

سأل بسيوني مدير الدار وهو ينفث دخانه:

- بقى ده أذكى طفل عندكم؟

كاد المدير يجيب، لكن ناجي قال بغطرسة:

- أنا بجيب الدرجات النهائية في كل المواد، والمدرسين كلهم

يقولوا عليا أخطر واحد في الفصل. بس الست دي بتقول كلام

غريب، محدش بيتبنى أطفال في سني، كلهم بياخدوا اللي

بيرضعوا علشان يضحكوا عليهم ويفهموهم إنهم ولادهم،
ويكبروا مش فاكرين حاجة.

تدبر بسيوني منطق ناجي، ثم قال له بملامح جادة:
- بس إحنا مش عايزينك تنسى أهللك الحقيقيين، ولا إنك كنت
في الدار هنا.

أطفأ بسيوني سيجاره، وقال للمدير بفتور:
- هناخد ده. جهزلنا الورق.

لقد انتقى بسيوني مشترياته، وأكد على ذلك بكل جملة قالها وهو
يتابع إجراءات الاحتضان، لم يكن ينقص إلا أن يطلب من مدير الدار
أن يضع له الطفل في كيس بلاستيكي.

* * *

القاهرة، ١٩٩١

مصمم الألباس بسيوني الحكيم تبنى ناجي ووهبه اسمه لثمانية
أعوام.
لماذا؟

لأن صانع الحلّي يتاجر بالمخدرات، وزوجته تعلم، ولكن الأموال
التي تُدرّ عليها وتُخبأ تحت غطاء تصميم الحلّي آخرستها.
الأثواب ذات الماركات، والأرقام التي تتبعها ستة أصفار بالبنك،
والسفر حول العالم، جعلتها تنسى لمّ اعترضت على تلك التجارة
المحرمة من الأصل. بل إنها اتخذت من سفسطة زوجها عقيدة، فقد
حلل لها الأمر آنفاً.

- أنا مش بتاجر في سلاح رصاصه هيّموت روح، ولا في آثار

بنهب بها حق الشعب. أنا تاجر، عرض وطلب، بيع سلعة الناس بتطلبها وتشتريها بمزاجها وبتتبسط بدون ما أمد أيدي في جيب حد ولا آخذ قوته من طبقه. فين الحرمانية يا حنان؟ لم ييخل بسيوني على حنان، وحقق لها كل أمانياتها عدا الإنجاب. اثنا عشر عامًا من زواج عن حب، لم يُكَلِّل بسليلٍ سيرث ملايين الحكيم.

أحضر لها أدوية من جميع بقاع العالم، عرضها على الدجالين والسحرة، لكنها لم تحمل حتى آمنت بأن رحمها ستبقى جذبة ما حيت، إلى أن اكتشفت الحقيقة.

ذات صباح، فقدت وعيها وهي تتسوق، فذهبت إلى الطبيب، أجرى لها الفحوصات اللازمة، وبعدها أخبرها بأنها حامل. كان هذا اليوم الأسعد في حياة حنان، خصوصًا أنه يصادف عيد زواجهما.

هيأت الأجواء الرومانسية كما في الأفلام الأجنبية، ثم أذاعت عليه الخبر السار.

على عكس توقعاتها، لم يستقبل بسيوني الأمر بدموع الفرحه وعناق البهجة وقبلات الحب، بل فقد أعصابه وانقض على حنان يتهمها بخيانتة وهو يبرحها ضربًا، حتى فقدت وعيها ونزفت.

بينما كان يفحصها الطبيب، لم تكن تعرف الحقيقة التي خباها بسيوني عنها منذ أول عام من زواجهما.

خُلِقَ بسيوني مشوه المني، لا أمل في نبتة ولا رجاء، ولكن غروره منعه من مصارحة حنان التي عشقته منذ كان صبيًّا صائغ حلي، وتراقبه

من شرفتها المطللة على بالوعة تطفح طول السنة بمنتصف زقاق ضيق، إذا احترق به منزل ستعجز سيارات الإطفاء عن الوصول إليه.

ماذا لو قرّرت أن تتركه وتبحث عن يهب لها طفلًا؟
لذلك، قرر أن يقلب الآية، ظل اثني عشر عامًا يوهمها أنها العقيمة، وأنه الزوج الوفي لحبه الذي يتحمل رحم زوجته الجذبة، ولا يفكر في الزواج بغيرها.

لذلك، حين قالت له إنها حامل، لم يفكر إلا في أن مَنِي غيره خصبها، فكيف لها أن تحمّل منه وقد أخبره طبيبه بأن نسبة أن يلد ولدًا من صلبه لا تتعدى الواحد بالمائة؟

ترك حنان بالمشفى، وذهب إلى طبيب الذكورة الذي يتابع حالته منذ عشر سنوات، وقص عليه ما صار، فبارك له وأخبره:

- ألم أقل لك مائة مرة بأن هناك أمل واحد بالمائة أن تصير أبا؟
عاد إلى المشفى بين نارين، إن صدّق الطبيب، فقد ارتكب خطأ فادحًا في حق زوجته، كيف سيفسر لها شكه فيها؟ كيف سيعترف لها بأن زواجهما تكتنفه كذبة كبيرة؟ وإن أخطأ الطبيب، فكيف سيتقبل حقيقة أن حنان التي ذاب فيها عشقًا منذ لمحها لأول مرة وهي تقف على عربة كبدة أمها، خائنه، بل وحملت من غيره؟

ظل في هذه الحيرة حتى خرج الطبيب بعد ساعات طويلة في غرفة العمليات، ليخبره بأن الجنين مات وأخذ معه رحم حنان تذكاريًا.
هكذا أدرك بسيووني أنه فقدَ الواحد بالمائة من أمل أن يصير له ابن من حنان.

اعتذر منها ومما اتهمها به.

كان من المفترض أن تنفصل عنه، وأن تقاضيه، أو أن تفتسه بأسنانها، ولكن العز أخرسها.

صالحها بملايين وفيلاً وسيارة جديدة بسائقها ورحلة لأوروبا وألماس وطفل يتيم.

قررا أن يأخذا طفلاً من الميتم المحيط بالحي الذي سكنه يوماً وعرفا شقاء أبنائه.

طفل واع، لا رضيع بكاء مزعج كثير المتطلبات يؤرق نومهما ويعطل سهراتهما.

أذكى الأطفال، أكثرهم موهبة وفناً ووسامة وصحة وفطنة، حتى يليق بالصورة الاجتماعية اللامعة لأسرة الحكيم، فوق الاختيار على ناجي.

التزما بشهادة ميلاده التي أصدرتها له الدار، بعد أن ألقته العاهرات هناك بلا شهادة ميلاد، فلم تكن عشق مهتمة بتسجيل أي وثيقة تخصه.

أضاف له بليونى مجازاً لقب «الحكيم»، ليشعر بأن اسمه سيظل على وجه البسيطة بعد وفاته حتى وإن كان بشكل صوري.

علمه تعليماً فرنسياً عالي المستوى، وأغدق عليه بالمال والملابس والعطور والسفر والذكريات.

أعطاه دروس البيانو والتشكيل والنحت واللغات.

أعطاه كل شيء عدا الكرامة.

لم يفوت بليونى فرصة من دون أن يسرد تفاصيل ماضي ناجي على ضيوفه ومعارفه، حتى يمطروه بكلمات الثناء، ويغدقوا عليه بالمجاملات، منبهرين بكرمه وعطفه على الأيتام، وما سيلقاه من

ثواب عظيم في الجنة. فعاش ناجي يسمع جملاً من قبيل: «أترى

الصبي الذي يجيد الرقص والغناء والنحت والعزف ويتكلم أربع لغات أوروبية بطلاقة؟ لقد وُلد بيت دعارة، ثم ألقته زميلات أمه المومس التي ماتت بالزهري، في دار أيتام. أنا تبنيتها، وجعلت منه إنساناً». «أترى ذاك المراهق ذا السترة الجلدية والحذاء الغالي والرائحة العطرة وذيل الحصان الأمريكي؟ كان مستقبله أن يصير قوَّادًا في ماخور حقير، لولاى ما كان شابًا مثقفًا ذا قيمة وشأن».

لا ينكر ناجي أن بفضل بسيوني أصبحت له غرفة نوم أكبر من بيت الدعارة كله، وأصبح يملك جرامفونًا مُطعمًا بالذهب، ومكتبة كاملة من أسطوانات إيديت بياف، إلا أنه ظل بلا أصل، بلا أهل، بلا جذر. لثمانية أعوام متتالية، لم يكن ناجي يعود إلى منزله من دون علامات الضرب والمشاجرة على بدنه الرياضي بسبب المشاجرات التي يدخلها مع أقرانه طلاب المدرسة الفرنسية الأرستقراطيين، وزملائه بالنادي أبناء الفنانين ورجال الأعمال الذين يعرفون عنه تلك التفاصيل المخزية.

بفضل بسيوني، لم يسلم ناجي يومًا من معايرة المراهقين الأفظاظ له، وتنمرهم عليه، ومناداته بابن العاهرة.

هذه السنوات الثماني، جعلته يتيقن من أنه ما من فرق بين مرتادي المدرسة الفرنسية التي تُدفع مصاريفها باليورو الأحمر، وأبناء الحارة ممزقي المنامات ومرتدي الأحذية المثقوبة ولاعبي البلي بالتراب. الكل رجمه لذنوب لا دخل له به.

لعن اليوم الذي أخرجه فيه بسيوني من الدار، وزرعه في مجتمع متعجرف فظ يلفظ أصله.

لم يجد من يسانده في هذه الطبقة اللعينة، سوى حنان العطوف التي كثيراً ما كانت تنهر بسيوني على تصرفاته.

كان من الممكن أن يتجنب بسيوني ويكتفي بحنان، ولكن أين التحدي في التمتع بحب امرأة تبنت طفلاً وأحسنّت معاملته؟ أين السلطة التي سيمرد عليها؟ أين المخاطرة التي ينتشي بها؟ اختار أن يتجاهل حنان، بل أن يسيء معاملتها في بعض الأحيان، فقط ليغيظ بسيوني ويدفعه إلى ضربه.

بقي على هذه الحال حتى تخرّج من الثانوية، وقرر أن يسافر إلى فرنسا لدراسة النحت، ويبقى هناك من دون رجعة، ولكن كان رد بسيوني على طلبه قاطعاً لا رجعة فيه:

- مفيش سفر.

نفخ ناجي علكته مشكّلاً منها فقاعة طرّعها بقوة وهو يهز ساقه على الكرسي المقابل لمكتب بسيوني المنزلي الفخم، ثم قال:

- مش هتقدر على بُعدي؟

لم يرفع بسيوني عينيه عن الأوراق التي انشغل بمراجعتها وهو يخدم سيجاره في المِرمدة الكريستالية:

- حنان اللي مش هتقدر.

- طُز!

- بطل وساخة واتكلم عن أملك باحترام.

- «Pardon» يا مسيو بسيوني. اتفارقنا كان إن حنان مش أمي وإنت

مش أبويا. فيه «businessman» خطير زيك ينسى اتفارياته؟

- المهم إن إنت اللي ما تنساش أصلك الوسخ والوحل...

- والوحد اللي انتشلتني منه. بلاه بلاه بلاه! ما تشوفلك حاجة جديدة تعاريني بيها أحسن أنا بزهدق أوي من التكرار، مش زي شوية المنافقين اللي بتجيبهم في كل سهرة علشان يطبلولك.

- لِم ليلتك يا ابن عشق وادخل اتخمد.

- طب قولني بجد، هي المجاملات السطحية اللي بتتقالك علشان إنت راجل طيوب متبني طفل ابن مومس، بتزود ثقتك في نفسك وبتعوضك فعلاً عن حقيقة إنك سلمت نمر؟ كالعادة، برود ناجي وجرأته أربكا بسيوني.

رفع عينيه عن أوراقه بملامح منقبضة وهو يفكر، أنى لهذا اللقيط أن يعرف سره؟

ابتسم ناجي وضحك منتشياً من تعبيرات وجه بسيوني القلقة والغاضبة وهو يقول:

- هتاكلك وتعرف أنا عرفت إزاي، صح؟

نفخ فقاعة جديدة بعلكته ثم طرقتها بعنف، وقال:

- ما أنا متربي في بيت دعارة بقى.

استشاط بسيوني غضباً، وألقاه بالمرمدة الكريستالية.

لم يحاول ناجي أن يتفادها، ارتطم طرف المِرمدة بحاجبه الأيسر، فانفتح ونزف.

ضحك وهو يراقب بسيوني، فقد حقق هدفه وجعله يفقد أعصابه وينهض محكماً قبضته على عنق ناجي:

- ورب العزة، لولا إن حنان روحها فيك، لكنت دفتك حي.

- ما إنت لو ما كنتش راجل بركة، ما كانتش روحها بقت في
خبرة زيي.

لكمه مرتين، فشقت شفتا ناجي، وشعر بطعم الدماء في فمه.
بصق دمه على وجه بسيوني، فامتعض الآخر ورفع يده عنه
ليمسح الدم وهو ينعته بأقذع الألفاظ، فضحك ناجي وهو في قمة
مجده، إلى أن سمع صوتًا غريبًا يقول بلهجة إسكندرانية من خلف
بسيوني:

- عركة ولّا إيه؟

التفت بسيوني ليجد سلطان بألوان ثيابه الفاقعة، وصندله الصيفي
الجلدي، وفي فمه سيجارة أفيون.

كان يقف عند باب الغرفة يتابع ذلك الشجار، فدخل يقول:

- مشلفط وش ابنك ليه يا ولّا؟

ترك بسيوني تلايب ناجي، فرأى سلطان الدماء على وجهيهما،
فأبعد نظره عنهما، بينما صاح بسيوني:

- ما تقولش ابنك، ده ابن حرام.

سحب سلطان النفس الأخير من أفيونته، ثم قال:

- ماشي يا ابن الحلال. خليه يمسح وشه ولّا يتدارى في حته.
عايزك.

ابتسم ناجي وقال لبسيوني بنبرة ذات إيحاء:

- أمشي ولّا دي كمان هتحتاج فيها مساعدة صديق؟

انقض بسيوني عليه مرة أخرى ولكمه لكمة مباغته، فصاح فيه
سلطان وقد نفذ صبره:

- ما تركز معايا يا ولّا! هو مفيش احترام للكبير؟
- مش شايف إزاي بيقول...
- يا جدع اكتب بقى! إنت اتفقت مع مخيون؟
- تكهرب بسيوني وترك ناجي، ووجّه كامل انتباهه صوب سلطان وهو يقول:
- مخيون؟ لأ طبعًا. اتفاق إيه اللي مع مخيون؟ أنا تسألني السؤال ده يا مايسترو؟ بقى أنا...
- هششششش! بص كده من الشباك.
- استدار بسيوني بقلق، وإذ تفاجئه دائرة ليزر القناصة الحمراء تتوسط جبينه عبر زجاج النافذة.
- ضحك ناجي وصفق بأرستقراطية، وعلق بلكنة فرنسية ساخرة:
- «Surprise»!
- نظر سلطان إلى بسيوني وهو يطم شفتيه بامتعاض، ثم قال:
- يا أخي حتى الولا اللي عايش في كنفك مش طايقك. إنت مين بيحبك يا بسيوني؟
- داخ بسيوني، فجلس على الكرسي قصير الظهر، لتظل النافذة وكرسي ناجي خلفه.
- انساب العرق على جبينه، وارتعشت يداه، فقال بنبرة مهزوزة:
- كانت وَرّة شيطان، أنا...
- إنت طمعت واتسرعت. وأنا ما أكرهش في حياتي أد الخصلتين دول.
- ما إنت برضو ما قدرتنيش يا سلطان. كل السنين دي بتعاملني

كأنني صبي من صبيانك، مع إن أنا اللي شايل الشغل كله على كتافي.

- طب ما إنت فعلاً صبي من صبياني يا ولأ. من إمتى والمايسترو له شريك!

- حتى لو، إنت عمرك ما حفظت لي كرامتي ولا وضعي، وبتهيني قدام اللي يسوى واللي ما يسواش، ومصغرني في السوق.

- تقوم حاطط إيدك في إيد عدوي بعد السنين دي كلها! ده إنت كنت جايلي وأشهر واحد في عيلتكم هو زعبولة حرامي الجزم! دلوقتي بقيت بيه بتتصور مع يسرا وليلى علوي وبتطلع في التلافزيون! وده بفضل المايسترو يا ابن المبقعة!

بكي بسيوني كالأطفال وهو يقول بعجز:

- أنا آسف، أنا بس كنت...

- آسف دي تقولها لمراتك لما تكسر لها كوباية من النيش، مش لما تقرطسني في خمسين مليون يا ابن ال...

- هعوضك. هرجعلك المبلغ كامل، وهقدملك راس مخيون و... - يقطعني، هو أنا نسيت أقولك؟

جلس سلطان على الكرسي المقابل لبسيوني واضعاً ساقاً فوق الأخرى، يحك أصابعه النافذة من الصندل المفتوح، وأردف بفخر:

- اليوم في تمام الساعة العاشرة مساءً، واحد من مساعدين عزرائيل زار مخيون. ادعيله. زمانه بيتسئل عن ربه ودينه ونبيه.

- لأ يا سلطان. إنت مش هتقتلني زيه؟ ده أنا طول عمري راجلك!

- زي ما الأمريكان بيقولوا يا بسيوني «it's too late». أنا قعدت

مع آمنة. قالتلي ما أكتفيش بقتل مخيون، لازم أخلص عليك
بعد الحركة الزفرة اللي إنت عملتها دي علشان أحافظ على...
يخبئها الجامعة الأمريكية، خلت البت ترطن بالإنجليزي. آمنة
قالتلك تحافظ على إيه يا سلطان؟ تحافظ على إيه؟

جاهد سلطان ليتذكر الكلمة، فقال ناجي ببرود:

- على الـ «image» بتاعتك؟

ضرب سلطان كفيه بحماس مَن وجد ضالته، وقال:

- أيوووه. هي الإيمتش دي. يرضيك يا بسيوني إن إيمتش
المايسترو تتهز؟

- ما يرضينش يا مايسترو.

- يبقى تموت وإنت ساكت يا حبيبي.

نهض ناجي عن مقعده، ووقف خلف بسيوني واضعاً يديه بجيبه
وهو يضحك بسخرية، فسأله سلطان:

- بتضحك على إيه يا ولأ؟

- أصلك مش هتقتله. لو عايز، كنت قتلتك بنفسك أو خليت
القناصة بتوعك يخلصوا عليه برصاصة في نص راسه قدام
عينيك علشان تفش غلك. بس إنت عندك فوييا من الدم،
علشان كده من ساعة ما دخلت وإنت بتتجنب تبص لو شي
وتشوف الدم اللي عليه، مع إنك ممكن تقتله من غير ما ينزل
منه نقطة دم واحدة.

حك سلطان ذقنه بفضول مناقشاً ذلك المراهق العليم بشؤون القتل:
- أَسْمُهُ يعني؟

أجابه ناجي وهو يفك حزام سرواله:
- السم للجبنا. الراجل يخلص بإيده.
فعلها ناجي.

بخفة، نزل بحزامه الجلدي المتين على كتفي بسيوني. لف طرفيه
حول عنقه. جذبه بعنف إلى الخلف ليخنقه.

قاومه بسيوني، خربش معصميه، خدش يديه، حاول باستماتة أن
يجذب الحزام في الاتجاه المعاكس، لكنه فشل.

أسند ناجي ظهر الكرسي بقدمه، وجذبه بشراسة، فانقلب بسيوني
بالكرسي على ظهره مسقطاً قاتله معه.

لم يفلت ناجي قبضته، عدل جلسته بأن ثبت كعبيه على الأرض،
وأحكم ركبتيه على عنق بسيوني، وزاد قوة خنقه بالحزام.

صارت رؤية بسيوني مموهة. دوى طنين بأذنيه، تبعه صمت. شعر
بحرق في عنقه وصدره. هرب الأكسجين، شلت المفاصل، ارتخت
الأطراف، ساد الظلام، توقف النبض.

بعد عشرة أعوام من أحلام اليقظة فعلها ناجي، أوقع قتيله الأول.
ترك الحزام مربوطاً حول عنق بسيوني، وقفز في الهواء يصيح
منتصراً، كأنه حصد الميدالية الذهبية في أولمبياد الإجمام.

أخرج سلطان أفبونة ثانية أشعلها وهو يراقب ناجي يعوي كالذئب
الظافر ويثب بسعادة حول جثة بسيوني.

- قتلته ليه؟

أوقف ناجي احتفاله القصير، وقال لاهثاً بسبب المجهود الذي
بذله في القتل وفي الاحتفال:

- علشان دمه ثقيل .
- يا باااي . ده كان يلطش .
- أشار إليه بالجلوس، فنفذ أمره .
- أخرج سلطان منديلاً من جيبه، وأشار إلى ناجي حتى يمسح وجهه من الدم وهو يسأله:
- ألا هو أنا باين عليا أوي موضوع الـ...
- الهيموفوبيا؟
- مسح ناجي دماؤه، ثم وجد أن سلطان ينظر إليه مستفهماً، فوضح له:
- فوبيا الدم. بس لأ، مش باين عليك. أنا اللي مثقف بزيادة.
- ما يبهرنيش غير المجرم المثقف.
- ميرسي. هتعمل إيه في بصماتك، وفي الخدم والأدلة؟ حنان زمانها راجعة من مارينا و...
- أنا شغال في المجال ده من قبل ما أبوك يبلغ. ما تشغلش بالك إنت.
- ابتسم ناجي:
- يعني كده مش باقي شاهد على جريمتك غيري.
- جريمة إيه يا حلاوة؟ إنت اللي قتلت.
- وإنت اللي قتلت مخيون. فعندك حلين، يا تقتلني علشان ما ييقاش فيه شاهد عليك، يا تشغلني معاك.
- في المخدرات؟
- في القتل. سمعت بسيوني وهو يقول لحنان إن عندك فريق بيقتل اللي يضايقوك إنت وحبايك.

- عايز تبقى من صبياني؟
- من رجالتك.
- أنهى أفيونته فأخمدتها بالمِرمدة، ثم وضع عقبها المطفأ بجيبه.
- إنت لسه ما استويتش. أولاً قتلته من غير أمري. ثانياً خنقته من نبر جوانتي، وسيبته يجرحك. فدلوقتي دمك وطبقات جلدك كلها بقت تحت ضوافره، يعني الطب الشرعي هيجيب...
- هقطع إيديه وأدفعها.
- رفع سلطان حاجبيه الكثيّن متفاجئاً بدموية المراهق ذي الصوت الناعم والنبرة الأرستقراطية:
- الشغل معايا شرطه الحكمة والهدوء.
- وأنا هادي.
- وأنا سلطان.
- «Enchanté»، بس أنا قصدي هادي كصفة. اسمي ناجي.
- لأ. إنت اسمك هيبقى هادي علشان أنا الغلط معايا مفيهوش نجاه، وعلشان اسمك الجديد يفكرك تهذا قبل ما تهب منك.
- هسيبك تحتفظ باسم الحكيم علشان تفتكر أبوك اللي كان أهم صبي عندي، شوف لما اتعوج نهايته كانت إيه.
- نظر سلطان إلى الأفق وهو يرسم الأحرف بيديه في الهواء:
- هادي الحكيم. اسم فني أوي يا جدع.



telegram @
yasmeenbook

الفصل الثالث عشر

تحول تعاطف صافي معه إلى رهبة وخوف منه.

- يعني إنت قتال قتلة؟ أنا مستنية أسمع منك قصة كفاحك علشان في الآخر تقوللي إنك اخترت تقبض أرواح الناس وبتتحجج بطفولتك وأمك والملجأ وأبصر إيه!

- أتحجج؟

- آه يا خويا تتحجج. ما لو كل واحد اتلسع من الشورية حرق

جثة اللي طبخهاله زيك، الدنيا هتبقى جهنم حمرا.

وضع يده على كتفها ليهدهئها، فدفعتها وهي تقول:

- إيدك! إنت بتقتل علشان إيه؟ شوية فلوس؟

- أو مال إنتي وأمك بتبيعوا نفسكم علشان إيه؟ الحفاظ على

البيئة؟

- يا سيدي إحنا رمم وبنبيع جتنا، بس على الأقل ما بننذيش

وما بنغدرش، ولو كان فيه حد بيتنذني فهو إحنا، إنما إنت...

- يا صافي أنا ضحية مجتمع.

- ده اللي إنت بتقوله لنفسك علشان تعرف تنام بالليل؟

- مين قالك إني بعرف أنا؟
أخذ السكين وقطع بها مزيداً من التفاح.
مضغ شرائح التفاح على مهل، ثم تجرع آخر ما بقي من زجاجة
النيبذ.

زفرت صافي بثقل، ثم قالت:
- عايز تحكي حاجة تاني يا بيه؟
- آخر حاجة.
ترك السكين والتفاح وزجاجة النيبذ الفارغة على مسافة متوسطة
بينهما.

اقترب منها أكثر مما ينبغي فتوترت، لكنها بقيت في مكانها تسمعه
وهو يقول بعينين تشتعلان غضباً:

- كنت بقولك تحليلك للي حصلي ركيك علشان الحكمة من اللي
مريت بيه في بيت روز وشفته من اللي شغالين شغلانتكم هو
إن يتزرع في قلبي القسوة من ناحيتكم، وأتولى مهمة تخليص
الجنس البشري من نجاستكم، وأنصف البلد من سمعتكم
الوسخة. أنا بكرهكم أوي أوي يا صافي.
غدر بها، وثب فوقها فجأة وأخذ يخنقها بعنف.

رأى فيها صورة أمه، وزميلاتها، ومغتصبه الأول، وزبائنه، وبسيوني،
وكل الذين تنمروا عليه من أبناء حيه وأبناء مدرسته وأبناء النادي.
رأى في زيتنها الصارخة وملامحها الفجة، ماضيه المشوه،
وحاضره الأجوف، ومستقبله المشوش.

شهقت صافي بصعوبة باحثة عن الهواء، بينما اندمج هادي مع

قصاصه الباطل، فلم ينتبه إلى أن صافي مدت يدها على الطاولة،
سحبت سكين الفاكهة وغرزتها في جانبه.

فور أن شعر بنصل السكين ينغرس في جانبه، رفع يديه عن عنقها
مشدوهاً.

شهقت وسقطت على العشب النضر بمفاصل مرتعشة ورؤية
مشوشة.

أخرج هادي السكين من جانبه، وشاهد الدماء تنفر من موضع
الجرح ملوثة ملابسه.

نظر إلى صافي، وقال:

- ليه كده يا صافي! ده كان قميصي المفضل.

نهضت صافي وهي تلهث، وركضت في الحديقة، فصاح هادي
صوبها:

- على فين يا صفصف؟ العدو أمامك والبحر خلفك.

اتجهت صوب البيت أوروبى الطراز، ولكن بابه كان موصداً.
هربت حيث اللانش وصعدته، لكنها لم تجد مفتاحاً ولا مجدافاً
ولا سبيلاً للنجاة.

لا تجيد السباحة، ولا تجد بصوتها الذي أوهنه الاختناق القوة
الكافية للصراخ. حتى وإن صرخت، فمن مُنْجِئها؟

لم تفكر سوى بهاتفها، أخرجته من جيبها، لكنها فوجئت بهادي
يقف أمامها غير متأثر بجرحه.

انتشل الهاتف «النوكيا» العتيق من يدها، وفتح ظهره بهدوء ليخرج
شريحته وهو يقول منزعجاً:

- ما كنتش أتصور إنك بالدموية دي!
- كسر الشريحة إلى أجزاء صغيرة، ثم ألقاها في النهر لتتبعها بقية أجزاء الهاتف.
- أدركت الوضع ولم تعد أمامها أي فرصة للنجاة، فخرت على ركبتها، وبدأت تبكي بقله حيلة وهي تقول مذعورة:
- أنا ما أذتكش. أنا حتى ما بشتغلش شغلانة أمك.
- زفر هادي بضيق:
- لآ لآ يا صافي أنا ما بحبش الدموع.
- طب بالله عليك أنا عملت إيه علشان تقتلني؟ مش أنا سمعت كويس؟
- يا حبيبتي هسيبك عايشة إزاي بعد كل اللي عرفتيه عني ده؟
- طب حكييلي ليه من الأول؟
- شفتي بقى إنك مش مستمعة كويس؟ مش أنا قتلتك إني محتاج حد ما أعرفوش أحكيه كل حاجة عني، وأفـرغ معاه كل المشاعر والأحاسيس اللي خانقاني دي وبعدها يموت ومعاه سري؟
- متفاجئة ليه دلوقتي؟
- أقسم بالله مش هنطق بكلمة.
- بعد كل اللي حكيتهولك ده متخيلة إني ممكن أصدق واحدة زيك؟
- أنا مش أمك. أنا عمري ما أذيت حد. ما تقتلنيش زي ما الدنيا قتلتك. أبوس إيدك سيـبني أرجع لأهلي اللي ملهمش غيري.
- زفر هادي بعد لحظة صمت تدبر فيها كلام صافي، ثم قال:

- عندك حق يا صافي. إنتي لا زي أمي ولا زي كل الركلام اللي قتلتهم. إنتي ما تستاهلش نفس النهاية.

مد يده صوبها في دعوة لها لتنهض.

ترددت لثانية ثم استسلمت، أمسكت يده ووقفت على قدميها.

ابتسم لها ومسح دموعها وهو يقول برفق:

- أنا مش هحط راسك على الرف زيهم. إنتي ما تستاهلش ده.

عانقها بعنف ضغط على أضلعها، فتأوهت بين ذراعيه.

همس في أذنها بالحنان نفسه:

- أنا هلحقك قبل ما تبقى نهايتك هي الاستسلام لشغل الدعارة

عند أول مشكلة تواجهك زي ما عملتي النهارده.

- تقصد إيه؟

- أقصد إني هبعثك لربك طاهرة قبل ما توسخي نفسك.

تبع كلماته أزيز رصاصة مكتومة انطلقت من مسدسه الذي سحبه

من جرابه خلسة وثبته عند جانب رأسها لينهي حياتها.

تלטخ وجهه بدمائها قبل أن تسقط على الأرض وتخضب عشب

حديقته ببركة دمائها المسالة من رأسها.

وقف ينظر إليها برهة، ثم أعاد المسدس إلى جرابه، وشعر بشيء

لم يشعر به منذ أكثر من أربعين عامًا.

الرغبة في البكاء.

جثا على ركبتيه أمام جثة صافي، وأخذ يبكي بحرقة يقاطعها

نشيجه واهتزاز كتفيه وصراخه.

لكل كوب سعة تخزينية معينة يظل الماء يملأها حتى يصل إلى

أقصاها، وبعدها يفيض على الجانبين. هكذا كانت حال هادي الليلة، لقد امتلأ كوبه وطفح كيله، ولم تُعد لديه مساحة ليكبت شعورًا آخر.

دخل إلى القبر وهو يبكي، كأنه يكتشف الدموع لأول مرة. حمل جاروفه وخرج إلى الحديقة حيث جثتها، يغرقه طوفان تفاصيل كل ما مر به في عمره.

انعكس ضوء البدر على طرف جاروفه وهو يحفر، فقد قرر أن يكرمها لحسن استماعها ولكونها عذراء لم تبع نفسها كباقي مَنْ حوّل رؤوسهن إلى تماثيل من الشمع.

أنهى الحفر بكتفين منهكتين، ثم حملها برفق ووضعها في موضعها الأخير.

صب فوقها الأسمنت السائل ليمنع أي رائحة أو تجمع حشرات أو ديدان من أن تغزو حديقته الخضيرة، ثم ردم فوقها. حين انتهى وقت الفجر، زَيَّن قبرها بالزهور المقطوفة من أشجاره، وجلس بضع دقائق بجوارها.

لو كان يحفظ الفاتحة لقرأها، ولكنه آثر أن يشغل القرآن على هاتفه، وأن يأخذ عزاءها بمفرده.

لا يعلم كم مر من الوقت، لكنه بدأ ينزعج من رائحة عرقه، فأغلق القرآن، وذهب إلى الحمام، وخلع ملابسه، ونزل تحت الماء المنهمر على رأسه ليزيح الدماء المتجلطة على وجهه وبين يديه، والطين الذي وسخه، لكنه تعجب من أن الدماء ما زالت تنهمر مع الماء، وهنا تذكر.

لقد طعنت جانبه بالسكين في بداية مقاومتها، وقد كبس الجرح بالبن حتى ينتهي من دفنها ويرى كيف سيعالجه.
لم يستسغ فكرة الذهاب إلى سلطان كي يجعل أحد أطبائه يخيّط جرحه، لأنه متيقن من أنه سيوبخه، لأنه ما زال يمارس رياضة اصطلياد العاهرات لقتلهن.

نشف بدنه، وخرج إلى ركن الخمر لينتقي منه زجاجة الـ«Chivas». سكب بعضها في طبق، ووضع به إبرة ومقصًا وخيوطًا يتركها دائمًا بعلبة الإسعافات الأولية خاصته للظروف المماثلة، فلم تكن تلك المرة الأولى التي يخيّط فيها جرحه لنفسه.

ارتشف الكثير من الويسكي، وقرر أن يمضغ اللبان ويُسْغَل أسطوانة تَسْغَل تركيزه بكلماتها، عوضًا عن أن يركز على دخول وخروج سن الإبرة في لحمه:

لست ملاكًا يا جوني وهذا الأمر لا يزعجني

ليلاً ونهارًا أفكر فيك فهل تتذكرني؟

أنا التي لا تنام صباحًا إلا وهي حزينه عليك

لأنك يا جوني لست ملاكًا

لم يكن في مزاج يناسب أن يردد كلمات الأغنية، لكنه حاول أن يشغل نفسه بسماع صوتها وهو يسكب الكحول على جرحه المفتوح، ثم يئن غارسًا الإبرة في جلده ليربط طرفي لحمه بالخيط ويشد عليهما.

ظل على الوتيرة نفسها، غرزة، ثم رشفة من الويسكي، ثم مقطع من إيديت بياف، حتى انتهى.

رمى أدواته في الكحول، وغسل وجهه من العرق، ثم ضمد الجرح.

ألقى بنفسه على كرسیه المريح متجرعاً مزيداً من الويسكي، فاليوم تعرف هادي على جانب هش حزين ضعيف لم يرق له. سعل بقوة مبالغته جعلت أضلعه تهتز ويشعر بمذاق الدم في فمه. ألمه جرحه الحديث، وكاد يبكي ثانية، لكن جرس بيته رنَّ وانتشله من حالة رثاء النفس تلك.

تعجب، فهو وحيد لا ونيس ولا جار ولا زائر له. ترك زجاجته، ووضع سروالاً وقميصاً قطنياً يستر جرحه، وانتشل مسدس «بريتا» صغيراً ووضع بهجبه تحسباً، ثم نزل سلالمه. فور أن اقترب من الباب تسلل على أطراف أصابعه، ووقف خلسة ينظر من العين السحرية التي تتوسط بابه.

اعتلت وجهه ابتسامة واسعة حين عرف هوية زائره: «سالم؟!». ودَّ أن يصعد إلى غرفته ثانية ويرتدي ملابس أكثر أناقة، لكنه فضل ألا يتركه ينتظر طويلاً على الباب، فاكتمى بأن يسرح شعره بأصابعه ليعدله هو وحاجبيه، ثم يسعل ليصفى صوته الذي غبشه البكاء، ثم فتح الباب باسم الثغر:

- «Bonsoir». نورت بيتي المتواضع. لو كنت أعرف إنك هـ...

- أنت قتلت أخو مراتي؟

* * *

وضع هادي الشاي بالنعناع والكعك وطبق الفاكهة أمام سالم على الطاولة التي تتوسط الصالة، وقال بابتسامة مضيافة:

- أنا عارف إنك مش بتحب تشرب، فقلت الشاي هيبقى...
أمسك عن الكلام حين رأى سالم يشعل سيجارته ويعيد عليه
سؤاله المقتضب:

- قتلت عمر أخو حبيبة ولا لأ؟

انسل هادي صوب نوافذ الصالة الفسيحة يفتحها واحدة تلو
واحدة، ويجذب ستائرهما حتى يطرد الدخان حيث الحديقة المزدهرة
التي صارت قبرًا لصافي:

- ده سؤال إجابته مش آه أو لا يا سالم.

- صح.

عمر مسدسه وجلس على كرسيه مصوبًا فوهته نحو هادي وهو
يقول:

- أنا عارف الإجابة. بس قلت أتأكد.

زفر هادي بملل وهو يدس يده في جيبه، ويقترب من الطاولة
بخطوات خاملة، ويجذب الكرسي المقابل لسالم ويجلس عليه
بحذر حتى لا تنفتح غرز جرحه الحديث، ثم يقول:

- دي تاني مرة ترفع فيها مسدسك عليا النهارده. كده هاخذ على
خاطري منك.

أخرج من جيبه مسدسه الصغير، ثم وضعه أمام سالم مضيئًا:
- على العموم، اللي تشوفه. بس إنت أكيد جاي تسمع مني اللي
حصل، ولا أنا غلطان؟

أنزل سالم مسدسه وتركه على الطاولة بينه وبين هادي، في إشارة
منه أن يتحدث.

ارتشف هادي من فنجان قهوته، ثم قال بهدوء:

- هايدي طلبت مني وأنا بديها كورس النحت من أسبوع، إني أقتلها صاحبها وعشيقتة. حددتلها سعري. دفعتلي. نفذت. ما كنتش أعرف إنه أخو مراتك غير لما قتلته ولقيت صورهم سوا في الشقة، حتى ساعتها ما فهمتش ليه صور مراتك في بيت واحد كيفه بنات الليل.

وضع سالم يده فوق مسدسه ثانية، لكن هادي اندفع قائلاً:

- لا أنا ولا سلطان ولا هايدي كنا نعرف إن عمر يقربلك. إنت فاصلنا عن حياتك ومش معتبرنا عيلتك ومش بتعرفنا حاجة عنك، فمين فينا اللي غلطان دلوقتي؟
- أنا؟

- «Oui». ما إنت لو بتحبني زي ما بحبك وبتعرفني كل حاجة عنك ما كانش حصل اللبس ده، وكنت قلت لهايدي ما ينفعش أقتل أخو مرات صاحبي، وخلصت على كده.
حك سالم مؤخرة رأسه بفوهة المسدس، ثم سألته:
- سلطان عرف؟

- العملية كانت فريلانس، بس الجحشة الصغيرة لسعت وكانت عايزة تبلغ عننا، فسلطان أمرني أقتلها.
- سلطان أمرك تقتل بنت آمنة؟
- تخيل!

قلَّب سالم كلام هادي بعقله وهو يتأمل ضوء شمس البكور الذي يتعامد على وجهه وهو ينفث دخان سيجارته.

أبعد هادي الدخان عنه، وأخذ الرشفة الأخيرة من قهوته، ثم قال:
- أنا غلطت غلطة مش مقصودة. إنت ليك عندي حق عرب،
شوف عايز تاخده إزاي.

- حصل خير.

أعاد سالم مسدسه إلى جرابه، ثم نهض ليخرج، لكن هادي
استوقفه متعجباً:

- بس كده؟

- عيل رخم وخلصني منه. أنا كنت جاي بس أتأكد إنك ما قتلتش
حد يخلصني بدون ما ترجعلي حتى لو كان أورددر جايلك من
الدَّغَش نفسه. بس ده ما يمنعش إني كده ليا عندك جميلة هيجي
وقت وأطالبك بيها.

- وأنا عينيا ليك في أي وقت يا سالم.

الفصل الرابع عشر

تلا المقرئ سورة الفجر على آذان الحاضرين في عزاء عمر عاطف. كان أغلب المعزين من الشباب زملائه من الجامعة والمدرسة والنادي، وبعض الخالات والأخوال والأعمام الذين اعتنوا به وبشقيقته منذ أن راح والداهما ضحية حادث سيارة قبل اثني عشر عامًا.

كانت حبيبة في صوان النساء تبكي في حالة مفجعة، فهي لم تتصور يومًا أن تأخذ التعازي في شقيقها الأصغر قبل أن تستقبل مباركة الناس لها على زفافه.

كانت جالسة على كرسيها تبكي بقلب يهتز بين أضلعها ألمًا، تؤازرها صديقتها الأقرب عيشة شوكت، التي تجبر الجميع على مناداتها، شوشو.

كان لشوشو شعر أحمر كرزي، تتطاير خصلاته المتموجة من خلف أذنيها، تبدو لمن يراها لأول مرة أنها شديدة الجاذبية بسبب بشرتها الفاتحة وعينيها الخضراوين، وإن دقت في قسماتها سترى أن عظام وجهها شديدة النوء، وأن لها أنفًا معقوفًا وأسنانًا بارزة

أسفل شفيتها الرفيعتين، وتبرز حول عينيها هالات داكنة عميقة،
وتظهر بمقلتيها عروق حمراء دقيقة، فتتحير بأن تصفها بأجمل قبيحة
أم أقبح جميلة!

ربت شوشو على كتف حبيبة وهي تهوّن عليها:

- يا حبيبتى، ده دلوقتي في مكان أحسن مني ومنك. امسكي
نفسك علشان البيبي.

- مش قادرة يا شوشو، ده أخويا اللي مليش غيره.

- وولادك برضو ملهمش غيرك.

- مش هتبرد ناري غير لما أعرف مين الجبان اللي قتله ورماه
في الصحرا كده؟

- إن شاء الله البوليس هيلاقى اللي عملها.

مسحت حبيبة دموعها، ونظرت إلى وجه صديقتها التي قوّتها
بكلماتها البسيطة، فانتبعت لأول مرة أن وجهها تملأه الكدمات:

- هو الحيوان ده مد إيده عليكى تاني يا شوشو؟

وضعت يدها على عينها حيث الكدمة الأكبر، وقالت مرتبكة:

- إنتي في إيه ولّا في إيه يا حبيبة؟

- طب وآخرتها إيه يا حبيبتى؟

أطرقت إلى الأرض، فتلورت دموعها حتى هربت منها دمعتان،

مسحتهما بظهر يدها ببأس، ثم علقت:

- خلاص يا حبيبة والنبي ما تفكر نيش. خيلنا فيكي دلوقتي.

ربت حبيبة على رأس صديقتها وكتفها بحنان، فابتسمت لها بامتنان.

أخذت شوشو تنصت للمقرئ حتى لمحت سيارة بيضاء كلاسيكية

تقف عند الصوان وينزل منها هادي، فلفت نظرها بأناقة بدلته السوداء، ولمعة حذائه النظيف، ورقبي عطره الذي غطى على رائحة بن القهوة السادة التي تحتسيها.

ترجل من مقعد السيارة المجاور لهادي، سلطان، ببدلة سوداء لم يحتمل قتامة لونها فكسرها بقميص بنفسجي فاقع.

همس سلطان إلى هادي وهو يسير بجواره:

- يلعن أبو سواقتك الخرا.

كتم هادي ضحكته الشامتة حتى لا يسيء للمعزين، ثم سار معه حتى صوان الرجال حيث يقف سالم وأدهم عند مدخله بجوار عم حبيبة وخالها.

وقف هادي عند أول الطابور يتبعه سلطان، صافح العم ثم الخال مكرراً الجملة نفسها:

- البقاء لله. البقاء لله.

كذلك فعل سلطان، ثم توقف كلاهما عند سالم وكررا معاً:

- البقاء لله.

- شكر الله سعيكم.

رأى هادي أدهم الصغير وداعب شعره:

- حبيب أنكل، إزيك؟

قطّب الصغير حاجبيه، وبدا متضايقاً من مداعبة هادي لشعره، فأعاد تشذيبه، بينما أخرج هادي من جيبه شوكلاتة مستوردة باهظة يتهافت عليها الصغار، وانحنى صوب الصغير يقول:

- شوف جبّلك معايا إيه؟

مد أدهم يده ليأخذها، لكن هادي أبعدها قائلاً:
- مش نقول الأول ميرسي وندي أنكل بوسة؟
- لأ.

- ليه كده بس يا أدهوم؟
- علشان أنا لا بحبك ولا بحب شوكلاتك.
انتشل الشوكلاتة من بين يده بعنف، ثم ألقاها أرضاً وركض
صوب أمه.

انتصبت قامة هادي، وهو يضحك بغیظ معلقاً:
- أحباب الله فعلاً.
همس سلطان إلى سالم:
- عايزينك.

هز رأسه، واستأذن عم وخال القتيل، ثم خرج ثلاثتهم من الصوان،
واتجهوا حيث الزاوية الخلفية الهادئة بعيداً عن صوت المكبر وحركة
المعزين.

أخرج سلطان من جيبه شيكاً موقِعاً يحمل اسم سالم بالكامل، وقال:
- ده شيك على بياض. حط دية المرحوم.
- مش مستاهلة.

- لأ مستاهلة. قانوننا إننا ما نجيش على بعض، وبنت أختي
وأخوك كرواسون جُم عليك.

- بمناسبة بنت أختك، آمنة عملت إيه؟

- هتعمل إيه؟ بنتها ماتت أوفردوز. قضاء ربنا، ولأ إنتو عندكم
قول تاني؟

صمت كلاهما، فقال سلطان:

- اترحموا عليها.

ترحم كلاهما على ابنة أخته التي قتلها، ثم قال هادي لسالم:

- أظن كده اتأكدت إن محدش فينا كان يقصد يدوسلك على طرف.

- عارف، من غير دية.

همم أن يعيد الشيك إلى سلطان، لكنه قال:

- يا سيدي اشتري للمدام هدية قتل أخوها، ما يخرسش الحريم غير الصيغة.

- أنا ما بخرسش مراتي، ومفيش حاجة هتهديها غير إن قاتل أخوها يتعدم قدامها.

- في بيتها. ولأيا هادي، لبسها لأبو قرن، مشاكلة كترت وقرفني.

- أبو قرن مختفي من ساعة ما قتل الدكتور.

- مش هنغلب. هجيلك يا سالم اللي يتعدم ويبرد نار المدام.

عندك طلبات تاني؟

- متشكرين.

- وده من إمتي التسامح ده يا ولأ؟

- زي ما قلت لهادي. كان واد تقيل على قلبي. عن إذنكم علشان

أخذ عزاه.

كاد سالم يتركهما، لكن سلطان استوقفه قائلاً:

- طب فيه طاجن صيادية النهارده الفجر. هتاكل ولأ هتكون

بتمسح دموع المدام؟

- مين؟

- ديلر معفص اسمه منير، خلص على أربعة من صبياننا من شوية،
فمش عايز يطلع عليه صبح.

هز سالم رأسه، ووضع يديه في جيبه، وقال لهادي:
- هستناك في نفس المكان.

تفرقوا، عاد سالم إلى الصوان، بينما عاد هادي وسلطان إلى
السيارة.

ركب هادي السيارة، بينما بقي سلطان واقفاً بالخارج.

قال له من النافذة بابتسامة مستهزئة:

- هسوق براحة.

- يا جدع العُمر مش بعزقة. زعفران هيجي يوصلني.

ضحك هادي، وأدار محرك سيارته ثم انطلق، وقد كانت شوشو
تراقبه طيلة هذه الفترة، فسألت حبيبة وهي تشير صوب سيارته التي تبتعد:

- مين ده يا حبيبة؟

فأجابتها:

- هادي، صاحب سالم.

- شيك أوي، بيشتغل إيه؟

- نحّات.

ابتسمت شوشو، ورددت الكلمة بابتسامة مغرية وهي تداعب
خصلاتها المموجة:

- نحّات.



يتظاهر الجميع بالحزن في أثناء تأدية واجب العزاء، ثم يعودون إلى حياتهم الرتيبة.

هكذا كانت حال شوشو.

انطلقت بسيارتها عائدة إلى منزلها وهي تحدث ابنها ذا السنوات التسع عبر الهاتف:

- ما تعملش شقاوة عند عمته يا مالك، مش عايزين حد يقول إن

شوشو ابنها «naughty».

- حاضر يا مامي. باي.

- استنى! فين بوسة مامي؟

أرسل إليها قبلة طفولية سمعت صوتها عبر الهاتف، ردتها إليه، ثم تمت له ليلة سعيدة وأنهت المكالمة.

صفت سيارتها أمام فيلاً زوجها بالتجمع الخامس حيث الخلاء والصمت.

دخلت منزلها البارد، فخلعت حذاءها، وصعدت السلالم الرخامية، وأغلقت على نفسها باب غرفتها بالمفتاح.

وضعت رداء نومها الأحمر القصير، ولم تختبئ هذه المرة في الحمام، استغلت فرصة أن زوجها مسافر إلى إنجلترا كما أخبرها اليوم قبل أن يرحلها ضرباً ويتهمها بخيانته.

أخرجت ورقة من فئة عشرة جنيهات من حقيبتها، ومدت يدها إلى صدريتها لتخرج منها بودرتها السحرية، الكوكايين.

نثرتها بدقة على الكومود بجوار الفراش، وهذبتها ببطاقتها الائتمانية حتى كوّنت منها صفّاً، ثم لفت ورقة النقود بشكل مخروطي

لستخدمها كشفافة تستنشق بها الغبار الأبيض الذي يلهب النشوة بجسدها ويخدر عقلها.

فعلتها واستنشقت الخط كله، لترفع رأسها ويجتاحها شعور مفاجئ بالقوة والطاقة جعل عينيها تجحطان.

تسارعت أنفاسها ونبضات قلبها، وارتفع ضغط دمها. تخدر لسانها، وتخدلت عنقها وأطرافها ومفاصلها، ففكت شعرها الغجري، وألقت نفسها على الوسادة، تراقب السقف، وتسمع نبضها يدق ببطبتي أذنيها، وصدرها يعلو ويهبط مع كل دقة.

ارتفعت درجة حرارة جسدها، وابتل بدننا بالعرق الدافئ. أحبت تلك الحالة، وتركت نفسها تغطس في هلاوسها. سمعت زئير وحش يدق بابها بعنف، ثم رأت وجهًا أحمر سمينًا، له قوائم عنكبوت أسود، يظهر لها من السقف، ويزحف على الحائط المقابل لفراشها.

نزل ذلك الكائن الأسود المُشعر المقرز عن الحائط، وأخذ يقترب منها ولعابه الدبق يسيل.

فجأة انكسر باب الغرفة الموصد بالمفتاح، واندفع منه رجل مقبل على عقده السابع، لكنه طويل القامة، شامخ الظهر، قوي العصب. هلوست بأن زوجها معها في الغرفة ممسكًا بشابٍ طمست الدماء ملامحه، كأن هناك مَنْ دفس وجهه داخل دلو دهان أحمر.

مشى العنكبوت المرعب، وهبط فوق صدرها ليبللها بلعابه ومخاضه، وقد استشعرت بأن نيته هي قتلها والفتك بها بأشرس طريقة ممكنة.

ودت أن تقاومه، لكنها عجزت تمامًا عن الحركة.

شعرت بأن فراشها يتلعتها، وأن ذلك العنكبوت هو جاثوم لعين لن يتركها من دون أن يثقب صدرها بأنيابه الحادة ليخرج قلبها ويمضغه أمام عينيها.

حاولت أن تنهض، لكنها ظلت تلهث وتتصبب عرقًا، حتى شعرت بصفعة شديدة أطاحت برأسها أقصى اليسار، وسمعت صوتًا يصيح فيها:

- انطقي!

بدأت تستعيد وعيها.

انكششت الهلاوس، واختفى العنكبوت، ولم يتبقَّ في الغرفة سوى زوجها الذي بالفعل كسر باب غرفة النوم عليها ومعه شخص لم تتبين هويته.

همست اسمه بصوت لا تظن أنه وصل إليه لأنه ثقيل السمع:

- سراج؟!

- هي حصلت إنك تتعاطي الزفت ده في بيتي، يعني خاينة وكمان شمامة؟

أطاح رأسها بصفعة أخرى، وهكذا استفاقت من خدرها.

نهضت عن مضجعها، ورفعت رأسها، وحاولت أن تركز فيما يدور حولها.

لقد رأت شابًا يرتدي ملابس رياضية غطت الجروح والكدمات والدماء تفاصيل وجهه، ولكنها عرفت أنه مدرب سباحة ابنها الذي اتهمها سراج اليوم بخيانتها معه.

صرخت ذعرًا، فقال سراج:

- مش هو ده حسام اللي بتقولي إنه بيكلمك ليل نهار علشان تمارين مالك؟

جذبه سراج من شعره، وصاح فيه:

- ما تقولها! قولها اللي قلتهاولي!

نطق بصوت ضعيف والدماء تتناثر من فمه:

- أنا وشوشو مع بعض بقالنا شهرين.

صرخت شوشو بصوت بحته السجائر والكحول والمخدرات:

- كداب، مفيش بيني وبينه أي حاجة غير...

- إنتي لسه هتكدي؟

ضرب سراج رأس حسام بالفراش، ومد يده صوب ظهره.

تعلم شوشو ماذا سيفعل، سيسحب مسدسه، سيقتلها.

لم تنتظره حتى يأخذ سلاحه، جذبت المصباح الضخم من على

الكومود وألقته بعنف صوب سراج العجوز.

ارتطم المصباح بوجهه، وأصاب سلكه عينه، فصاح يسبها ويلعنها.

سحبت حقيبة يدها الملقاة بجوارها، ونهضت بخفة مستخدمة

الطاقة التي أدّرتها جرعة المخدر بعروقها ودعّمها الخوف

والأدرينالين، لتركض بقميص نومها الفاضح وقدميها الحافيتين

خارج الغرفة التي تهشم بابها.

نزلت السلالم في ثوانٍ، وخرجت من الفيلا، وحمدت ربها أنها

صفت سيارتها أمام الباب بالضبط.

بأصابع مرتعشة أخرجت المفاتيح من حقيبة يدها، وانزلت داخل

السيارة، ثم انطلقت وهي تجهل وجهتها، ولكن تعرف أنه يجب أن
تبتعد بقدر الإمكان عن سراج حتى لا ينهي حياتها.

* * *

تطلب الأمر ساعتين متواصلتين من البكاء حتى غفت حبيبة على
حجر سالم.

استغل سالم الفرصة وخرج من الغرفة برفقة حاسوبه المحمول،
والملابس الخفيفة التي سيرتديها عند خروجه مع هادي لتنفيذ
مهمتهما الجديدة.

أشعل سيجارته، وأعد لنفسه الشاي بالنعناع، وفتح حاسوبه
ليراجع المعلومات التي أرسلها إليه سلطان بخصوص عملية الفجر.
راجع الإحداثيات، وأماكن كاميرات المراقبة بالشارع، وإن كانت
هناك أي كمائن شرطة قد تقابلهما بالطريق.

بتر انتباهه انتصاب ذيل قطته فجأة، وخرخرتها صوب الباب.
رن جرس الباب.

اتجه صوب الباب، ضم سيجارته بين شفثيه، مديده على الطاولة
التي تجاور الباب، وفتح الدرج الذي يحوي جيباً خفياً في قاعه حيث
يخفي مسدساً صغيراً ينفعه في حالات الضيوف غير المرغوب فيهم.
نظر من العين السحرية قبل أن يخرج المسدس، ثم أدرك أن الأمر
لن يستدعي سلاحاً.

أغلق الدرج، ثم فتح الباب ليجد شوشو تقف أمامه حافية بقميص
نومها الستان الأحمر القصير، وشعرها المنتكش، وكحلها السائل
من فرط البكاء.

الفصل الخامس عشر

قال سالم لحبيبة ببرود وهما بغرفة النوم:

- لاً.

- أقولها إيه وهي في الحالة دي؟ انزلي نامي في عرييتك؟

- اديها لبس وفلوس تبات في أي أوتيل.

- جوزها هيجيبها بالبطاقة، بقولك كان وزير سابق.

- ما علشان كده بقولك لاً ما ينفعش تبات عندنا.

- فين الشهامة يا سالم؟

- في مشوار يا حبيبة.

- أنا مش بهزر. مش هسيب صاحبتني في الوضع ده، إن شا الله

أخذ هدومي وأروح معاها شقة عمر لولا إني مش هقدر أدخل

شقتة بعد اللي حصل.

اغرورقت عيناها بالدموع، فزفر سالم بثقل وقال:

- حبيبة، أنا ما بحبش صاحبتك دي.

- ليه؟

- علشان جوزها عنده حق. النادي كله بيتكلم عن علاقتها بكابتن السباحة و... .

- إنت هتخوض في عرض صاحبتى يا سالم؟ وبعدين، ما أنا كمان مش بحب هادي صاحبك ومع ذلك بضايفه وبعامله باحترام علشان خاطرك.

- خلاص يا حبيبة شوفي هتتخمد فين علشان أنا مش هنام على الكنبه.



بدلت السماء بثوب ليلها الأسود بُهور الفجر الباهت. نامت حبيبة على فراشها مرتاحة الضمير، لأنها وفرت ملجأً آمناً لصديقتها بغرفة الضيوف التي أعدتها لها، وتركتها تنام فيها بعد أن أعطتها منامة محتشمة تستتر بها.

غيرَ سالم ثيابه بهدوء، فلم تشعر به حبيبة ثقيلة المنام، وكاد يخرج من الغرفة، لكنه التقط صوتاً من الخارج.

وَقَعَ خطوات وحركة بالصالة، فنظر من خلف باب غرفته المواردب، ليجد شوشو تمشي على أطراف أصابعها حتى فتحت باب الشقة بهدوء، وخرجت من دون أن تصدر صوتاً، ثم أغلقت الباب خلفها آخذة معها مفتاح الشقة.

كان لسالم أن يخمن أنها ربما سمعته يذمها فدفعتها كبرياؤها إلى الرحيل عن منزل ربُّه لا يرحب بها فيه، ولكن أخذها للمفتاح معها جعله يعيد النظر في ذلك.

ربما خرجت لتبتاع بعض السجائر، أو لتقابل أحدهم، ثم تعود ثانية من دون أن يشعر بها أحد.

توالت التخمينات التي قرر أن يضعها جانباً ليدرسها عند عودته من مهمته.

اهتز هاتفه الموضوع على وضع الصامت بيده، فأخرس هزته ونزل.

* * *

ككل مرة، تمشَّى إلى آخر الشارع. صعد الكوبري، نزله. انتظر بضع دقائق حتى أتاه هادي يسبقه صوت إيديت بياف.

فور أن ركب سالم، أخذ هادي السيارة من فمه وألقاها من النافذة، فأطفأ سالم الراديو ليخرس بياف.

قال هادي:

- مش كل مرة. ولعلمك، الدور عليا، كفاية إنها طلعة ببلاش.
- ببلاش ليه؟
- عقاب من المايسترو علشان خدت أورد من هايدي الله يحرقها.
- علشان كده بقولك لو خدت دوري المرة دي هتكون بزعة.
- ده تهديد؟
- ده رجاء شخصي.

* * *

أطلق عليه زبائنه لقب «منير»، لأن العقاقير الغريبة التي يجلبها إلى السوق المصرية قادرة على إنارة أذهانهم ونقلهم إلى عالم آخر.

كان فيلسوفًا، تخرّج في جامعة اسمها من ثلاثة أحرف، لا يدخلها إلا أولاد الصفوة.

درس الكيمياء الحيوية، لأن عائلته تمنّت أن يصير صيدليًا يخترع أدوية تشفي العليل، ولكن كان لعاشق مسلسل «Breaking Bad» رأي آخر، فقد اتخذ من عبقرية والتر وايت الكيميائية قدوة، ومن تسويق وإدارة بابلو إسكوبار منهجًا، وعليه حين ورث أباه الفقيّد اتخذ من ميراثه رأس مال لمشروعه العبقرى.

اشترى فيلاً متطرفة، واتخذ من قبوها معملًا، ومن دورها الأول صالة استقبال لزبائنه المقربين.

ابتاع المواد المطلوبة لتصل حتى عتبة فيلته من خلال شبكة الـ«deep web»، وخلطها في معمله، ثم وزعها مع شباب ومراهقين من مرتادي النوادي والجامعات والصالات الرياضية والملاهي الليلية التي لا يدخلها إلا النخبة ليبدأ في الانتشار.

ولم لا يستغل فيلته الفسيحة في إقامة الحفلات حول حمّام السباحة لتوزيع المخدرات العجيبة التي تدفعك إلى عالم سريالي بوهيمي الحالة. لكن الليلة، كانت مخصصة للعمل في معمله مع شريكه لخلط مواد جديدة على إيقاع موسيقى «Skrillex» الصاخبة من فيلم «Suicide Squad» الذي يعشقه، فاهتزت الجدران من ذبذبات نظام الصوت الذي يحيط بجميع أرجاء الفيلا.

بقي منير مع شريكه حازم فقط في القبو خلف الباب الموصد إلكترونيًا، يهزان رأسيهما مع الموسيقى وهما يعملان حتى انتبه منير لإشعار على التابلت يفيد بأن شخصًا ما يطرق باب القبو.

فحص الكاميرا فوجدها سوداء، فلعن رداءة برمجتها، ثم سأل صديقه حازم:

- هشام وصاحبتة لسه في الفيلا؟

هز حازم كتفيه فيما ينم عن جهله الإجابة، فأمسك منير بالريموت ليطفئ الاستريو.

نهض منير وسار بخطوات مترنحة صوب الباب، فتحه وهو يسأل قبل أن يرى الطارق:
- مين؟

أجابه هادي من خلف قناعه الصوفي الأسود، وشاشة بدلة مربى النحل البيضاء:

- الألمانية لإبادة الحشرات.

ركل هادي الباب، ودخل المعمل مصوباً مسدسه نحو منير الذي كان سيخرج مسدسه من جيبه، وإذ بهادي يصيب يده بطلقة، وقلبه بثانية، ورأسه بثالثة، بينما انطلقت رصاصة من بندقية سالم واخترقت رأس حازم، فسمعا صريخ أنثى.
عمّ الصمت.

طوقا المعمل بنظريهما، لم يكن هناك سوى جثتي القتيلين.
أخرج هادي هاتفه وصورهما بالفيديو، ثم خلع غطاء رأسه وتصور معهما، وأرسل الفيديو إلى المايسترو لتتبعه رسالة صوتية وهو يخبره:
- «Done» يا مايسترو.

لاحظ سالم أكواب الويسكي الأربعة على الطاولة التي بالزاوية، ليلمح أحمر شفاه واضحاً على طرف أحدها.

التفت إليه سالم وقال:

- يلا.

- يلا إيه؟ فيه ست هنا.

- سلطان دفعلنا تمن راس منير بس.

- دفعلك إنت. أنا هنا «for fun».

كاد يندفع صوب السلالم، ولكن سالم استوقفه قائلاً:

- غطي وشك.

- ما تخافش. اللي هيشوف وشي هتكون دي آخر حاجة يشوفها في حياته.

ركض صوب السلالم بحماس طفولي، فتبعه سالم ليحمي ظهره.

سار هادي بممر غرف الدور الثاني وهو ينادي بالطريقة بصوت راقٍ، راکلاً بعنف مباغت باب كل غرفة يمر بجوارها:

- يا هانم، يا مدام. ما تشوقينيش بقى أكثر من كده!

سمع سالم أنفاساً مضطربة قادمة من الغرفة على ميسرته.

ألصق أذنه بالباب، وشد أجزاء بندقيته، ثم دفع الباب، ولكن الأمر حدث بسرعة خاطفة.

فور أن فتح الباب خرجت طلقة صوبه، ردها أوتوماتيكياً بطلقتين من بندقيته استقرتا برأس هشام الذي كان يختبئ في تلك الغرفة. فور أن سقط القتيل، ولج سالم الغرفة، ورأى تلك الأنثى التي كانت تصرخ.

كانت صاحبة الشعر الأشعث الأحمر والعينين الخضراوين

متكورة بالزاوية، جاثية على ركبتها، وقد غطت أذنيها لتحميها
من دوي الرصاص، وأخذت تبكي وتتوسل:
- أنا مش معاهم. أنا مليش دعوة بحاجة.

تسمر سالم في مكانه حين أدرك أنها شوشو، وكاد يستدير ويرحل
عن الغرفة، لكن هادي ناداه باسمه أمامها بقلق وركض صوبه فور أن
سمع تبادل الرصاص.

اطمأن هادي حين رأى صديقه واقفاً على قدميه، ثم انفرجت
أساريره فور أن رأى شوشو جاثية على ركبتها وخاضعة أمام سالم.
كانت قد أنزلت يديها عن أذنيها ورفعت رأسها فور أن سمعت
هادي ينادي باسم سالم، وأخذت تحديق إلى ملامحه وهي تكاد لا
تصدق أن هذا النحات الذي جذبها بعطره يقف أمامها وهو يحمل
سلاحاً أوردى به الديلر الخاص بها.

صوّب هادي مسدسه تجاه شوشو، لكن سالم خفض سلاح
صاحبه قائلاً بحسم:
- لا.

التفت إلى صديقة زوجته وأمرها:
- امشي!

ركضت هرباً من الموت للمرة الثانية في الليلة نفسها.
استشاط هادي غضباً وهو يصيح في سالم:

- هتسيبها تهرب؟ دي شافت وشي وعرفت اسمك.
- صاحبة مراتي.

- صاحبة مراتك يعني تسجننا؟

ضغط سالم على جانبه وتأوه، فانتبه هادي لذلك. نظر إلى موضع يده، وأدرك أنه أصيب برصاصة في جانبه الأيسر. همّ أن يقول شيئاً، لكن سالم قاطعه قائلاً بصوت وشى عن ألمه الشديد:

- مش هتموّت أخو مراتي وصاحبتهما الأنتيم ورا بعض. أنا ليا عندك جميلة، اعتبرها قضيت.

الفصل السادس عشر

من فرط توتره، لم يتتبه هادي للمطب، فأخذه بسرعة جعلت سالم يرتفع عن مقعده، ثم يسقط عليه ثانية، فزاد أئينه، وقال بغضب وهو يضغط على جرحه:

- يا ابن الغبية!

- «Pardon, pardon»، خلاص، قربنا نوصل.

سلك هادي الطريق البري لمنزله، فصفاً السيارة أمام الباب، وهم أن ينزل سالم من السيارة، لكنه رفض أن يلمسه، ونهض عن مقعده معتمداً على نفسه.

أدار هادي المفتاح في الباب بتوتر لم يشعر بمثله من قبل، ثم استدار ليدعو سالم إلى الدخول، لكنه ارتطم فيه فألمه أكثر.

سبه سالم سبة بذئثة، وطلب منه أن يبتعد عنه مترين حتى يجد مقعداً يستريح عليه من دون أي حوادث أخرى.

جلس على أقرب أريكة، وفتح سحاب البدلة البيضاء، وخلع نصفها العلوي الذي تخضب بدمائه.

حاول أن يخلع قميصه القطني الأسود، فتأوّه وهو يمد ذراعيه إلى أعلى.

همّ هادي أن يعينه على خلع ملابسه، لكن سالم دفع يديه بعيداً عن جسده وهو يقول:

- ، بينك!

- «D'accord». هجّز الحاجة.

انسلّ هادي إلى غرفته، وأخرج أدواته وعقمها بالكحول، ثم أخذ معه قبضة من اللبان وزجاجة الكحول، رصّها على الطاولة الأقرب إلى الأريكة وهو يقول:

- اشرب!

- برضو بعينك!

- ما أنا مش دكتور تخدير. لازم حاجة تقلل الوجع.

- يا عم اخلص!

فتح هادي زجاجة الكحول، ارتشف منها حتى يقلل توتره، ثم سكب بعضها على جرح سالم، فشعر بحرق يسّخ جلده، ولكنه لم يعبر عن ألمه، اكتفى بأن كوّر قبضته وضرب الطاولة.

أخذ نفساً عميقاً وأخرج سجائره، فقال هادي:

- التدخين هيبوظ الدنيا. استنى لحد ما أخلص و...

- اشتغل وإنّ ساكت.

خضع هادي لنبرة صديقه الأمر، ورش المخدر الموضعي، وغسل يديه بالكحول مرة أخرى، ثم وضع القفازين الطبيين، وأعد الكماشة المعقمة لتفقد الرصاصة وإخراجها.

- تحب تسمع إيه؟

- صمتك.

- مع إن الكلام في الوقت ده هو أفضل حل لتشتيت عقلك عن الألم.

ضرب سالم الأرض بكعبه من فرط الألم حين تعمقت الكماشة بجرحه لتخرج الرصاصة، لكنه لم يصدر أي صوت.
أخرج هادي الرصاصة، ثم أراه إياها وألقاها بالطبق الفارغ وهو يقول:

- على فكرة. أنا عاملك مفاجأة. عندك صورة لمامتك؟

- خش في الموضوع.

أجابه وهو يُعد الإبرة والخيط ليُغلق جرحه.

- صحيح إنت ما تكلمتش عنها قدام الدكتورة، بس الموضوع مش محتاج دكتوراه في علم النفس علشان أفهم هي أد إيه غالية عليك.

بدأ يحرك خيطه وإبرته بلحم سالم، فضغط الأخير على ضروسه، وغرس أظافره في مسند الأريكة.

استأنف هادي كلامه بنبرة مرحة:

- عايز أعمل لمامتك تمثال؟

- زي اللي كنت عايز تعملهولي وإحنا عيال!

توقف هادي عن خياطة الجرح، ثم نظر إلى سالم بضيق وقال:

- أنا حلفتك مليون مرة إن نيتي كانت بريئة.

- نيتك بريئة وأنا ملط؟

- لا حياء في الفن.

استأنف الخياطة بحرفية، ثم قال وقد فقدت نبرته مرحها:

- عامةً أنا كنت فاكراً إنها حاجة هتبسطك. بس إنت حر.

انتهى من تشبيك غرزهِ، وأغلق جرح صديقه.

ألقى الأدوات المملوطة بالدماء في طبق مليء بالكحول، وغير قفازهِ، الملوث بآخر نظيف، وهمّ أن يضمّد له جرحه بملامح تشي بغضبه وكسرة خاطره.

سأله سالم وهو يلهث ويمسح عرقه بقميصه الملقى بجواره، وينفث دخانه:

- تعرف تعمل تماثيل بالفخار؟

انفجرت أسارير هادي، ثم قال:

- أنا أعرف أعمل أي حاجة نفسك فيها.

لملم أدواته وترك سالم يدخن سيجارته الثانية، بينما أتى إليه بدفتر الرسم والأقلام الرصاص والممحاة.

جلس بجواره وسأله بحماس:

- احكي لي، شكلها كان عامل إزاي.

صمت سالم مفكراً وهو ينفث دخانه صوب النافذة، حتى قال:

- كانت ست.

- متأكد إن أمك كانت ست؟

- هنخيب ولا إيه؟

- مش قصدي والله، بس ما أكيد كانت ست. اوصف لي ملامحها.

- كانت شبه حبيبة. شبه نفرتيتي.

بدأ هادي يرسم الإسكتش المبدئي وهو ينصت لكل تفصيـلة يقولها سالم.

- عيونها واسعة، ومكحلة، ومريحة. بُقها كان مليون، وشفافيتها كبيرة، وعندها غمازتين، و...

صمت قليلاً متنهّداً وبدأ يفكر فيها، فنظر إليه هادي والقلم بيده يستعجله لمزيد من التفاصيل:

- وإيه؟

- وما كانتش هتبقى مبسوطـة لو شافتنـي كده دلوقتي.

- معلش، جت سليمة.

- تفتكر؟

- لو لحقت تقتل صاحبة مراتك قبل ما تبلغ عننا.

- عيشة مش هتفتح بُقها.

- واثق فيها ليه؟

- واثق في نفسي. أنا أعرف أسكتها.

- هو إنت فيه حاجة بينك وبينها يا سالم؟

فهم سالم مصدر انزعاج هادي الذي بان في صوته ونظراته، فنفت دخانه وقال:

- كمّل رسم.

قلب كراسة الرسم ليريه ما رسمه:

- أنا ماشي صح؟

كانت المرة الأولى منذ عشرين عاماً أن يرى أمه بعينه لا بقلبه،

فقد أجاد هادي تقاسيم وجهها الحسن كما حفظه سالم بين ثنايا قلبه.

أمسك الرسم وتحسسه كأنه يربت على خد أمه الراحلة، فابتسم هادي مختلاً بمهارته وقال:

- هبقى أبعثلك التمثال لما يخلص.
- نطق سالم جملة لم يتوقعها هادي قط:
- عايز أشوفك وانت بتنحته.

* * *

رافقه إلى ورشته الفنية التي تحتل نصف الطابق الأول، فتأمل عجلة الفخار ومواد البرونز والجير والكثير من الأدوات التي لا يفهمونها.

غاب هادي، ثم نزل ومعه زجاجة النبيذ الأحمر وكأسان، وقد خلع البدلة البيضاء التي ينفذ بها جرائمه، ونزل بسروال منزلي قصير أسود تنتشر به القلوب الحمراء من دون أن يضع قميصاً. راقبه سالم بنظرات تملأها الريبة وهو يسحب مريولاً بلاستيكيًا أسود، وسأله:

- لازم يعني؟

- أنا كده لابس علشان خاطرك. أنا بيمشي في ورشتي زي ما آدم كان بيمشي في الجنة.

لم يرتح سالم لفكرة أن يكون كلاهما عاري الصدر، فسحب قميصه الأسود الملطخ بالدماء ووضع عليه، وترك هادي يجلس أمامه ويدير عجلة الفخار بعد أن وضع عليها القطعة التي سيشكلها. أخذ يراقب المشهد بابتسامة يملأها الشجن والحنين إلى حب أنهاه اليتيم.

طفق هادي يدير العَجلة ويعانق العجين الطيني براحتيه ويضغطه
بأنامله، وسالم ينفث دخانه مفكرًا في أمه.

أكانت لتفخر به إذا رأت يديه الملوّثين بالدماء؟
لَمْ ظلت تلك الفكرة تلاحقه الآن؟

لو تلك الرصاصة التي أخرجها هادي من جانبه أصابت قلبه
وصارت تذكرته للقاء أمه، أكانت ستعاقبه وترحب به لانضمامه إلى
عالمها، أم كانت لتتبرأ منه؟

لم يشعر سالم بمرور الساعات وهو منشغل بتلك الأفكار
المحبطة، بينما يراقب قسّمات وجه أمه تتبين أمامه وتتجلى رويدًا
رويدًا، حتى انتهى التمثال بلمسة سحرية أضافها هادي.

وضع فوق رأسها تاج الشمس الفرعوني، وألبسها عقدًا يتوسطه
جعران لتصبح إلهة فرعونية آيةً في الجمال عن حق.

أدخل هادي تحفته الفنية في الفرن لتتشف وتتماسك، وحين
أخرجها وأعطّاها لسالم رأى على وجهه شيئًا لم يره طيلة العقدین
اللذين عمل فيهما معه.

ابتسامة أضاءت عينيه.

- مبسوط؟

تحسس سالم تفاصيل التمثال، ثم قال بالابتسامة نفسها:

- أنا هستقيل.

نهض عن الكرسي وخرج من الورشة، فتبعه هادي وهو يسأله:

- هستقيل من إيه يا سالم؟

- من كل حاجة. هات مفتاح الشيروكي أنا هجرها.

وقفاً عند باب البيت، أعطاه هادي المفتاح، وقال بجدية:

- أنت أكيد ما تقصده إنك تستقيل من شغلنا، صح؟

- شكراً على الهدية.

خرج من البيت يحمل التمثال، ثم أغلق الباب خلفه.

وقف هادي يحدق صوب الباب، كأنه ما زال يحدق إلى سالم.

شعر بألم في صدره، وبدأ يسعل بقوة اهتزت لها أضلعه، حتى

أحس بطعم مُر بفمه، وحريق يشتعل في رئتيه، وسوائل ترتفع في عنقه.

غطى فمه بكفه وهو يسعل، ثم نظر إلى راحته ليجد أنه قد تناثر

مع لعبه سائل قاني اللون.

دم!



طلع قرن الشمس، ولكن عجز ضوءها عن التمدد في فضاء

السماء الرمادية.

ذلك النور الضعيف أعلن عن صباح لن يكون مشمساً أو مضيئاً،

لكن سالم لم يبال، فهو لم يُعد يشعر بالشمس أو دفئها على أي حال.

وصل إلى سيارته قبل أن ينسل إلى عمارته، وسحب قميصاً وسترة

قطنية يتركهما للمواقف المشابهة.

استبدلها بملابسه التي بقعتها دماء جرحه، ثم صعد إلى شقته.

كانت شوشو جالسة في المطبخ أمريكي الطراز المفتوح على

الصالة وهي تقرر أظافرها بتوتر، حتى سمعت مفتاحه يدار بالباب،

فتنبهت ووقفت حين رآته يدخل.

نظر صوبها بطرف عينه، ثم تجاهل وجودها، واتجه إلى غرفة نومه ممسكاً بتمثال أمه.

وقفت لتحول بينه وبين استكمال طريقه إلى الغرفة، وسألته:

- ما قتلتيش ليه؟

- مش فاهم.

- إنت وصاحبك هادي مش شغالين في المخدرات، ده لا شكل ولا

طريقة ديلرز. إنتو بتشتغلوا الصالح حد بعتمكم تقتلوا منير وصحابه.

- هو الكينج محمد منير اتقتل؟

- يعني أنا كده هصدق إنك ما كنتش موجود النهارده ومنعت

صاحبك من إنه يقتلني؟ أنا والله مش بأررك علشان أبلغ عنك.

بس أنا محتاجاك في شغل.

- محتاجة استشارة في البرمجة؟

- لأ وإنت الصادق، محتاجة استشارة في الإجرام. أنا عايزاك

تقتل جوزي.

- إنتي تقريباً متلخبطة بيني وبين حد ثاني.

- يعني أنا لو شديت هدومك دي دلوقتي مش هلاقي جرح مكان

الطلقة اللي خدتها في بيت منير؟

انكمشت ابتسامته الباردة، وتحولت إلى نظرات مُهددة.

أدركت شوشو أنها نالت منه، فابتسمت ابتسامة مغرية، وقالت:

- أنا ستر وغطا عليك. مش هتنقذ حياتي وأنا أفضح سرك. أنا

بس مش عايزة منك غير الخدمة دي، وهدفلك بالطريقة اللي

تعوزها.

تسللت أصابعها من أسفل قميصه، ووضعت راحتها على عضلات بطنه، واقتربت هامسة في أذنه:
- ده غير المحبة.

تعلقت عينا سالم بغرفة الضيوف التي صارت ملجأً لشوشو.
وضع تمثال أمه على رف الكتب المقابل له، ثم أجابها:
- نكمل كلامنا جوه؟

عضت على شفتيها بابتسامة مثيرة، وقالت ببحة صوتها المغرية:
- أنا برضو شايفة كده.
دخلت غرفة الضيوف.

ولجتها شوشو، يتبعها سالم الذي أغلق الباب وأوصده بالمفتاح من الداخل، وقبل أن تستدير شوشو لتحدثه، كان قد جذبها من شعرها ودفس وجهها صوب الفراش.

أصيبت بالهلع، حاولت أن ترفع رأسها، ولكن فوهة مسدسه الكاتم للصوت كانت قد التصقت بمؤخرة رأسها، فقال:

- أنا ما قتلتكيش علشان مراتي بتعتبرك أختها. بس لما تكوني مستعدة تخونيهامع جوزها في بيتها علشان يقضيلك مصلحة، يبقى تبكيكي يومين أحسن ما تغدري بيها وتبكي على حالها العمر كله.

تكلمت كلامًا غير مفهوم بسبب وجهها الذي دُفَس بالمرتبة من وطأة ضغط سالم على رأسها بمسدسه، فجاهدت حتى رفعت رأسها وقالت:

- حبيبة هي صاحبتى الوحيدة، أنا عمري ما أفكر أخونها، بس أنا

في وضع مخليني يا قاتل يا مقتول. لو رجعت لجوزي هيقتلني،
ومهما فضلت مستخبية هيلاقيني. إنت مش فاهم يعني إيه
واحدة عايشة مع راجل ما يعرفش لغة غير الضرب. بيشدها
من حضن ابنها في عز الليل علشان يضربها قدامه. محدش
بيحميني، لا قانون ولا عيلة ولا صحاب، لحد ما بقيت مدمنة
بسبب العنف والرعب اللي معيَّشني فيه كل يوم.
أرجعته التفاصيل التي سردها إلى طفولته، إلى الليالي التي اعتاد
الاستيقاظ فيها على تعنيف أبيه لأمه أمامه.
رفع مسدسه عن رأسها، وحررها من قبضته، ثم قال:
- فاهم يعني إيه زوج معندوش رحمة. وفاهم برضو يعني إيه
زوجة خاينة.
- هو السبب. هو لو كان حنين عليا ما كنتش ضعفت قدام أي
حد يبل ريقى بكلمة حلوة ولا لمسة حنية.
اقتربت منه على ركبتها، وجذبت يده التي تحمل المسدس،
وألصقت فوهته بجبينها وهي تبكي:
- لو مش هتقذني، اقتلني. أموت برصاصة رحمة، ولا إني أسيبه
يعذبني تاني.

الفصل السابع عشر

لطالما تساءل هادي لماذا يتخذ الناس من اللون الأبيض رمزًا إلى النقاء والطهارة؟

لا يحب هذا اللون الممل المدعي، ولولا أنه يليق ببشرته ويبرز عينيه، ما كان ارتداه أبدًا.

يرجع مقتته للأبيض لأنه كان لون حوائط الماخور الذي تربي فيه، ولون العنبر الذي أقام فيه بدار الأيتام، ولون غرفته بمنزل بسيوني، وكلها مساكن لا يربط بينها سوى ما عاشه من أسى وجفاء ووحدة.

الأبيض مثله مثل الأشخاص الذين مروا بحياته، متظاهرين وخدّاعين، فهذا البياض الناصع لا يغطي سوى حمرة الطوب ورمادية الأسمنت، ويدهنهما بنقاء مخادع وطهارة كاذبة.

بما أنه الآن في وضع يتطلب كثيرًا من الصدق والشفافية، حاول أن يتجنب أن يقع نظره على كل ما هو أبيض بعبادة ذلك الطبيب الذي طلب منه عشرات الفحوصات في الأيام القليلة المنصرمة. هرب بنظره من الأثاث الأبيض والسقف والحوائط والزهور

والمزهرية، وكذلك النافذة. نعم، جميعها دُھنت بالأبيض، كأن ذلك الطبيب يود أن يعطي لمرضاه شعورًا بأنهم ماتوا ودخلوا الفردوس الأبيض.

نظر هادي من تلك النافذة المستطيلة التي تتوسط الحائط الكئيب، فرأى حديقة خضراء ممتدة. لا بأس باللون الأخضر.

لفت سمعه صوت موسيقى «La vie en rose»، كانت موسيقى فحسب، بلا غناء، وبلا كلمات، وبلا صوت إيديت بياف، مما زاد المشهد مللاً، وجعل حركة عقارب الساعة وكل ما حوله بطيئاً رتيباً. راقب المرضى الجالسين في الحديقة، خصوصاً تلك العجوز التي بدأت تشبه المقعد الخشبي الذي طالت جلستها عليه في صمتٍ قاتل. قال الطبيب وهو يخلع نظارته، حتى هذه إطارها أبيض، كأن رداءه لا يكفي:

- فيه حد مع حضرتك بره؟

- هي التحاليل وحشة أوي كده؟

هز الراعي الرسمي للون الأبيض رأسه بابتسامة مدعية، وتكلم بسرعة من دون تمهل:

- سبب الكُحة اللي بدم دي ورم ثانوي في الرئة، بالإضافة لسرطان الخلايا الكبدية اللي تسللت للحجاب الحاجز.

نظر هادي إلى السماء فرأى السحب البيضاء، حسناً، لا بأس ببياض السحب، فهي الشيء الصادق الوحيد بتلك اللوحة البيضاء المختلفة. سأل طبيبه من دون أن يُبعد عينيه عن السماء:

- سرطان؟

- للأسف، التحاليل كلها بتأكد إنك مصاب بسرطان في الكبد، خلاياه وصلت للرئة وشكلت هناك سرطان ثانوي. ما خبيش عليك، الورم في مرحلة متأخرة جدًا، وجسمك مش هيقدر يستحمله لفترة طويلة، في تقديري ست شهور... سنة بالكثير. اتكأ هادي على معصمه، وفكر في كلمات طبيبه للحظات وهو ينظر إلى السحب البيضاء التي بدأت تتحرك. حتى السحب ملت من بياض الغرفة المطلة عليها.

ابتسم هادي، ثم لم يتمالك نفسه. حاول كبته، لكنها فرت منه وانطلقت من بين شفتيه الورديتين.

ضحك، فقهقه، ثم هربت الدموع من عينيه من فرط ضحكه الهستيري، فارتبك الطبيب وظن أنه يجب أن يستدعي طبيبًا نفسيًا:

- مستر هادي، تحب نتواصل مع حد من أسرتك؟

رفع هادي يده معتذرًا وهو يمسح دموعه، ثم وضع:

- عارف إيديت بياف اللي إنت مشغل موسيقتها دي ماتت إزاي؟

هز الطبيب المرتبك رأسه نفيًا كما توقع هادي، فأكمل ضاحكًا:

- ماتت بورم سرطان في الكبد بعد عيد ميلادها السبعة وأربعين

على طول. وأنا هتم سبعة وأربعين سنة كمان خمس شهور.

ضرب هادي كفاً بكف، وانفجر ضاحكًا مرة أخرى.

لم يكن يمزح حين قال إن روح إيديت بياف بُعثت في جسده،

وقد حان الوقت ليكمل مسيرتها ويُبعث هو في جسد آخر، لكن ليس

الآن، ليس قبل ستة أشهر.



هام على وجهه بسيارته الكلاسيكية البيضاء.

لَمْ اشترها بيضاء إن كان يمقت ذلك اللون إلى هذا الحد؟
لعله مثل كل من حوله، مدَّع.

سيطرت عليه تلك الفكرة حتى وصل إلى وسط البلد، في وضح
النهار، وأعطى سيارته لمسؤول الجراج التابع لفندق «النيل ريتز
كارلتون».

وطئ الردهة حيث ينساب صوت موسيقى الهارب من بين أصابع
عازفته ذات الجمال الأناضولي.

داعبت أنفه رائحة باقات الزهور المبهجة التي تتوسط الصالة
الرخامية.

صعد السلم متكئاً على درابزينه الذهبي، حتى وصل إلى الدور
الثاني حيث وجهته المنشودة.

دخل حانة السيجار الإيطالية «Bar'Oro» حيث استقبله البارمان
الأربعيني الأصلع، ذو السترة القرمزية التي تتداخل بها خيوط ذهبية.
- «Good afternoon».

قالها البارمان بكياسة، فأجابه هادي بابتسامة مرهقة، وتفحَّص
المكان بنظره.

كانت الكراسي من قطيفة تتدرج ألوانها بين البنفسجي والفسقي،
وأرضيته من الخشب الداكن اللامع، وحوائطه زجاج شفاف يطل على
النيل من مستوى قريب، كأنك تجلس في قلب النهر الذي انعكست
عليه شمس الظهيرة، فنثرت بريقها على صفحته المتكسرة مع حركة
القوارب الشراعية.

جلس على البار يتأمل خزانة الكحوليات التي يقف البارمان أمامها، وقال:

- «Chivas Regal 18» في كوباية «old fashioned» .
- حالاً .

تحرك البارمان القصير بين زجاجاته ليحضر المطلوب، بينما نظر هادي ثانية ليلاحظ مزيداً من التفاصيل في البار .
رأى على أقصى يمينه، غرفة زجاجية مستطيلة عامرة بالسيجار المرصوص بعناية، وعلى أقصى يساره بيانو هجرته عازفته .
أدرك في هذه اللحظة أنه جرب كل شيء بحياته، الحلال والحرام، والمباح والممنوع، عدا شيئاً واحداً، التدخين .
قرر اليوم أن يفقد رثته عذريتها، فأشار إلى البارمان قائلاً:
- «s'il vous plaît» .

أتاه واضعاً أمامه كوب الويسكي على الرخامة .
- تحت أمرك .

- عايز سيجار .
- حضرتك بتفضل أنهي نوع؟
- ابهرني إنت .
- حالاً .

غاب البارمان عن نظره للحظات، ثم عاد ومعه سيجار بني داكن ملفوف بالسلفوفان .

فتح اللفافة، وأخرج السيجار، وحمله بأنامله بحذر ليريه لهادي كأنه يحمل ياقوتة نادرة .

- ده «Montecristo Petit Edmundo» مقصوص «parejo»، مناسب
للتجربة الأولى، حجم أصغر بس بنفس جودة السيجار الكوبي
الأصلي.

أمسك قطعة السيجار التي تشبه المقصلة الصغيرة، وبها فوهة تكفي
لدخول طرف السيجار، حيث غطاؤه الذي يسكن تحته النيكوتين.
قص الغطاء وفرّش الطرف بأصابعه ليزيح أي وريقات تناثرت
بسبب القص، ثم ناول السيجار لهادي ومعه علبة كبريت خشب الأرض
الطويل المخصص لذلك النوع من الدخان.
قلّد هادي البارمان، وأمسك السيجار بأصابعه الأربع، وهمّ أن
يضع السيجار في فمه، لكن الأخير أوقفه:

- بلّ الطرف علشان ما يلزقش في بُقك ويفرط.
أخذ هادي رشفة من الماء ليبلل شفّتيه بلسانه، وكذلك طرف
السيجار، ثم وضعه في فمه، بينما أشعل له البارمان عود الثقاب وقربه
من الطرف الآخر من السيجار، ولفه ١٨٠ درجة، حتى أمسكت به
الشرارة الحمراء التي أطفأها بأنفاسه، ثم لملم السلوفان وباقي العلبة
وهو ينصح هادي:

- ما تسحبش الدخان على صدر حضرتك مرة واحدة.
سحب دخانه الأول من سيجاره ذي الأربعة إنشات.
غزت شفّتيه ولسانه لسعة غريبة، كأن بسيجاره بهارًا حارًّا داعب
حواسه، وتبعه مذاق استفز مجسات التذوق عنده، لكنه شعر بكاريزما
هوليوودية وهو ينفث دخانه باحترافية مع ارتشافه للويسكي، فأحس
نفسه أحد بارونات فرنسا.

سمع خطوات تمر من خلفه والبارمان يصب له كأسه الثالثة،
فالتفت ليرى غيداء شقراء، خَمْن من ملامحها وثقل لكتتها الإنجليزية
وهي تحيي البارمان أنها روسية الأصل.

رَنَّ وَقَعَ كعبها وهي تتجه نحو البيانو لتجلس على كرسيه المستطيل
القطيفة، وتبدأ تداعب أصابعه بأناملها وتعزف.

أيمكن للقدر أن يكون أكثر ابتذالاً لتبدأ الروسية بعزف نفس
المقطوعة الموسيقية التي سمعها في عيادة الطبيب منذ قليل؟
ضحك هادي كأن شبحاً ألقى عليه نكتة. لا شك أن البارمان ظنه
مبتدئاً بالسُّكر ليضحك بهذه القوة بعد ثالث كأس فقط.

لا بأس، رأي البارمان في قدرة تحمله على الكحول كان آخر ما
يمكن أن يشغل بال قاتل مأجور سيموت بالسرطان بعد ستة أشهر.
يعلم أن الموت هو الحقيقة الوحيدة بهذا الكون، ولكن أهذه ميتة
تليق بقاتل محترف؟

كيف لهادي الذي عاش حياة عاثت بالمغامرات والدراما والإثارة
والأحداث غير المتوقعة، أن يموت هزياً ضعيفاً مريضاً في فراشه
كأي موظف متقاعد؟

ألا يستحق ميتة أسطورية تليق بمولده، ميتة ملحمية تثير
ضجة بالمجتمع، وتتناولها الأخبار العالمية، وتسجّل في التراث
الإنساني؟

تنهد وهو ينهي كأسه الثالثة في هذه الحانة الفارغة، فَمَن سيأتي
ليشمل يوم الثلاثاء الساعة الثانية ظهراً؟
- مش التدخين بيدمر الصحة برضو؟

أخيراً أنزل هادي عينيه عن عازفة البيانو التي ظنت أنه يغازلها، ونظر إلى يمينه حيث أتت تلك الجملة الساخرة. كان قائلها سالم الذي وقف بجواره مستعجباً السيجار الذي بين أصابعه. نفث هادي دخانه، وابتسم لصديقه متسائلاً:

- بتعمل إيه هنا؟

- مش إنت لوحدك اللي بتعرف تراقب شركاءك. معايا حكاية.

* * *

نزلا إلى جراج الفندق وما زال هادي متشبهاً بسيجاره الذي يدخنه بتؤدة.

وصلا إلى سيارة هادي، فهمَّ أن يفتح بابها، لكن سالم استوقفه:

- المرة دي أنا اللي هوصلك.

- إسمعني؟

- الموضوع اللي عايزك فيه، في العربية.

تبع صاحبه بفضول حتى سيارته الرمادية، فتح سالم بابها ليُري هادي من تجلس بداخلها.

كانت شوشو تدخن سيجارتها الثالثة منذ أن صف سالم سيارته بالجراج، وهي تقرض أظافرها بتوتر في انتظار عودته.

* * *

الأمر لا يحتاج إلى خبير فحاسة ليؤكد أن ملامح هادي لا تعبر عن شيء سوى الاشمئزاز والتقرُّز، من قذارة سيارة سالم التي تغزوها الزجاجات البلاستيكية، وأغلفة الحلوى الخالية، والمناديل المتناثرة هنا وهناك، والأتربة التي اتخذت المساند والزوايا مسكناً.

لكن من الجلي أن تلك القاذورات لم تزعج أياً من سالم الذي يقود ببطء، ولا شوشو التي لم تتوقف عن الثرثرة:

- هسهلكم الأمور كلها. هديكم نسخة من المفاتيح، وهقولكم مكانه بالطبط. أعتقد لما يكون حد قريب منه زيي هو اللي عايز يقتله الأمور هتبقى...

قاطعها هادي المنكمش بمقعده، كأن وسخ السيارة سيهاجمه:
- «Pardon» يا مدام شوشو، بس طول ما أنا قاعد في القذارة دي مش هعرف أركز في أي حاجة بتقوليلها. وإنت يا سالم، ممكن تشد شوية علشان سواقة المعاشات دي هتنقطني؟

* * *

صحيح أن هادي قاتل مأجور، إلا أنه يجيد آداب الضيافة. أعد الطاولة والمقاعد الخشبية الخارجية المطلة على النيل، ووضع عليها طبق الفاكهة وشتى أنواع المخبوزات الفرنسية وإبريق الشاي والسكر والنعناع وزجاجة النبيذ الأحمر وطبق الجبن. جلس مع ضيفيه، صبّ النبيذ في كأس شوشو، بينما سكب الشاي الإنجليزي الأصلي وأضاف إليه وريقات النعناع النضرة وأعطاه لسالم. حين اطمأن أن ما من شيء ينقص ضيفيه، عقد أصابعه متسائلاً:
- دلوقتي أقدر أسمعكم.
- أنا عايزة أقتل جوزي.
- ليه؟

- علشان بيئذيني.

كرر هادي سؤاله وهو يصب لنفسه كأس النبيذ:

- ليه؟

قاطعهما سالم ليوضح الأمور ويختصرها:

- عيشة بتخون جوزها، فهو عايز يقتلها هي كمان.

- أنا اسمي شوشو مش عيشة.

مطّ هادي شفتيه، ثم سأل سالم بضيق:

- وإنت هتقتلها مقابل إيه يا مسيو سالم؟

أسرعت شوشو مجيبة:

- مقابل إني ما بلغش عنكم إنتو الاتنين و...

لم تكّد تكمل جملتها حتى اخترق سمعها رصاصة انطلقت من فوهة مسدس هادي على مسافة مدروسة باحترافية لتكون قريبة من أذنها، لكن من دون أن تفقدها سمعها.

سمعت طنيناً قاتلاً عطل أذنيها لدقائق.

أعاد هادي مسدسه إلى أسفل الطاولة حيث مخبأه الدائم، ورشف رشفة أخرى من كأسه، بينما ضغطت شوشو على أذنيها وهي تصرخ من شدة الألم.

عاب هادي صاحبه:

- جاييلي زانية تهددني في بيتي؟

- خُلقك بقى ضيق أوي.

- بينك وبينها إيه؟

- حبيبة. هتتقهر لو حصل لصاحبته الوحيدة حاجة.

- ذوق مراتك في الناس بشع.

- عارف.

ما زالت شوشو تن من ألم أذنيها، فصاح فيها هادي:

- ما تأفوريش.

صاحت فيه شوشو:

- دي مش طريقة شغل، سالم قالي إنكم بروفيشنال.

- والبروفيشنال ما قالكيش إنه قرر يطلع معاش مبكر؟

- يعني إيه؟ يعني إنت يا سالم مش هتساعدني. أومال جاييني

هنا ليه؟ عايزين تستفردوا بيا وتقتلونني.

قال هادي:

- وغلاوتك ده اللي نفسي أعمله يا مدام شوشو.

أشار سالم إليها بأن تصمت، ثم التفت إلى هادي الذي يمضغ

الجبن وهمس إليه:

- أنا جاييها خدمة ليك.

- وإنت من إمتى بتخدمني ولا مهتم بيا من أساسه؟

- فكك من ثقل الحريم ده. عيشة مش هتحكي حاجة لا للبوليس

ولا لمراتي لو قتلنا جوزها، ومستعدة تدفع اللي نطلبه. وإنت

سلطان غاصب عليك تشتغل ببلاش. كده كلنا كسبانين.

ظل هادي ينظر إلى سالم بهدوء وهو يمضغ الجبن ويرتشف

النبذ حتى فرغ من كأسه، وبدأت ملامح الغضب تسيطر عليه

وهو يقول:

- هي الطلقة جت في جنبك ولا دماغك؟

زفر سالم وقد تنبأ بعاصفة غضب هادي الذي أخذ يشير إلى

شوشو باستنكار وهو يصيح:

- دي؟ دي تهددك وتخليك تغير قرارك؟ بعد ما قلت هستقيل بقيت مستعد تقتل علشان دي؟
- أنا مش هقتل. إنت اللي هتنفذ لوحدك.
- كمان؟! طب أنا مش هنفذ حاجة يا سالم، يا سيدي دي صاحبة مراتك أنا مال أمي!
- تدخلت شوشو في محاولة لتهدئة الأجواء:
- ليه كده بس يا أستاذ هادي، ده أنا حتى...
- إنتي تخرسي خالص أحسن أنا فاضلي تكة وهقوم أفرغ خزن مسدساتي كلها في راسك المنعكشة دي.
- صب هادي لنفسه مزيداً من النبيذ، بينما تنهد سالم ببرود وقال لعيشة:
- روعي يا عيشة اتفرجي على أبو قردان اللي هناك ده شوية.
- أبو قردان؟
- غوري في داهية دلوقتي.
- نهضت المنبوذة، وتركت الصديقين بمفردهما.
- استأنف هادي الشرب، بينما سأله سالم:
- فيه إيه؟
- فيه إني مش موافق على إنك تبطل شغل.
- إنت شاغل نفسك بالحكاية دي ليه؟
- لأن أنا اللي اخترتك من ستة وعشرين سنة وعلمتك كل حاجة تعرفها دلوقتي، يعني أنا أستاذك قبل ما أكون شريكك. ولو إنت مش شايف ده يبقى خد صاحبة المدام وحل مشاكلك الزوجية بعيد عني.

- لو شرحتلك هتتبط؟

- ما تجرّب.

تنهد سالم ونظر صوب النيل، ثم قال:

- أنا خايف على مراتي وابني.

جحظت عينا هادي، ونظر إلى صاحبه باندهاش، ثم كرر كلمته:

- خايف؟

هز سالم رأسه إيجاباً، ثم أردف:

- لما اتضربت بالنار فكرت هيحصلهم إيه لو مُت؟ إنت شُفت

حببية مقهورة على أخوها. مش رجولة إني أعيشها الحالة دي

وأخلي ولادي يتربوا أيتام زينا. أنا كنت بشتغل كل ده ليه؟

مش علشان الفلوس؟ أديني معايا اللي يكفيني ويكفي ولادي

وأولاد ولادي. ليه أكمل؟

- يعني إنت شغال معايا السنين دي كلها علشان الفلوس وبس

يا سالم؟ شوف يا أخي، وأنا اللي كنت فاكر إننا أصحاب.

- ما بلاش نكدب على نفسنا يا هادي. اللي زينا ملهمش لا

صاحب ولا عزيز ولا غالي.

- وإشمعنى حبية وأدهم هم اللي غاليين عليك يا سالم؟

- إنت هتقارن نفسك بمراتي وابني؟

نظر إليه بخيبة أمل من دون أن يعلق.

سعل بقوة مَرَضِيَّة، فسحب منديلاً من جيبيه سريعاً وغطى به فمه

حتى لا تتناثر الدماء ويلاحظها سالم.

ارتشف المياه حتى هدأ سعاله، ثم نظم أنفاسه ليكمل حديثه بصوت مرهق:

- ميرسي يا سيدي. حتى لو كنت بالنسبة لك مجرد واحد اشتغلت معاه، فأنا هفضل أعتبرك صاحبي وشريكي. ولو العشرة ملهاش معنى بالنسبة لك، فهي هتفضل بالنسبة لي أقوى من صلة الدم.

- كبرت الموضوع أوي.

- إنت اللي تفهته أوي. على كل حال أنا هعملك اللي إنت عايزه. هقتلك جوزها علشان ما تفضحكش قدام مراتك، وتفضل قدامها الزوج الطاهر البريء. بس خلّي بالك، الموضوع مش هيخلص بالبساطة دي.

- إسمعني؟

- سلطان زيك، لا بيهمة عشرة ولا صحوية، ومش هيسمحلك تبطلّ شغل معاه إلا لو هو اللي مستغني عن خدماتك.

- ما تخافش عليا.

- لأ، أخاف. وإنت كمان لازم تخاف على نفسك وعلى اللي يخضوك. لو عاديت المايسترو مش هيخلص عليك بس، ده هيخلع جذرك من الأرض.

الفصل الثامن عشر

بلغ حملها شهره الرابع، فأخبرها الطبيب بأنها حامل في توأمين. أسعدها الخبر، ولكن لأن التوأمين ذكران، تكدر صفو سالم وتلاشى أمله في أن تكون له ابنة تحمل جمال أمه.

جذب كرسي الطاولة المقابلة لملعب كرة القدم بنادي «المعادي الرياضي» كي يتابعا أدهم وهو يقوم بتمارين الإحماء على النجيلة الصناعية، وأخبر حبيبة وهي تجلس على الكرسي بأنه لن يستسلم حتى تحمل في بنت.

جلست حبيبة بثوب صيفي مبهج، عليه زهور زرقاء بهية، وقالت:
- بيبي رابع يا سالم! ده أنا مش عارفة هلاحق على تربية ثلاثة إزاي.

- حتى لو مخلفة دسته، هتعرفي تربيهم كويس. المهم تجييلنا بنت.

- إيه ده يا سالم؟ إنت بتقولي كلام حلو؟

- جييلي إنتي بس بنت وأنا هعملك أي حاجة نفسك فيها.

ودت حبيبة أن تستأنف التعبير عن سعادتها بمجاملات زوجها ومزاجه الرائق هذا الصباح، لكن قاطعها وقوف سلطان عند طرف الطاولة بالقميص المستردة الوهاج، والسروال الوردي الفاقع، يقول بابتسامة مبتذلة:

- جوز أنارب في الغيط يا خواتي؟

التفت سالم نحو سلطان الذي كدر صفو جلستهما، وجذب كرسيًا حشره في المسافة الضيقة بين الزوجين الشابين ليجلس بينهما عنوة.

قال بالابتسامة الاجتماعية المصطنعة نفسها:

- إزيك يا مدام؟ أخبار حملك إيه؟

أجابته وهي تتحسس بطنها بشكل لا إرادي وتقول:

- الحمد لله. أسبيكم أنا بقى، إنتو أكيد عايزين تتكلموا في الشغل، وأنا كلام البرمجة ده ما بفهمهوش.

قال سلطان وهو يراقبها تأخذ حقيبتها وتنهض عن مقعدها:

- على مهلك يا ماما. يتملك على خير إن شاء الله.

انصرفت عن نظريهما، فتحولت نظرات سالم التي كانت هادئة ووديدة في أثناء حديثه مع حبيبة، إلى نظرات عدائية حادة وهو يلتفت إلى سلطان الذي قال:

- قال برمجة قال. والله ما عارف هي اللي ساذجة ولا إنت اللي

حَابِك عليها الدور مضبوط.

- أنا بَطَلْتُ.

حك سلطان ذقنه وجلس في مقعده وهو يقول:

- يعني الولّا هادي مش بيأّس عليا. لسه متصل بيه بقوله فيه طاجن صيادية مستنيك إنت وأخوك، قالي يا مايسترو سالم اعتزل، أنا قتلته استحالة يكون قرر يعتزل بدون أمري.
- أخرج من جيبه أفيونته وهمّ أن يُشعلها، لكن سالم انتشلها من بين أصابعه وخبأها في جيبه وهو يقول:
- ده لا مكان للأفيون ولا للكلام اللي بتكلمني فيه.
- تجمد سلطان في مكانه للحظة، كأنه تحول إلى تمثال إغريقي، ثم ابتسم متهكمًا وقال:
- أحيه! بقيت تخاف يا بحر؟
- اسمي سالم.
- طب يا سالم، إنت أول ما قلتلي إنك هتتجوز وتخلف قتللك اللي زينا ما ينفعش يكون له جدر يربطه في الأرض لحد ما يدبل وينشف ويروح فطيس.
- محدش يقدر يربطني.
- أو مال ناوي تهجرنا وتهجر كارك ليه؟
- علشان ده ما كانش كاري. فترة وانتهدت.
- مش إنت اللي تقرر تنتهي إمتى يا ابن حليلة.
- كوّر سالم قبضتيه، لكنه نظر حوله، أدرك أن أدهم وحبّية سيريانه إذا ارتكب أي حماقة.
- استطرد سلطان وهو يراقب ردة فعل سالم:
- كل نبضة قلبك بينبضها، وكل نفس بيدخل صدرك، ملكي يا سالم.
- إنت اللي ملكنا يا سلطان، إحنا سلاحك اللي بترفعه في وش

اللي يهوّب منك. بس خلي بالك، السلاح لو ما استعملتوش
صح طلقته ممكن ترد في صدرك.
ابتسم ونظر إليه بفخر:

- كبرت يا ولّا، وعرفت تهدد اللي قوّاك وكّساك وصرف
عليك.

- كل قرش صرفته عليا اتردلك مليون الضعف.

هز رأسه بابتسامة باردة، وقال:

- معلوم. والفيديوهات المتسجلة ليك إنت وهادي وبتبعتهو هالي
بعد كل عملية و...

- مسحتهم كلهم، أنا المبرمج يا سلطان.

- مش حلوة منك، بس تمام. كل واحد على موجه لحد ما نشوف
مركب مين فينا اللي هترسى.

نظر سلطان صوب أدهم الذي صوّب هدفه الأول بالشبكة،
وركض نحو أمه بسعادة بالغة يعانقها.

نهض سلطان ووقف خلف سالم وضغط على كتفه مودعًا إياه
بابتسامة موحية:

- ربنا يخليهملك، وما يحزنك عليهم أبدًا.

لو لم يكن سالم بمكان عام في حضور زوجته وابنه، لأردى
سلطان برصاصة الآن.

أشعل سيجارته وأطرق إلى الأرض مفكرًا.

لم يكن هادي يُهوّل الأمور حين حدثه عن حدة رد فعل سلطان.

أكان من المفترض أن يعمل حساباً لسلطان وإمكانية معارضته
لقراره بتلك الشراسة؟ ألم يحسب ثمن هذا القرار جيداً؟
تكاثفت سُحب الغضب بداخله، مَنْ يظن سلطان نفسه ليأتي
ويهدده بابنه وزوجته بتلك الطريقة؟
أوليس بشراً تنتهي حياته برصاصة ثمنها جنيهاً ككل مَنْ قتلهم
سالم؟

ظل يفكر ويحسب كل الاحتمالات، حتى انتبه لصوت شوشو،
فالتفت ليجدها تجلس بجواره برفقة حبيبة العائدة إلى مقعدها وهي
تقول لها:

- إنتي تسبيك من الدكتور بتاعك ده خالص، شكله ما يفهمش.

أنا هظبطلك مع الدكتور بتاعي.

- خليني أجرب أحجز معاه.

- هاحجزلك أنا دلوقتي.

أخرجت شوشو هاتفها، وانتظرت حتى تجيبها العيادة، وقالت:

- ألو، عيادة الدكتور رفعت نزيه؟ من فضلك عايزة أحجز ميعاد

بكرة باسم حبيبة عاطف. مضبوط. في الشهر الرابع. مناسب.

تمام، ميرسي خالص.

أغلقت هاتفها، والتفت إلى حبيبة قائلة:

- ميعادك بكرة الساعة اتناشر الضهر.

- ده ميعاد تمرين أدهم، ممكن تأخريه شوية؟

- مستحيل يا بنتي، ده الناس عليه أمم.

- طب تقدري تحضري إنتي التمرين مع أدهم لحد ما أخلص
كشف وآجيلك؟

- أنا عمري ما أتأخر عليك يا حبيبة، بس أنا مسافرة الساحل
النهارده مع سراج. ربنا هداه وقرر يصالحني.

- إنتي متأكدة من السفرية دي يا شوشو؟ بدل ما يعمل فيكي
حاجة تاني.

- هيعمل إيه أكثر من كده؟ خيلنا فيكي دلوقتي. ممكن تسيبي
أدهم في النادي وتروحي وترجعي بسرعة، الدكتور عيادته
قريبة من هنا.

التفتت حبيبة إلى سالم الغارق في أفكاره مخططاً للطرق المثالية
للتخلص من سلطان الدَّغش، وسألته وهي تلمس معصمه:

- هتقدر توصلني بكرة يا سالم؟
لم يكن منصتاً لتفاصيل ثرثرتهما النسائية، فهز رأسه موافقاً على
أي حال.

نظرت شوشو إلى ساعتها، ثم نهضت ممسكة بحقيبة يدها متعجلة
وهي تقول:

- أنا لازم أروح دلوقتي لسراج، خلي بالك من نفسك، ولو عوزتي
حاجة في أي وقت كلميني.

قبّلت صديقتها، ثم صافحت سالم وهي تبسم له، كأنها على
وشك أن تنطق قائلة: «جاري تنفيذ العملية»!

* * *

خالف هادي كل عاداته، فلم يشغل الموسيقى، ولم يفتح سقف سيارته ليترك الريح تداعب شعره الناعم. بل دخن سيجارًا اتخذه نديمًا وهو ينطلق مسارعًا الريح على أسفلت الطريق الصحراوي المؤدي إلى الساحل الشمالي.

رأى هدفه بوضوح، فأمسك هاتفه بملل إلى أن مر بجوار سيارة فارهة نافذتها مغلقة داكنة لتحجب الرؤية وتخفي هوية قائدها. ظل هادي يقود بمحاذاة السيارة يتظاهر بأنه يصور سائقها من خلف نافذته السوداء.

أنزل السائق النافذة بعصبية صائحًا:

- بتصور إيه يا حيوا...

لم ينطق حرف النون.

رفع هادي يده عن المقود، ومد ذراعه أقصى اليمين حيث الهدف. واجهه بمسدس «Kel-Tec 380» الذي لا يكبر حجمه عن الكف، ومن دون أن يمهله أعدمه رميًا بالرصاص، لتخترق رأس الوزير السابق سراج طلقة.

سقط رأسه على إطار نافذته المفتوحة، بينما أعاد هادي مسدسه وهاتفه إلى تابلوه السيارة.

ضاغف هادي سرعته وهو يراقب ما يحدث خلفه بالمرآة. ما زال المرحوم ضاغطًا على البنزين بقدميه، ولكن يديه ارتختا عن المقود، فترنحت سيارته حتى خرجت عن مسارها، وارتطمت بالحواجز الخرسانية التي تشق الطريق إلى نصفين.

نفث هادي دخان سيجاره، وأخذ أول دوران ليعود إلى القاهرة
بعد أن أنهى مهمته بخفة وسلاسة من دون شهود، من دون مخاطرة،
من دون متعة.
لقد فقدَ الفنان شغفه.



telegram @
yasmeenbook

الفصل التاسع عشر

لا توجد صورة واحدة لطفل أو لامرأة حامل.

يعلم سالم أنه ليس من الضروري أن تكون كل عيادات النساء والولادة مبتذلة، وتغزو حوائطها صور النساء الحوامل والأطفال ذوي الملامح الأوروبية الملائكية، ولكن ما لا يعلمه هو أين رأى ذلك الطبيب صاحب الملامح المألوفة من قبل!

شعره الفضي الأملس، وشاربه المبروم الذي ينزع عنه وقار الأطباء، ونظراته المنزعجة، وابتسامته الغاضبة، وعيناه الضيقتان، يكاد سالم يجزم أنه رآه آنفًا.

- قلتيلي إنك حامل في توأم يا مدام...

أجابته حبيبة رافعة عنه الحرج:

- حبيبة.

- دول أول طفلين ليكي؟

- لأ، عندي أدهم.

قال بضيق وهو يرسم ابتسامة منزعجة ويعدل نظارته على أرنبه

أنفه:

- ما كانش كفاية طفل واحد يا مدام؟ مش شايقة الشوارع بقت
زحمة إزاي؟

تذكره سالم!

لقد رأى ذلك الرجل سابقاً في عيد الأضحى بعد أن أتم ذبح
خروفه وقاد عودة إلى منزله.

* * *

وقف سالم بالإشارة بجوار سائق سيارة مرسيدس صاحب شعر
فضي أملس، ليمر أمامهما مجموعة من المراهقين الذين يتباهون
بتدخينهم للسجائر ومسكهم لزوجات الـ«ID» ذات العشرة بالمائة
من الكحول ومغازلة الفتيات المارّات بجوارهم بوقاحة.

حين فُتحت الإشارة، ظل الشباب يرقصون على أغانيهم الشعبية،
فتأفف سائق المرسيدس، وضرب بوقه بعصبية ليستعجل هؤلاء
المزعجين المتراقصين وهو يصيح من نافذته، ويسب ويلعن
العشوائيات والجهل والزحام والطبقات الفقيرة، حتى ضغط على
البنزين كأنه يهددهم بأنه سيدعسهم إن لم يسرعوا.

* * *

ابتسمت حبيبة للطبيب بإحراج، ثم نظرت إلى سالم الغارق في
ذكرى رؤية الدكتور رفعت لأول مرة.

قالت وهي تتحسس بطنها:

- شوشو صاحبتي قالتلي إن حضرتك أخطر دكتور نسا وولادة
في المعادي.

- عندها حق. بس مدام شوشو خلفت طفل واحد بس، هتعرف

تربيته كويس وتديله كل حقوقه في حياة كريمة، بس ثلاث صبيان
 كتير على البلديا مدام حبيبة.
 أجابه سالم نيابة عن زوجته:
 - عندك حق. ثلاث صبيان كتير، التوأم الجي هيكون ثلاث بنات.
 رفع الدكتور رفعت نزيه حاجبيه مستغرباً لامبالاة سالم.
 لم يرَ أملاً فيهما ولا رجاءً، فأثر التركيز على عمله طبيياً بدلاً من
 لعب دور وزير الشؤون الاجتماعية.
 - بتشتكي من إيه يا مدام؟
 - لثتي ومناخيري بينزفوا أكثر من الطبيعي، ده غير إن ألم ضهري
 اتضاعف و...
 - دي كلها أعراض طبيعية. خلينا نكشف وهديكى حقنة تقلل
 النزيف والاحتقان.

* * *

نزلا من العيادة، فقالت حبيبة وهي تركب السيارة:
 - أنا عمري ما شُفت قلة ذوق كده. أنا مش هتابع مع الحيوان
 ده تاني.
 فاجأها شعور مقيت بالقيء، فتوقفت مستندة إلى باب السيارة
 حتى تتزن، ووضعت يدها على فمها.
 أقبل سالم عليها يسألها:
 - كويسة؟
 - معدتي قلبت تاني.
 - قلبت من إيه؟ إنتي حتى ما أكلتيش.

- من الراجل اللي فوق ده فور دمي.

فتح لها سالم الباب وأعانها على الجلوس، ثم تحركا بالسيارة في طريقهما إلى النادي.

بمجرد أن قاد بضعة مترات، تمكن الدوار من حبيبة، فوضعت يدها على فمها ثانية، وقد سيطرت عليها رغبة ملحة في إفراغ محتويات أمعائها.

انتبه سالم لذلك، ناولها كيسًا بلاستيكيًا فارغًا يبقيه أسفل مقعده منذ أن حملت حبيبة، بينما أوقف السيارة جانبًا.

أفرغت عصارة أمعائها وهو يسألها:

- نرجع للدكتور؟

هزت رأسها رفضًا، وانتشلت المناديل لتمسح فمها وهي تُحكم غلق الكيس وتقول:

- اتعود على كده. عيالك دول شكلهم هيطلعوا عيني.

استكمل قيادته، بينما رن هاتفه برقم أدهم، فقرأت حبيبة الرقم وقالت:

- زمانه خلص التمرين ويبدور علينا.

رد على الهاتف من دون أن يرفع عينيه عن الطريق.

أتاه صوت ذكوري غريب عنه:

- حضرتك والد الطفل أدهم سالم عبد الرحيم؟

- مين معايا؟

- المقدم وليد عطية، من المباحث الجنائية.

جف حلقه، استشعر خطرًا.

- موبایل ابني بیعمل معاك إيه؟

وقع على عاتقه صمت طويل حمل في طياته معاني ثقيلة.

- ممكن حضرتك تعدي علينا في قسم المعادي دلوقتي؟

- إيه اللي حصلله؟

لقد اعتاد المقدم وليد عطية نقل تلك الأخبار، فلم يُطَيِّب الكلمات أو يُزين الأحرف، نطقها جافة لا ترويض ولا تهذيب لها.

- لقينا جثة ابنك ورا سور النادي.

لم يدعس المكابح في الوقت المناسب، فاعتلى المطب بعنف حَكَّ مصارين سيارته، ورفعها هو وحبية عن مقعديهما، فصرخت:

- حاسب يا سالم!

فرمل، فكادت السيارة التي تخلفه تصدمه، ولكن قائدها كان أكثر يقظة ومهارة، واستطاع أن يدعس على المكابح في لحظة فارقة وهو يسب سالم ويبتعد عنه.

ارتبكت حبيبة، هي أيضًا استشعرت أن هناك مصيبة:

- فيه إيه يا سالم؟ أدهم ماله؟

بقي سالم جامدًا في مكانه، ينظر أمامه إلى الشارع الخالي والهاتف على أذنه كما هو يأتي منه صوت المقدم:

- ألو. أستاذ سالم.

- معاك. جاي أستلمه دلوقتي.

أغلق الهاتف وتركه يسقط في حجره، فسألته حبيبة وقد اغرورقت عيناها بالدموع لا إرادياً:

- تستلم إيه؟ فيه إيه يا سالم؟

عدّل النظارة على أنفه، وأعاد تدوير المحرك وهو يقول:
- أستلم الموبايل. ضاع وحد لقاءه. هرجعك البيت ترتاحي وأروح
أجيب أدهم وأجيلك.

- وهو أدهم مع مين دلوقتي؟
همس بصوت خافت إلى نفسه: «مع حليلة».

* * *

قُتل من دون قطرة دم واحدة، أحدهم كتم أنفاسه حتى الموت.
يعلم سالم أن مَنْ يموت مختنقًا، تجحظ عيناه وتظلان مفتوحتين،
لكن يبدو أن أحدهم أنزل لأدهم جفنيه.
حذق سالم إلى عينيه المغلقتين، وتساءل ما كان آخر شيء رآه
قبل أن يموت.

أهو وجه قاتله؟ أم الشجرة التي خُنق أسفلها؟ أم التراب الذي
تسطح عليه؟ أم السماء التي تنتظره؟ أم ملاك الموت الذي سيصعد
به إليها؟

لعله لم يرَ ملاك الموت ورأى روح حليلة، لعل جدته غيداء أسوان
أتت إليه وأخذته من يده ومشّت معه صوب الفردوس بلا عذاب قبر
أو سؤال. أوليس صغيرًا على كل تلك الحسابات؟
كان صغيرًا بحق.

صغير السن والحجم والطول والعرض.

كم كان مقاس قدميه الصغيرتين، أو عرض وسطه الهزيل؟
لطالما كانت كفاه بهذه الضآلة؟

لم يلحظ سالم أن ابنه بهذا الصغر من قبل، لم يشعر بمدى ضآلته

إلا حين رآه الآن راقداً بين الملاءتين البيضاءين، بملابسه الرياضية الذهبية، وخذاء كرة القدم الذي انتقاه له الأسبوع المنصرم، وربط له رباطه بنفسه هذا الصباح. كيف كان له أن يتوقع أن هذه المرة الأخيرة التي سيرى فيها هاتين القدمين واقفتين أرضاً.

مدّ يده ليلمس وجه صغيره الشاحب الذي بُهت من برودة غدر الموت، وتأمل شفّتيه اللتين صبغتهما زُرقة الاختناق وخذلتهما تماماً.

قال سالم للمقدم وليد عطية بعد أن تعرف على هوية جثة ابنه التي خرجت من الثلاجة:
- هو.

ثبّت نظارته على وجهه وهو يسأل بنبرة ضعيفة بالكاد تُسمع من دون أن يرفع عينيه عن صغيره:
- عايز التفاصيل.

- اتفضل معايا على مكتبي وهعرفك كل التفاصيل هناك.
- هفضل معاه شوية.

قالها وعيناه ملتصقتان بملامح نجله، فتفهّم المقدم حالة الأب المكلوم، وبدأ يسرد تفاصيل الجريمة أمام جثة الصغير المغدور به.
- حد من أعضاء النادي قال إنه شاف ابنك خارج مع راجل طويل بيندهله عمو و...
- لكتته إسكندراني؟
- محدش كلمه، بس...
- كان لابس إيه؟

- قميص برتقاني وشورت أبيض وصندل صيفي. إنت بتشك في حد يا باشمهندس؟ لك أي أعداء؟
رفع عينيه عن صغيره، وقال للمقدم بثقة:
- لأ.

* * *

ما من لعنة أكبر من أن يعيش المرء دقيقة بعد وفاة سليله.
في الليلة التي عرفت فيها حبيبة أنها فقدت صغيرها، مات زمنها
وانتحرت حياتها، ورقد كل شيء وغطاه الظلام المصمت.
شهقت وحبست نفسًا حين عانقها سالم واعتصرها بين أضلعه
وهو يهمس إليها بأن زهرتهما الغالية قد قُطفت.
طلب منها أن تتماسك وألا تنهار حتى تحفظ أملهما الأخير
بالحياة: التوأمين.

لم تُخرج النفس الذي كتمته، ولم تنهَر، ولم تصرخ، ولم تبك
كما فعلت حين وصل إليها خبر وفاة شقيقها، فالإنسان حين يُجرح
يصرخ ألمًا، ولكن حين يموت يسكن.
تخدلت وتخدرت حواسها وتوقف زمنها وسقطت بعد أن ارتخت
مفاصلها، فحملها سالم ووضعها بفراشها.
ظلت في الفراش مسلوبة الحركة لتصير جسدًا راكدًا لا حركة
ولا صوت له.

جلست شوشو بجوارها على الفراش، تدفعها غريزة الأمومة إلى
البكاء بحسرة، فهو مصير لا تحتمل أي أم حتى التفكير فيه.
لم ينقطع القرآن، وكذلك المعزُون.

أتى الأقارب، وأصدقاء وزملاء حبيبة، ومدرسو القتل الصغير وأهالي أقرانه.

اجتمعت النساء حول الفراش الذي ترقد به الأم المكلومة بعينها المحتنقتين بالدموع الجامدة.

كانت تستفرغ من وقت إلى آخر، ويزداد وجهها شحوبًا وجسدها برودة وجبينها عرقًا، ويتضاعف شعورها بالدوار والوهن.

في الصالة، استقبل عم وخال حبيبة عزاء أول حفيد بالعائلة، بينما لزم سالم غرفة ابنه وقطته راقدة بين ساقيه تواسيه.

لم يفعل شيئًا في الظلام سوى الجلوس على فراش فقيده وتفقد لعبه، والتفكير بعد أن أوصد على نفسه بابه حتى لا يدخل أحد ليؤازره بكلمات لا وزن لها ولا قيمة.

لا يعرف كم مضى من الوقت، لكن بمرور الساعات هدأت الأصوات وساد الصمت، إلا من صوت خطوات شوشو في المطبخ وفي غرفة حبيبة، ثم رن جرس الباب.

سمع شوشو تخرج من غرفة حبيبة، تفتح الباب، أحدهم يدخل، الباب يُغلق مجددًا.

قال الضيف:

- هو فين؟

نهض سالم عن فراش أدهم وفتح الباب، فدخل هادي إلى الغرفة وعانقه.

كانت المرة الأولى التي لا ينفر فيها سالم من لمستته، شعر بأنه حقًا بحاجة إلى تلك المؤازرة.

لم يتقبل العناق لأكثر من ثلاث ثوانٍ، ثم ابتعد قائلاً بصوت اختلج من طول الصمت:

- حقه.

- هنجيبه.

- الليلة.

- خش البس ونزل نخلص كلام بعيد عن البيت.

خرج سالم من الغرفة متجهًا إلى غرفة زوجته النائمة في الظلام على فراشهما.

جلس بجوارها قبل أن يتجه إلى الخزانة ليخرج ملابسه، وقال:

- هروح القسم أشوف وصلوا لإيه في التحقيقات.

لم تعلق، مديده صوب وجهها فشعر ببرودة جلدها، واستشعر سائلاً مخاطباً خارجاً من فمها.

أشعل مصباح الفراش ليكتشف أنها تقيأت على وجهها وملابسها في أثناء نومها.

سحب المناديل من على طاولة الفراش، وبدأ يمسح لها وجهها، لكنه اشتّم رائحة أليفها منذ أن كان في الحادية عشرة من عمره، رائحة الموت.

ناداها فلم تُجِبْ، هزها فلم تستجِبْ له.

ضغط على رقبتها ثم معصمها منقباً عن دقات قلب تعطيه أملاً ضئيلاً، لكنه ظل تائهاً هائمًا على وجهه لا يجد إشارة، حتى قَرَّب أصابعه من أنفها فلم يجد نفسًا. وضع رأسه على صدرها، فلم يستشعر نبضًا.

لا نفس ولا نبض.

تلك الرغاوي لم تكن قيئًا، بل زبد الموت.

نَفَذَ سلطان تهديده واقتلع جذور سالم من الأرض.

بقي جالسًا مكانه، رأسه على صدرها الصامت، وعينه صوب النافذة المفتوحة المطلّة على وجه خونسو المنير.

كيف للسماء أن يتوسط كبدها بدرُّ براق في ليلة كهذه؟

كيف لها ألا تزار وتعصف وتضرب الفضاء برعدها في الليلة التي ماتت فيها حبيبة وتوأماها بعد أن رحل وحيدهما؟

كيف لا تبكي السماء بأمطارها الغزيرة على تلك الطعنات التي شلت عمود سالم الفقري؟

اقتربت شوشو من الغرفة حاملة صينية طعام لحبيبة، ودخلت قائلة:
- صحيحها علشان تاكل.

أجابها بهدوء من دون أن يرفع رأسه عن صدرها:
- ماتت.

انتفضت شوشو، فأسقطت صينية الطعام من يدها، وأحدثت ضجيجًا أفزع القطّة وجعلها تخرخر.

أسرع هادي الذي يسعل دمًا في منديله إلى الغرفة لاهثًا على صوت الضجيج:

- فيه إيه؟

نقلت إليه شوشو الخبر، ثم وضعت يدها على فمها وبكت منهارة.

بقي سالم كما هو، لم يحرك عضلة واحدة وهو يفكر في عيد سلطان الذي لم تمضِ عليه ثمانٍ وأربعون ساعة حتى نفّذه.

امتلاً كوبه وفاضت دموع كَتَمَها منذ عقود، سالت من عينيه
الجامدتين، فنزلت على صدر حبّية حتى بللت ثوبها.
كان لأم سالم ثوب صيفي بنفس اللون ونفس الزهور الصغيرة،
فزادت دموعه الصامته التي لا تعرف أنيناً أو نسيجاً.
وقف هادي خلفه يربت على كتفه من دون كلام، وقد تبلورت
دموع الشفقة على صديقه في عينيه.
بكى البؤساء الثلاثة، بينما لاطف الهواء المنعش أغصان الشجر
فأجابته بحفيف أوراقها، وبقيت النجوم تلمع وتتلأأ، وظل القمر
متوهجاً يضيء الكون.
والأرض تدور في مسارها، والطيور تنام في ليلها، والحشرات
تحترش بحشائشها، وكلُّ يحيا حياته ويمارس روتينه، ولا أحد يبالي
بفاجعة سالم عبد الرحيم.

الفصل العشرون

حين صدر تقرير الطب الشرعي معلناً أن سبب وفاة حبيبة هو سم «الريسين» وليس أن قلبها توقف حزناً على وحيدها، أصبح سالم تحت الميكروسكوب.

زاره المقدم وليد عطية في بيته بحجة تأدية واجب العزاء، لكنه في الواقع كان يستجوبه.

كان سالم يدخن سيجارته، وهادي يقف في ظهره متربصاً بالمقدم، بينما يتصاعد صوت المقرئ من صالة البيت، وشوشو وسعاد خالة حبيبة ونادية ابنة خالتها يَدُرْنَ بالقهوة السادة على المعزّين الذين أصابهم الخبل حين علموا بالخبر، ولم يعودوا يفهمون أي لعنة أصابت آل عاطف لتسلبهم الابن ثم ابن الأخت ثم الأخت نفسها بجنينيها.

قال المقدم بعد أن أشعل سيجارته:

- ما هو مش طبعي إن في تمانية وأربعين ساعة ابنك يتخنق ومراتك تتسم وتقولي إن ملكش عداوات يا باشمهندس!

دَسَّ هادي يديه في جيبه، وأجاب المقدم اللحوح:
- هو اللي مش طبيعي يا سيادة المقدم إننا نتكلم في موضوع زي
ده دلوقتي. حضرتك أدّيت واجب العزا ومشكور عليه، بس
بالنسبة لباقي التفاصيل، سالم هيبقى يعدي عليك في القسم
ويدلي بشهادته.

مد يده صوب المقدم ببرود، وابتسم ابتسامة مستفزة:
- ميرسي.

صافحه المقدم بفتور، وتركهما في الشرفة.
انتظره هادي حتى خرج، ثم همس وهو يضع يده على كتف
سالم:

- إنت كويس؟

- هبقى كويس لما أقتل سلطان.

صمّت هادي، لكن ألمه السرطاني لم يؤثر الصمت.
سعل سعلة قوية شعر بأنها شقت صدره إلى نصفين، فغطى فمه
بيد، وضغط أضلعه باليد الأخرى، كأنها ستخلع من مكانها من
فرط السعال.

رفع إصبعه مستأذناً من سالم، وهرع صوب الحمام.
بصق دماء بشفتين مرتعشتين، وعينين دمعتا من فرط الألم،
وأنفاس لاهثة من المجهود.

فتح الصنبور ليخفي آثار مرضه إلى أن تخف الرجفة التي سيطرت
عليه، وتستقر أنفاسه التي ألهمت صدره.

غسل وجهه من خليط عرقه ودموعه، وأخذ يشهق ويزفر لينظف أنفاسه وهو ينظر إلى نفسه في المرأة.

فقد كثيراً من وزنه، وشحبت بشرته الرائقة، وذبل شعره اللامع، وشاخ وهج عينيه، ولكن ما آلمه حقاً هو تلك الرعشة التي صارت تلازم يديه.

أغلق الصنبور، ونشف وجهه ويديه، وخرج ليجد سالم قد أشعل ضوء غرفته وفتح حقيبة رياضية عباً فيها كل ما يملك من مسدسات وبنادق احتراف تخبئتها في زوايا بيته.

- بلاش تهور يا سالم، الأمور ما بتتاخدش كده.

لم يعلق، فاقترب منه هادي مردفاً:

- إيه اللي عرّفك إن سلطان اللي عملها؟

ترك سالم حقيبته، وعاد إلى الخزانة السرية المخفية خلف خزانة ملابسه ليخرج منها الكلاشنكوف من دون أن يولي اهتماماً للكلمات هادي، ولكن صاحبه تابع الحديث:

- فكر فيها يا سالم، إحنا أعداءنا كثير، مش لازم يكون سلطان.

- أعداءنا كثير، بس محدش يعرفنا غير سلطان.

وضع سالم كل ما يحتاج إليه من ذخيرة ورصاص وأسلحة، وأغلق حقيبته، وأبقى معه مسدسه المفضل، بينما لاحقه هادي في أرجاء الغرفة قائلاً:

- هتعمل إيه دلوقتي؟ هتروح تموت المايسترو؟ حتى لو موته،

فكرك آمنة هتعرف إنك قتلت أخوها وتسبيك عادي؟

وضع الحقيبة على كتفه، وتأكد أن خزانة مسدسه ممتلئة

بالرصاص، ثم تكلم بنبرة هادئة رزينة وهو يشد أجزاء سلاحه ليوضح
لهادي عقاب الإجابة الخاطئة عن السؤال التالي:
- ناوي تبقى معايا ولّا معاه يا هادي؟

* * *

اللي بيشكي حاله لحاله
واللي بيبكي على مواله
أهل الحب صحيح مساكين

ترنمت أم كلثوم كلماتها التي سحرت سلطان الدَّغَش المتربع على
أريكته الجلدية بمنامته البرتقالية ذات الخطوط الصفراء والحمراء، معانقاً
أفيونته بشفتيه العريضتين، وأنامله منشغلة بحياكة تلك السترة البنفسجية.
وضع بكرة الصوف والإبرتين جانباً، واندمج مع صوت كوكب
الشرق.

حمل أفيونته من بين شفتيه، وراقص دخانها في الهواء بين أصابعه،
وهو يغمض عينيه مردداً مع الست:

ياما الحب نده على قلبي
ما ردش قلبي جواب
ياما الشوق حاول يحايلني
وأقوله روح يا عذاب

فُتح باب مكتبه، ودخل ضيفه بلا استئذان، فتعكر مزاجه وفتح
عينيه وتوقف عن الغناء.

نظر إلى الطويل الذي ربط ذراعه في حاملة من الشاش المطاط
ملوثة ببعض الدماء.

لم يعرف سلطان إن كان مصدر تلك الدماء هو الطلقة التي أصابت صاحبها في ذراعه اليسرى، أم الكدمات والجروح التي انتشرت في وجهه انتشار الجُدري الأحمر.

أغلق زائره الباب خلفه، ثم جلس على الكرسي المقابل لأريكة سلطان، وسحب من بين أصابعه الرقيقة أفيونته، واستنشق عبقها نافثًا دخانها في الهواء.

نظر سلطان باستغراب إلى ذلك الفتى الذي لطالما عارض الدخان وحقّر التدخين والمدخنين، فقال:

- مسيو كرواسون بقى بيدخن؟

ابتسم هادي ساخرًا، وسعل ورمه الذي ينهش كبده ورئتيه، فقرر أن يُسكته بنفس سام آخر.

- إيه اللي شلفطك كده يا ولّا؟

- سالم.

رفع الدّغش حاجبه الأيمن مستفهمًا، فأردف هادي معيدًا إليه أفيونته:

- سالم عايز ينتقم منك بسبب اللي عملته في ابنه ومراته.

لم يعلق سلطان، واكتفى بأخذ الأنفاس الأخيرة من أفيونته قبل أن يدفنها بالمرمدة، ثم سأله ببطء:

- وإيه كمان؟

- زي ما إنت شايف. لما رفضت أساعده وحاولت أفهمه بالعقل

إني مش ناوي أكسب عداوتك، افكرني ساعدتك في قتلهم وكان عايز يقتلني. لولا ستر ربنا كانت الطلقة جت في قلبي.

- قتلتته؟

هز هادي رأسه نفياً.

- ليه؟

- علشان صاحبي.

- صاحبك إيه يا ولأ، إش حال إنه طخك عيار؟

- إنت اللي سعرتة. أنا مش زيكم. أنا كنت بعتركم إنتو الاتنين

عيلتي، فحتى لو وقعتوا في بعض، أنا مش هاخذ صف حد فيكم.

ضحك المايسترو بقوة:

- أنا عمر الأفيون ما سطلني، بس بيتهيألي كده إني خير اللهم

اجعله خير، سمعتك بتقول علينا عيلتك؟ عيلة مين يا ولأ،

سالم وغز أبوه في الغيط لحد ما خرمة زي المصفاة، وإنت

خائق أبوك بالتبني بالحزام قدام عينيا دول، بعد ما قعد تمن

سنين يسمنك زي الجددي. عيلة إيه يا ولاد الحرام إنتو الاتنين.

أخرج هادي من جيبه علكته، وبدأ يعضغها وينفخها مشكلاً منها

فقاعة فرقعها بصوت استفز الدَّغَش وهو يقول:

- على الأقل بسيوني ما كانش من دمي، إنما آمنة أختك اللي من

لحمك واللي كبرت على إيديك واللي بتنصف كل عملية وراك

ولولاها كان زمانا متكلبشين. عملتلك إيه علشان تقتلها بنتها

الوحيدة بالسهولة دي؟

- ما عملتش. ما بالك بقى أنا ممكن أعمل إيه في اللي مش من

دمي وعمل.

- كل ده علشان قالك كفاية؟
- كل ده علشان قالي لأ.
- وأديك علّمت عليه. اقعدوا اصفوا.
- البركة اللي بتتعر ما بتصفاش يا هادي.
- يعني إنت مش هتهدى غير لما تقتله؟
- هو أنا كده ما قتلتش؟
- زفر هادي مرهقًا، ثم عدل من وضع رباط ذراعه المصابة متأوّهًا وهو يقول:
- براحتكم، المهم إني جاي أقولك إني في خطر زيك، وهو حالف يقتلنا إحنا الاتنين.
- مين ده اللي يقتل المايسترو يا ولأ؟ كان غيره أشطر.
- طب وأنا؟
- إنت عديت سور فيلّتي، اعتبر إنك يونس في بطن الحوت.

* * *

ولج هادي العنبر المستطيل الذي دخله للمرة الأولى حين كان في الثامنة عشرة من عمره بعد أن خنق بسيوني بيديه واتخذه سلطان مساعدًا له.

حينها اعترض، كيف لفنان مثله شغوف بالقتل أن يبيت في العنبر نفسه مع الغوغاء من أبناء الشوارع والمياتم.

أصر أن تكون له غرفة مستقلة، فنفذ سلطان طلبه، وجعل له غرفة مربعة تطل على ردهة القصر من اليمين، وعلى الحديقة من اليسار، ليصبح في قلب القصر وسريع الوصول إلى أي غرفة.

عدّ القتلة النائمين داخل العنبر قبل أن يخرج، كانوا اثني عشر
مراهقًا.

دلف إلى الغرفة التي اعتاد أن يسهر بها لياليه لعشر سنوات إلى أن
صار قاتلاً مدفوع الأجر وترك قصر الدَّعْش، وابتاع لنفسه ذلك البيت
بجزيرة المعادي النائبة عن أعين الشرطة وأنوف كلابها.
تذكر حين دخل الغرفة ذات الأثاث الفرنسي المتكلف الذي
اختاره قطعة قطعة، أنه كبير.

شتان بين الليلة الأولى التي باتها في هذه الغرفة، حين كان أرعن
مختلاً بشبابه وبعصبه المتين وبقلبه الميت وجسارته، وهذه الليلة
وهو يدخل الغرفة الآن.

كهلُ ترتعش يداه، يربي ببدنه خبيثاً ينهش أعضاءه التي خارت
قواها.

ولكن الرابط الوحيد بين أول مرة دخل فيها هادي إلى هذه الغرفة
والآن، عنده وغروره. لذلك، مرضه وأورامه لن تكون عائقاً بينه وبين
هدفه الحالي.

وقف في الزاوية التي اعتاد أنها نافذة رخامية يطل منها على حديقة
القصر، وقد اختار بنفسه ستائرهما البيج المخملية.

جذب الستائر، فاكشف أن النافذة تحولت إلى لوح زجاج، لا
مخرج ولا فتحة به، كأنه شاشة تلفاز يشاهد المرء من عبرها السماء
والحديقة الغناء.

تحسس اللوح بيده، فتبين من سُمكه أنه زجاج عازل للصوت.
زفر بضيق، ثم اتجه صوب الخزانة العامرة بالأسلحة والمطارق

الثقيلة، ففتحها ليعرف إن كانت قد تغيرت حالها كما تغيرت حال نافذته. ولم يخب ظنه، فكل الأسلحة في مكانها بلا تغيير. دس يده في جيبه وابتسم راضياً.

انتقى خليلته العسكرية، بندقية عيار «AR-15»، يصاحبها مسندها المعدني الرفيع.

جرّ كرسيه الجلدي الأنيق الذي طُرزت عليه يدويًا لوحة زرقاء لسماء فان جوخ، ثم حمل الرشيقة ذات العود المعدني الخفيف وأسندها إلى مقعده، وجلس واضعًا ساقًا فوق الأخرى.

أخرج سيجاره، واتبع تعليمات البارمان في إشعاله، وبدأ يدخنه مراقبًا السماء الداكنة وحشائش الحديقة من خلف الزجاج.

أوصل سماعتيه بهاتفه الذكي، وثبتهما بأذنيه ليأتيه صوتها الذي اشتاق إليه منذ أن علم بمرضه.

أتى الإكسليفون، تليه الطبول، يرافقهما الأكورديون الباريسي المرح، وتنساب الكلمات، بينما يهز هادي رأسه وقدمه على إيقاعها السعيد وهو يغني معها أغنية «Mon manège à moi».

أشار بأصابعه في الهواء على إيقاع الموسيقى، كأنه مايسترو هذه الليلة.

* * *

ألقي سالم حقييته المحملة بالأسلحة أسفل كرسيه، وطار على الطريق.

حين اقترب من الطريق الذي يعلم أنه خالٍ من عناصر الشرطة والكمائن وكل الكائنات الحية، سحب من حقييته الكلاشنكوف

«AK-47»، وارتدى حزامه حول كتفه وصدره، وأسرع صوب بوابة القصر.

مدَّ رجل الأمن يده بحزم أمرًا إياه أن يتوقف، لكن سالم بخفته وسرعته استخدم سلاحه ليعلن عن سقوط أول قتيل له في تلك المعركة. حمل قبلة يدوية بصغر راحته، قوامها يشبه ثمرة الأناناس. سحب حلقتها لينفك دبوسها، ثم أخرج كتفه من النافذة، وألقى بها من سيارته صوب البوابة التي شُيّدت لحماية مايسترو سمفونية الإجرام التي لطالما كان سالم آلة بها.

حوّل مسار سيارته متراجعًا إلى الخلف قبل أن تهبط القبلة على حصن الدَّغش ويزار دوي انفجارها الذي أسقط حديد البوابة، فاستحالت الأرض ترابًا ودخانًا خانقًا، وأمست الساحة خالية منتظرة سالم أن يغزو قصر صاحبها.

* * *

دوي انفجار القبلة وسقوط البوابة غطى على صوت العود وكلمات كوكب الشرق، وبتر النفس الذي سحبه سلطان من أفيونته. نهض صوب نافذته المطلة على الحديقة ليرى البوابة أرضًا، والنيران تتراقص حولها كطقس ماجن.

همَّ أن يصعد، لكنه سمع أزيز الرصاص، فجمد مكانه. علِم أن هناك دماء قانية متناثرة على العشب تنتظره بالأسفل، فلم يقوَ على رؤيتها.

أوصد على نفسه باب مكتبه بالمفتاح، وهرع صوب الهاتف متصلًا بمدير أمن قصره، فأجابه:

- ما تخافش يا مايسترو، إحنا...

- أنا ما بخافش! سالم اللي بره؟

- مش لوحده، فيه حد من جوه القصر ب...

لم يكمل مدير الأمن جُمْلته لأن رصاصة أخرست أنفاسه، ولم يتطلب الأمر أكثر من ذلك ليفهم سلطان ما يدور بالتفصيل.

* * *

دوي انفجار القنبلة وسقوط البوابة غطى على صوت الإكسليفون والأكورديون وكلمات العصفورة الباريسية، وقطع تدخين هادي لسيجاره.

نهض عن كرسيه بابتسامة متحمسة، وخلع ماضغ اللبان رباط ذراعه المزيف، ومسح الجروح والكدمات الكاذبة التي أتقن رسمها بمساحيق التجميل.

جذب من خزانته أثقل مطرقة، ونزل بها على الزجاج الذي يحجب عنه متعته.

بمجرد أن تهشم الزجاج وتناثر على السجاد، بدأت الرحلة. حمل عشيقته الأمريكية وأسندها بكتفه، واتكأ على عودها بذقنه، وألصق مقلته بمنظارها كقرصان على وشك أن يروض بحرًا هائجًا. وضع إصبعه على الزناد وأحكم مسكته، وانتظر الإشارة وهو يمزغ علكته.

* * *

عبر الأب والزوج المغدور به فوق البوابة، ليقابله سرب من رجال الأمن.

لم يمهلهم.

دعس بنزينة بأقصى سرعة، وصار يرطمهم ويعتليهم بعجل سيارته تارة، ويصيبهم برصاصات سلاحه الروسي تارة أخرى، ولكن أعدادهم كانت لا تُحصى، وعليه تطلب الأمر مساعدة من الجو. من بين السحب الليلية، أمطرت السماء رصاصات الـ«AR-15» الأمريكية.

استطاع هادي أن يتقن دور القناص منتقياً أهدافه من غرفته المربعة عبر الزجاج المهشم بسرعة ٣٢٥١ قدمًا بالثانية. أسقطهم كأوراق الخريف الذابلة من دون أن يُصيبوا شريكه بخدش، ثم ترك له الساحة خاوية.

أكمل سالم طريقه إلى مكتب مدير أمن القصر المنشغل بمحادثة سلطان على الهاتف لطمأنته، فأخرسه بطلقة، ثم سحب منه الهاتف ليحدث من أتى ليقترض منه.

سقطت سماعة الهاتف، فسمع صوت سلطان ينادي:
- ألو، ألو.

* *

لم يكن سلطان بالرجل الهائم الحالم، على الرغم من أنه كان كذلك في صباه.

استطاع أن يفهم الوضع ويتوصل إلى نهايته بحسبة بسيطة. لقد مات كل رجال الأمن المقيمين بالدور السفلي والغرف المستقلة بمحيط الحديقة، ولم يعد لديه أمل سوى براعم المجرمين المقيمين بالطابق الثاني.

ما زالوا قتلة تحت التمرين، لم تُصقل مواهبهم بعد، لكنهم أملوا الوحيد وخلاصه الأخير.

فكر في أن يفتح الباب ويتجه إلى عنبرهم ليحتمي بينهم، لكنه ارتعد حين تخيل منظر الدماء الملحمية التي ستسفر عن تبادل الأعيرة النارية بينهم وبين سالم القاسم على أن ينهي حياته الليلة. مما لا شك فيه أنه يفضل الموت على أن يرى الدماء بعينه، لكن لا بأس إن ألصق أذنيه العريضتين بالباب لينصت لما يدور بالخارج لعله يجد مخرجاً.

* * *

أحصى هادي الذين أسقطهم بالحديقة بالفرنسية، كطفل يتعلم العد: «Un, deux, trois, quatre» -

توقف عند الرقم خمسة وعشرين، وعلم أن هناك مزيداً من الأرواح التي تنتظر حصادها.

فتح بابه المطل على عنبر الفتية القتلة، وانتظرهم حتى يفتحوا الباب ويخرجوا.

أصاب الأول من الباب الموارب في رأسه.

في لحظة خاطفة وبالطريقة نفسها، أنهى حياة الثاني فالثالث فالرابع، ليسقط المراهقون الأربعة الذين دفعتهم البسالة إلى الاندفاع للخارج متوالين.

تراجع الثمانية المتبقون إلى داخل العنبر، وأوصدوا الباب بالمفتاح والقفل، ظناً منهم أن في ذلك نجاتهم.

تراكموا بالعنبر خلف الباب متسائلين فيما بينهم ما العمل!

لم يعرف الصبية أن باب غرفة هادي الجانبي يفتح على مؤخرة
عنبرهم.

فتح الباب، ودخل مباغتًا إياهم من الخلف، صائحًا بلكنة فرنسية
تُنطق فيها الراء غينًا:

– «Surprise» !

ثقب أجسادهم برصاصه الأمريكي، لتساقط الفوارغ بين قدميه
وتصل صرخاتهم إلى أذني سلطان.

* * *

رضخ سلطان.

تيقن أنه لم يعد هناك مفرٌّ من موته المحتوم.

لعن فوبيا الدماء التي أصابته منذ أن كان مراهقًا خفيف الظل
يحلم بأن يصير نجمًا مسرحيًا مثل عادل خيري ونجيب الريحاني.
كان يبيع الفريسكا الطازجة على الشاطئ صيفًا، ويحوك السترات
الصوفية مع أمه شتاءً، مُهرَّبًا بداخلها الحشيش والأفيون لتجار «زنقة
الستات» ليلاً، ولطلاب المدارس والجامعات نهارًا.

كان يمارس كل الأعمال الشريفة وغير الشريفة ليتحصل على
سعر تذكرة مسرح بيرم التونسي الذي وقف على خشبته عظماء لم
يفوَّت لهم عرضًا واحدًا.

في كل ليلة، كان يندس بين الجماهير خارج المسرح ليحصل على
أوتوجراف من الممثلين، ويخبرهم بولعه بـ«الخشب» ورغبته المميتة
في أن يصير ممثلًا، فكانت تُقابل أمنياته الرعناء بابتسامة منافقة، تليها
جُمْل تشجيعية زائفة، ثم يرحل الفنان.

أصرَّ ليلة واستمر إلحاحه على أحد المخرجين لينصت لمونولوج ألفه بنفسه. أجابه المخرج قبل أن يسرد الجُمْل التي ألفها وهو ينفث أفيونه فوق سطح بيته المتهالك وسط عشش الدواجن، متمنياً ألا يلحظ التلميذ الذي سيبيع له قطعة الأفيون تلك أنها ناقصة بضعة أنفاس:

- طيب طيب، عدي عليا بكرة في المسرح الساعة اتناشر، خلينا نشوف.

ابتهجت ملامحه، وراقصه قلبه.

خرج من المسرح حين أمطرت سماء الإسكندرية، وتساقطت المياه على سيارات الأجرة الصفراء، فسار مخموراً بنشوة الطموح وهو يركض إلى بيته غير مبالي بابتلال ملابسه ذات الألوان التي تُعتبر في حد ذاتها من الكوميديا الإغريقية.

وصل الحالم المبتهج ابن الثالثة عشرة من عمره آنذاك، إلى بنياته العتيقة متراخية الأساسات، وغنى مونولوجه على درجات سلالمها المتهدجة وهو يثب درجة تلو درجة وصولاً إلى السطح، حيث يبيت مع شقيقته آمنة ذات السنوات الثلاث وأمه ووالده في غرفة معششة السقف. فكر في أن الأمطار الآن تدافعت من بين ثغرات السقف، وأغرقت غرفتهم الضيقة، وستكلفه أمه بتجفيف الأرض وعصر الملابس ومسح البلاط حتى ينكسر ظهره.

لا بأس، اليوم هو طامح، أخذ أولى خطوات تحقيق حلمه، ولن يسمح للفقر بأن يعكر مزاجه.

فكر في العز الذي سيعيش فيه أهله إذا صار سلطان فنناً مسرحياً ومونولوجست شهيراً.

سيأخذ من أمه إبر الكروشييه، ويرفع ظهرها الذي انحنى على مكن
الخيطة، وسيرحم أباه الصياد الذي يغيب شهوًراً بالبحر، حتى يمن
عليه الموج برزق لن يأخذ منه سوى نسبة ضئيلة.

غرق في أحلام يقظته حتى سمع بكاء آمنة فور أن وصل إلى
السطح.

فتح الباب الخشبي الضعيف، فوجد أمه متكئة على ركبتيها والماء
يخر على رأسها من السقف، وقد سيطرت على الغرفة المبتلة رائحة
معدنية ثقيلة، رائحة لن تذهب ما بقي حياً.

رائحة الدماء.

رأى أمه، التي اعتادت أن تحوِّك ملابس مبهجة الألوان بأصابعها،
تُقطع جثة بيديها.

هوت بالساطور على جثة ذكر ملقى على ظهره، فسمع سلطان
صوت طرقة الترقوة وانفصالها عن باقي الجثة الباردة التي حممتها
الأمطار.

صعد أطيظ بطنه، وكاد يبلى سرواله، إلا أن أمه التفتت لتجده
يقف خلفها، فأمرته:

- تعالى.

اقترب منها ولا يعلم لم نفذ أمرها، ولم يركض ويُعِف نفسه
من رؤية التفاصيل.

وقف عند كتفها ليرى هوية الجثة، لكنها كانت مبتورة الرأس.
لم يتخيل أنه قد يرى بحياته هذا القدر من الدماء، فتسارعت
أنفاسه واختلط عرقه بزخات المطر.

أَلَقْتُ فِي وَجْهِهِ أَكْيَاسَ الْقِمَامَةِ الْبِلَاسْتِيكِيَّةِ، وَقَالَتْ:
- عبي!

كَمَنْ سَلَبَتْهُ النِّدَاهَةُ إِرَادَتَهُ، نَزَلَ سُلْطَانٌ عَلَى رُكْبَتَيْهِ، وَلَمَلَمَ مَا قَطَعَتْهُ أُمُّهُ بِسَاطُورِهَا، وَعَبَّاهُ بِالْأَكْيَاسِ.

تَصَاعَدَ عَبَقُ الدِّمَاءِ مَعَ رَائِحَةِ الْأَمْطَارِ، وَتَلَوَّثَتْ يَدَاهُ بِالدَّمِ الْقَانِي الْجَارِي مَجْرَى الْمِيَاهِ الْخَارِجَةِ مِنْ أَسْفَلِ الْبَابِ.

لَعَلَّهُ كَانَ فَاسِدًا شَقِيًّا يَبِيعُ الْمَخْدِرَاتِ وَالْمَمْنُوعَاتِ، وَيَحْمِلُ بَذُورَ الْجَرِيمَةِ وَالشَّرِّ بَتَرَبْتِهِ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَاتِلًا وَلَمْ يَفْكُرْ يَوْمًا فِي إِرَاقَةِ دِمَاءِ أَحَدِهِمْ.

لَا يَعْرِفُ لَمْ لَمْ يَلِكْ أَوْ يَصْرُخُ وَقْتَهَا، لَكِنَّهُ بِيَدَيْنِ مَرْتَعَشَتَيْنِ وَأَضْلَعُ مَرْتَعْدَةً أَخَذَ يَعْبِي كُلَّ أَعْضَاءِ الْجَثَّةِ، وَهُوَ غَارِقٌ بِدِمَاءِ ذَلِكَ الرَّجُلِ الْمَجْهُولِ.

انْتَهَتْ الْأُمُّ ذَاتَ الْجُلُبَابِ الَّذِي كَانَ أَبْيَضَ، لَكِنَّ الدِّمَاءَ صَبَغَتْهُ بِالْأَحْمَرِ الْقَاتِمِ، مِنْ تَقْطِيعِ جَثَّةِ ضَحِيَّتِهَا، ثُمَّ أَمَرَتْ ابْنَهَا بِالنَّبْرَةِ الْبَارِدَةِ نَفْسَهَا:

- ارميهم في البحر.
نَفَّذَ أَمْرَهَا.

حَمَلَ بَعْضُ الْأَكْيَاسِ وَكَادَ يَرَحُلُ، لَكِنَّهَا اسْتَوْقَفَتْهُ وَأَعْطَتْهُ كَيْسًا كَانَتْ قَدْ عَبَّاهُ قَبْلَ دُخُولِهِ.

أَخَذَهُ بِلَا نِقَاشٍ، ثُمَّ خَرَجَ لِيَعْبُرَ الطَّرِيقَ الثَّانِي حَيْثُ الْبَحْرُ الْمَتَلَاظِمَةُ أَمْوَاجِهِ.

وَضَعَ الْأَكْيَاسَ جَمِيعَهَا أَرْضًا، وَرَمَى الْكَيْسَ الْأَوَّلَ فَالثَّانِي، ثُمَّ

أتى دور الكيس الثالث الذي كانت أمه قد عبأته قبل مجيئه لتكون محتوياته أثقل من خامته الرديئة فينقطع ويسقط ما بجعبته.
رأس!

أسرع سلطان مذعورًا يحمله حتى لا يراه أحد، ولكن ذعره تضاعف حين رأى ملامح ذلك الرأس المبتور، ويدرك أنه رأس أبيه. أفرغ محتويات معدته حين أدرك أنه ساعد أمه على تعبئة أعضاء والده في أكياس سوداء ليلقيها في البحر.

ترك باقي الأكياس، وركض صوب الغرفة، لكنه تردد في دخولها. مجرد التفكير في الدماء أصابه بألم شديد في صدره، وجعل أنفاسه تضيق ورأسه يدور ومعدته تهتاج. طرق الباب بعنف من دون الولوج.

خرجت صاحبة الساطور حاملة المزيد من الأكياس ليلقي الدفعة الثانية من جثة أبيه.

صاح فيها سلطان وهو يبكي وأسنانه تصطك خوفًا:
- قتلتيه ليه؟

لم تُجبه، عادت إلى الداخل، وحملت شقيقته آمنة ذات العينين العسليتين المختلطتين بزرقة البحر ودفعتها صوبه.

حملها منها بقلق، فاقتربت منه وضغطت على كتفيه، وقالت له بنظرة مرعبة ستظل تلاحق سلطان كلما نظر إلى وجه أي امرأة على سطح الأرض وأولاهن شقيقته:

- بيع الكل. الغالي والعزيز. ما تسييش حد يربطك.

تركته وسارت حتى سور السطح، ثم صعدته، ففهم ما تتويعه.

وضع آمنة أرضاً، وهمّ أن يجذب أمه من ثوبها حتى يمنعها من الانتحار، لكنها دفعته بعنف فسقط، ثم رآها تقفز، وسمع صوت عظامها تقابل الأسفلت.

لم يقوَ على النهوض والنظر إلى مصير جثتها، لم يتحمل فكرة رؤية المزيد من الدماء.

حمل شقيقته وهرب.

عرف قصة أمه وحقيقتها لاحقاً.

فَهِم أن جزار الحي كان يهاديهم اللحوم لأنه يسكن فراش أمه في أشهر غياب أبيه بالبحر، وأن الصياد المسكين عاد مبكراً عن ميعاده، فوجد غيره يطأ زوجته، ففارت دماؤه، وكاد يثار لشرفه، لكن الجزار باغته ونحره فاصلاً رأسه عن كتفيه.

أمر الجزار عشيقته أن تقطع باقي الجثة وتلقيها في البحر حتى لا يعلم الجيران بما صار، وألا تترك أثراً خلفها، لكن صدمة نفسية سيطرت على عقلها وأصابته بالعطب، حتى انتابتها حالة خدلت أحاسيسها وجعلتها تنفذ أوامر الجزار بلا تفكير، إلى أن أنهت مهمتها، وبعدها ندهتها النداهة.

كيف لها النجاة بعد أن رآها ابنها وشهد على جريمتها، بل بعد أن أجبرته على مشاركته إياها.

لم يبقَ أمامها سوى خيارين: إما أن تقتل ابنها وتفعل به ما فعلته بجثة زوجها، وإما أن تغسل عارها وتقتل نفسها وتنتهي الأمر.

وقد كان الانتحار مثواها، وفوبيا الدماء داء يصاحب سلطان إلى الأبد.



لذلك، أثر سلطان أن يرديه سالم قتيلاً، على أن يرى صبيته غارقين في دمائهم.

فتح الباب بالمفتاح لِيُسهل على قاتله الدخول، ثم عاد إلى أريكته ورفع صوت أم كلثوم وأشعل لنفسه أفيونة أخيرة.

نظر إلى السترة الصوفية بحزن مدرّكاً أنه لن ينهيها على الرغم من أنه متأكد من أنها ستكون بديعة الحسن، مُحَكِّمة الغُرز، فريدة اللون، ناعمة الملبس، وثقيلة الخامة، تدفئ بدن مرتديها.

لمس السترة للمرة الأخيرة، ثم نفث دخان أفيونه واضعاً ساقاً فوق الأخرى، وسمع وقع الخطوات يدنو من مكتبه، وأحدهم يدير مقبض الباب ويدخل.

دخل سالم وعلى وجهه رذاذ دماء ضحاياه، ممسكاً بالكلاشنكوف، ومن خلفه هادي الذي لم تطله قطرة دم واحدة يجرب بندقيته الأمريكية وراءه.

نفث سلطان دخانه ناظرًا إلى مَنْ علمهما فك السلاح وتعميره، وقال:

- مين فيكم اللي هيخلص؟

رفع سالم سلاحه في وجه سلطان، فقال الدَّغش بعد أن سحب نفساً جديداً من أفيونته:

- معلوم.

نهض عن مقعده ووقف على قدميه ضاغطاً على أفيونته الأخيرة بشفتيه، ووضع يديه بجيبَي منامته البرتقالية بعجرفة، وقال بابتسامة شامته:

- هو وصل تحياتك للمدام والأولاد.

فجّر سالم رأس معلمه بست رصاصات.

ست رصاصات أنهت أسطورة ذلك الإسكندراني الأصل، إغريقي الملامح الذي كان يحلم بالكوميديا المسرحية، ويطمح بالنجومية، من خلال خَلْق الضحكة على وجوه الناس، إلا أن القدر جعل سلطان الدَغَش الذي يعني اسمه «قوة الظلام»، ملاذًا لكل الشرور.

تحول منبسط اللسان، أريحي المخارج، من شغوف بالنكات والمونولوج إلى مصنع للإجرام، راحت حياته على يد مجرمين شكّلهما بأنامله.

لم تتوقف أم كلثوم عن الغناء، ولم يصمت صوتها المنساب من الراديو، بينما توقف قلب المايسترو عن النبض، وانتهت سمفونيته الدامية.

الفصل الحادي والعشرون

استيقظ على خرخرة قطته وهي تتمدد فوق صدره متغنجة.
دعك عينيه بغرفته المظلمة التي أغلق نافذتها وأسدل ستائرهما
منذ وفاة حبيبة، فلم يعد يعرف ليلاً من نهار.
نهض من دون أن يغسل وجهه، ثم اتجه إلى المطبخ وجمع كل
طعام قطته. ذهب إلى الشرفة، أخذ منها صندوق الرمل المعطر،
وأخرج من دولابه الصندوق الخاص به.
كان سيعيد غلق الدولاب، لكن استوقفه تمثال سوبك التمساح
يجاور تمثال أمه الذي نحته له هادي.
ربت على التمثالين، ثم أغلق الدولاب.
وضع قطته في صندوقها، وحمل كل ما يملكه، واتجه إلى جارتها
المسنة وطلب منها أن تعتني بالقطة حتى عودته من السفر.
وافقت بابتسامة لطيفة ولمسات حنون على كتفه وكلمات طيبة،
فمن يجروء على رفض طلب للجار الهادئ المسالم الذي فقد ابنه
وزوجته الحامل؟

عاد سالم إلى شقته، وجلس على فراشه المقابل للتلفاز، فتح الكومود وأخذ منه مسدسه.

تمم على الرصاص بخزينة المسدس، شد أجزاءه، ووجّه فوهته خلف أذنه، وهمّ أن يضغط على الزناد لينفذ قراره الذي اتخذه ليلة بكى - على صدر جثة حبّية، سيققص لأسرته ثم ينتحر.

رن هاتفه، وظهر على شاشته اسم لم يتصل به طيلة عمله مع سلطان إلا مرة واحدة.

رفع إصبعه عن الزناد، لكن لم يُنزل المسدس عن رأسه. تأمل الاسم، لماذا تتصل به الآن؟ أهى الأخرى تسعى للانتقام منه؟ استسلم، انتشل الهاتف من على الفراش، وأجاب من دون أن يُنزل المسدس عن رأسه، وقال:
- ألويا دكتورة آمنة.

أتاه صوتها المميز الذي يليق بسوبرانو أوبرالية شابة، فيستحيل أن تظن أنها على مشارف الستين، وهي تقول:
- افتح التلفزيون على قناة «الخبر».

استغرب الأمر، ظن أن آمنة قد ترسل أحد رجالها لينهي حياة سالم ويخفيه من على وجه البسيطة حتى لا يعرف له الذباب الأزرق طريقاً، ولكن أن تدعوه لمشاهدة التلفاز؟ اضطر إلى أن يُنزل المسدس عن رأسه، ويأخذ ريموت التلفاز من على الكومود.

توسّطت الشاشة صورة لكهل، شعره فضي أملس، وشاربه مبروم

ينزع عنه وقار الصورة النمطية لطبيب النساء، فصاحب الصورة كان الدكتور رفعت نزيه.

من أسفل صورته، امتد شريط أحمر كُتب عليه بالبنط العريض:
القبض على الطبيب مسمّم الحوامل بعيادته في
المعادي.

رفع سالم صوت التلفاز لينصت للمذيعه التي تقرأ الخبر باللغة
العربية الفصحى:

- وقد تم القبض على طبيب النساء والولادة الشهير رفعت
نزيه بعيادته بعد ربط جرائم قتل تسع نساء بمحيط منطقة
المعادي - حيث عيادته - مُسمّات بمادة «الريسين»، وقد
أفادت التحقيقات أن دافع الجريمة هو رغبته المختلة في تقليل
الزيادة السكانية. وعليه، تم إيداعه بالخانكة إلى حين عرضه
على لجنة من خبراء الصحة العقلية لتقييم مستوى قواه العقلية.
سمع أنفاس آمنة عبر الهاتف، وصوت كركرة شيشتها، ثم قالت
بصوتها الجذاب:

- ربطت الأمور ببعض؟

قطّب سالم وهو يسترجع ما صار.

رفعت حقن حبيبة بمادة أقنعها بأنها ستهدئ احتقان ونزيف أنفها
ولثتها المستمر، وبعدها ماتت مسمومة.

أهذا التفسير المنطقي للأمر؟ أكان مقتل حبيبة مجرد مصادفة
لوقوعها ضحية في يد طبيب مجنون قرر أن يقتل الحوامل لتقليل
الزحام بالشوارع؟

أصادف أن يتبع هذا تهديد سلطان له بيوم؟
ثلاثون ثانية، كانت كل ما يحتاج إليه حتى يربط التفاصيل ببعضها
وتنكشف أمامه الحكاية.

قال لآمنة:

- استني أخلص عليهم وبعدها خدي حق أخوكي.
- أنا لو عايضة آخذ حق سلطان منك إنت وصاحبك، كان زمان
يرقات الدبان الأخضر عاملين عزومة على جثكم.
- يعني عرفتي؟
- إن أخويا قتل بنتي؟ أكيد.
- أفهم من كده إن مش فارقلك إني قتله؟
- أفهم من كده إن أنا اللي خليتك تقتله.
- أنا ما أخذتش أورد منك يا دكتورة.
- متأكد؟

- مش فاهم.
- فكر. أنا عارفة إنك شاطر وتهجيبها. خلص على اللي استكردوك
وكلمني. ده لو حابب تبقى المايسترو الجديد.
- أغلقت الخط في وجهه وتركته بمفرده، على يمينه مسدسه، وعلى
يساره هاتفه، وأمامه التلفاز الذي يعرض صورة قاتل زوجته وجنينها،
وفي رأسه ألف سؤال وسؤال.

* * *

انطفأ وهج شعرها الأحمر حين صبغته بالأسود لتعطي نفسها
مظهرًا وقورًا يليق بكونها شوشو شوكت، سيدة الأعمال ووريثة

ملايين زوجها القتل الذي ما زالوا يبحثون عن قاتله، ولتحبك الدور،
ظلت ترتدي الأسود حدادًا على مَنْ قُتِلَ بأمرٍ منها.
وقفت أمام المرأة تكحل عينها بعد أن ارتدت بدلتها الأنيقة
القائمة، وزينت عنقها بالألماس، وكذلك أصابعها الرفيعة نائفة
العظام، ومعصمها.

رشت عطرها الباهظ، ثم أتاها صوت صغيرها:

- يا مامي يلا، هنتأخر على الـ «party».

- حاضر يا حبيبي، روح للناني علشان تلبسك الشوز على ما
الشوفير ييجي.

- أوكيه.

خرج ليركها تتم زينتها، ولكنها كانت متعجلة لشيء آخر.

دخلت حمّام غرفتها، وأوصدت بابه بالمفتاح.

أغلقت غطاء مقعد الحمّام، وأخرجت تذكرتها لعالم الهلاوس

والتخدر من صدريتها كما اعتادت.

نشرت الكوكايين في خط. لفت ورقة مائتي جنيه وحولتها إلى

شفاطة، شفطت بها الكوكايين بثقب أنفها، فانتشت وهوت بجوار

الحمّام مسندة ظهرها إلى طرف البانيو.

ارتفعت روحها عن جسدها للحظات، لكنها رأت العنكبوت

القاتل ذاته يتسلق سقف الحمّام الأنيق ويغزل خيوطه، لينزل متأرجحًا

على خيط منها ويقف أمام وجهها.

كان يُصدر صوتًا غريبًا كأزيز الرصاص.

شعرت به يهز باب حمّامها ويحاول أن يدير مقبضه، يا له من

عنكبوت مخبول، لمَ قد يحاول فتح باب الحمام وهو بداخله بالفعل.

حين رُكِّل باب الحمام ودخل الزائر المسلح، فَهِمت أنها لا تهذي ولا تحلم، وأن ما يدور حولها ليس من تأثير الكوكابين.

فجأة، وجدت سالم يقف أمامها ممسكًا بمسدس ويسألها بهدوء:
- قتلتيهم ليه؟

أجابته بعينين زائغتين ولسان أثقله الكوكابين:
- قتلت مين؟

لم يتبدل خدر البودرة البيضاء إلى يقظة إلا حين أصاب سالم كتفها بطلقة ورُكبتها بأخرى، فصرخت بعنف والدماء تندفع من ثقبَي الرصاصتين.

- قتلتي حبيبة وولادتي ليه؟

تشنجت وصاحت وهي تضغط على موضع كل رصاصة بيد، وأنفاسها تتصارع، ودقات قلبها تتنافس، حتى وجدت كلمات دافعت بها عن حياتها:

- أنا ما قتلتش حد.

لمحت مالك الصغير يقف خلف سالم ويهم أن يركض صوبها فور أن رآها تبكي، فبكى مرعوبًا وهو يناديها:

- مامي!

جذبه سالم من ملابسه، وصَوَّب مسدسه حيث رأسه الصغير، فصرخت شوشو:

- لا، لا، يا سالم، هو ملوش دعوة.

- أو مال مين اللي ليه؟

بكت مرتاعة على صغيرها.

- هادي اداني كارت الدكتور اللي سمّها. أنا ما أعرفوش ولا

عمري قابلته. هادي اللي ظبط معاه كل حاجة، وقال لي أخلي

حبيبة تروحله مقابل إنه يقتلي سراج. ما كنتش أعرف إنه

هيقتلها، والله العظيم ما كنت أعرف، أنا اتصدمت زي زيك.

شعر سالم بأن كلامها عجيب وغير منطقي، لم يحرض هادي

على قتل حبيبة من خلال طبيب مجنون بالزيادة السكانية؟

تذكر شيئاً، تلك الجملة التي قالها هادي له في المصعد بعد أن

قتلها الطيبة النفسية سلوان:

«ده أنا ليا صاحب بيقتل بدون أي مقابل مادي علشان يقلل

الزحمة. فاكر نفسه ثانوس بروح أمه».

التفت سالم إلى شوشو التي تنن ألماً وتنظر إلى ابنها الباكي

ذعرًا، ثم سألتها:

- ليه؟

- ما أعرفش. والله ما أعرف. سيب مالك. هو ملوش دعوة

يا سالم، سيب ابني.

- بس إنتي ما سيبتيش ولادي.

تناثر على وجهها دماء صغيرها الذي أصاب سالم رأسه برصاصة

قصاصة.

صرخت وصاحت وزحفت حتى جثة صغيرها وهي تطلب العون

والنجدة وتبكيه بحرقة.

تركها سالم حية بضع دقائق ليراقبها تذوق ما أطعمته حين أنهت على حياة صديقة عمرها وجنينها بدم بارد.

تركها تنتحب وتئن وتنوح، حتى جعلها تلحق ابنها برصاصة أخرى أنهى بها سالم قصة شوشو الغانية التي لا عهد ولا ذمة لها.

* * *

داعب شعره فسقطت بضع شعيرات بين أصابعه. نفّض الشعر عن يده بمرارة، ثم نظر إلى مَنْ حوله بالكافيه باريسى الطابع.

كان على جدرانها ورق حائط ملون لبرج إيفيل وقوس النصر واللوfer، ولكن الصورة الأقرب إلى قلبه هي تلك التي بالزاوية لإيديت بياف، رافعة يديها إلى أعلى مناجية جمهورها.

أحب موسيقى الأكورديون التي مزّجته، وراقت له القهوة الفرنسية التي وضعها له النادل الطائف بين طاولات الكافيه الذي يشبه المكعب الزجاجي، فتخترقه شمس الظهيرة، وتسكن الحركة حوله بسبب موقعه أسفل أغصان شجر المعادي، فوهبه مكانه الهادئ انطباعاً بالعزلة عن حركة المشاة والسكان وضجيج السيارات.

ارتشف هادي قهوته، ونفث دخان سيجاره، وتابع حركة النادل الذي يُنزل المخبوزات والمشاريب على الأفراد العشرة الجالسين بأطراف الكافيه على الأرائك الحمراء ذات الوسائد السوداء.

ظل يتأمل ما يدور حوله، إلى أن ابتهجت ملامحه وانفرجت أساريره حين رأى سالم يصف سيارته على الحيد المقابل للكافيه أسفل الشجر.

ولج سالم الكافيه، وجلس قبالة هادي، وتأمله بملامح خالية من التعبير.

ابتسم له هادي قائلاً:

- أحسن دلوقتي؟

لم يُجِبْه، لكن ذلك لم يمنعه عن الكلام:

- أنا شايف إنك محتاج تغير جو، إيه رأيك لو سافرنا؟ عندي فيلاً في زانزيبار و...

- قتلتهم ليه؟

تفاجأ، لكنه غطى على صدمته بأن ضحك بتوتر وهو يحك وجهه، ثم قال:

- مين فيهم؟

- مراتي وولادي.

- أنا يا سالم؟ إيش حال إن سلطان هو اللي...

- إنت اللي قتلتهم. لبست زي سلطان، وقتلت أدهم بطريقة

مفيهاش دم، وخليت عيشة تقنع حبيبة تروح لرفعت صاحبك

علشان الصورة تكتمل. سلطان ما أنكرش علشان يفضل

المايسترو اللي الكل بيخاف منه ويعمله حساب، واستغل

اللي جرالي علشان أبقي عبدة لباقي صبيانه. بس إنت اللي

خططت ونفذت كل ده، وكمان خلتنني أقتل سلطان لمزاجك.

- مش لمزاجي! لمزاج آمنة.

- فتنلها على سلطان؟

- ما هي كانت فاكدة إن أنا اللي قتلت هايدي من دماغي. لقت

بصمتي، ولما شرّحت هايدي بنفسها لقت إن جسمها فيه
ويسكي، وهايدي ما تشر بش غير فودكا. وشندويلي الزفت
قالها إن آخر واحد خرج من الحفلة مع هايدي كان أنا.

- المفروض أقتنع إن آمنة عرفت إن سلطان أمرك بقتل بنتها،
فقررت تقتل ابني ومراتي وتلبسها لسلطان علشان أنا أتقلب
عليه وأقتله؟ ده مش شغل آمنة. آمنة بتخلص ألمانى من غير
دوشة، من غير رصاص. الأفورة الأمريكانى دي شغلك إنت.
عملت كل ده ليه؟

ارتشف هادي باقى قهوته الفرنسية، ثم نظر صوب الزجاج حيث
الشارع الساكن، ثم تنهد وقال:
- علشان خايف عليك.

- قتلت كل اللي ليا فى الدنيا علشان خايف عليا؟
ضرب هادي الطاولة براحتيه، وأجابه مغلولاً غاضباً ضاغطاً
على ضروسه:

- ما تقولش كل اللي ليك فى الدنيا. مراتك وعيالك دول دمروك.
اللي ما تتسمى دي ملت دماغك بأفكار فارغة، وأوهمتك بمرض
مش عندك، وخليتك تسبب شغلنا وحياتنا علشان تقعد فى البيت
تقشر لها برتقان وتسيبني أنا لوحدي بعد كل اللي كان بينا.
- هو إيه اللي كان بينا يا هادي؟

- الصداقة، الشغف، عشرة سنين أطول من معرفتك بحبيبة الزفت
دي. ستة وعشرين سنة يا سالم رميتهم فى الزباله علشان الست
هانم بتقولك إنك سيكوباتي. جوازك ليها خلى إيدك ترتعش

وقلبك يخاف من الموت. ده وضع مقرف أنا ما أقبلش أشوفك فيه. الدَّعْش كان عنده حق، إنت ربطت نفسك وما كانتش هترجع تطير تاني غير لما جذورك تتقلع من الأرض، وأنا عملت ده بالنيابة عنك. أنا حررتك منهم.

- يعني إنت ما عملتش كل ده علشان تثبت لآمنة إنك تعرف ترسم وتخطط فتخليك المايسترو الجديد؟

ضحك هادي ساخرًا من سذاجة تفسير صاحبه للموقف:

- لو ده طموحي كنت قعدت مكان الدَّعْش من زمان. إنت ليه مش قادر تصدق إني عملت كل ده علشان بحبك وخايف على مصلحتك؟

حذق سالم إلى الفراغ بصمت، حتى أتى النادل ووضع كوب شاي بالنعناع أمامه من دون أن يطلبه.

ابتسم هادي شاكرًا النادل، ثم نظر إلى سالم بحنان قائلاً:
- طلبتلك الشاي اللي بتحبه.

رحل النادل النحيل، وظل سالم يحدق صوب الشارع عبر الزجاج. زفر هادي بضيق بسبب انزعاج صديقه منه، فقال وهو يفتح أكياس السكر الأبيض، ويضعها في كوب سالم ويقلبه له:

- أنا عارف إنك متضايق. بس لو خدت نفس عميق وفكرت هتعرف إني عملتلك خدمة. آمنة هتخليك المايسترو. إنت فاهم إنت داخل على إيه؟ هل كان ممكن تعمل ده والمدام والأولاد شبطانين فيك؟ أنا أنقذتك من حياة كلها فينو وبامبرز، وخد ارمي كيس الزبالة وإنت نازل والشغل الضيق ده.

توقف هادي عن قلب السكر، ووضع كفيه فوق يدي سالم
كثنائي حديث الخطوبة.

التفت إليه سالم بعينين خاوتين، وأنصت له وهو يقول:
- أنا فاضلي في الدنيا كام شهر. مفيش حاجة مخوفاني من الموت
غير إني أسبيك وما تلاقيش حد يوجّهك ويعلمك الدنيا زي.
مممكن تطمني وتقولي إنك هتشوف في موت مراتك وولادك
فرصة حقيقية لإنك تبدأ حياة جديدة وسعيدة وقوية تستحقها؟
مط سالم شفتيه، وهز رأسه كأنه يؤمّن على كلام هادي.
سحب كفيه من راحتي صديقه بهدوء، ثم عدّل نظارته، وقال بعد
صمت طويل:

- استناني هنا.
ابتسم هادي وهز رأسه موافقًا، وراقب سالم ينهض عن كرسيه
ويترك الطاولة متجهًا إلى الباب.

دلف سالم الشارع الضيق بخطوات هادئة، ووجهه يخلو من أي
تعبيرات وهو يُخرج من جيبه مفتاح سيارته.
وقف أمام «الماتريكس» المتربة التي جلست على سقفها قطة
رمادية صغيرة. حملها سالم بحنان، وربت على رأسها، ثم أنزلها
أرضًا برفق.

فتح صندوق السيارة الخلفي، وأخرج منه حقيبته الرياضية
متحسبًا محتواها ليتأكد من الراقدة بداخلها.

حملها بخفة، ثم أغلق السيارة عائدًا إلى الكافيه.
راقب هادي محيطه، ينصت لثرثرة الجالسين بالكافيه من شباب

يمارسون أعمالهم على اللابتوب بينما يحتسون الكابتشينو، وسيدات
أرستقراطيات لا يكففن عن النيمة.

صوت حركة النادل الخفيفة بوسط الكافيه، ضجيج الخلطات
التي تزمجر من وقت إلى آخر، ضَغْط بخار ماكينة القهوة.
ساد هدوء الظهيرة إلى أن قطعه أزيز الباب ودخول سالم على
بداية موسيقى أغنية دَبر القدر أن تُعزَف الآن:

لا، لا شيء، لا، أنا لست نادمة على أي شيء

لا على الخير الذي فعلوه لي

ولا على السوء الذي أصابوني به

كل الأمور عندي سواسية

شاهد هادي ما يفعله شريكه بابتسامة راضية.

وقف سالم عند الباب بهدوء شديد وملامح خاوية، وبيده حقيبتة
الرياضية.

أغلق باب الكافيه، واستند إليه مولياً ظهره له وهو يضع الحقيبة
أرضاً فاتحاً إياها مخرجاً منها كلاشنكوف «AK-47» بسلاسة، فلم
يلاحظ ذلك غير هادي والنادل الواقف بالقرب من غرفة العاملين.
ركض النادل صوب الغرفة ليختبئ، بينما عمّر سالم سلاحه ورفع
كلاشنكوفه وأمطر الرصاص على كل الجالسين، ليرتفع أزيز طلقاته
مغطياً على صوت بياف.

خيم الموت على كل مرتادي الكافيه بسرعة خارقة تليق بمساعد
عزرائيل الذي جال بفوهة سلاحه من طاولة إلى طاولة، ومن شخص
إلى شخص، وهو يرددهم برصاصه.

نهض هادي وضحك منتشياً وصفق كالمجذوب:

- حمد الله على السلامة يا سالم!

رفع رأسه بشموخ، وفتح ذراعيه ووقف وقفة تطابق وقفة بياف في الصورة المرسومة على الحائط، وهو يهمس إلى نفسه متمماً خلفها بالفرنسية:

لا، لا شيء، لا، أنا لست نادمة على أي شيء

الندم يدفع ويكتسح ويُنسي

وأنا الماضي لا يهمني

لا، لا شيء، لا، أنا لست نادمة على أي شيء

قلَّ صريخ الاستنجاد مع انخفاض أعداد القلوب النابضة بالكافيه، وزيادة عدد الطلقات التي تطير من كلاشكوف سالم صوب رؤوس ضحاياه، وبسقوط آخر قتيل ساد الصمت.

لم يتبقَّ سوى ذلك الذي يظن نفسه واقفاً على خشبة المسرح، منشداً لجثث الموتى المتناثرة على الطاولات والغارقة في دماءها. التفت هادي إلى سالم الذي يقترب منه بنظرات تستعر غضباً وغيظاً وهو يحمل سلاحه.

فهلل هادي، وضحك قائلاً بحماس:

- قتلتك. مش هلاقي أعز منك يقتلني يا صديقي.

ضربه سالم بكعب البندقية على وجهه فكسر له أنفه، وانسابت دماؤه.

لم يعطه فرصة كي يتألم، باغته بضربة أقوى أسقطته أرضاً.

اعتلاه سالم وهوى عليه بكعب البندقية للمرة الثالثة، وهو يقول بغل:

- وأنا.. قتلتك.

ضربه ضربة أعنف نثرت دماءه على وجه سالم ونظارتها:

- ما.. بحبش.. حد....

سمع صوت طرقعة عظام وجهه تتهشم وهو يهوي عليها بكل ما أُوتي من قوة:

- ييجي.. عليا.

ألقى سالم البندقية بجواره، وحَوَّل وجه صديقه إلى كيس ملاكمة يفرغ فيه غضبه، فتطايرت الدماء على نظارتها وهو يصيح ويكرر:

- ما بحبش حد ييجي عليا.

نهض وانتشل الكلاشنكوف، ثم فرَّغ الباقي من رصاصه بكل شبر من جسد صديقه السيكوباتي.

- ما بحبش حد ييجي عليا.

كررها ثانية، ثم صاح وصرخ مُنفَسًا عن سخطه واحتجاجه على واقعه، فثار عليه نبضه وتمردت أنفاسه، حتى لهث وآلمته ذراعاه، فتوقف عن ضربه ووقف عند رأسه يتأكد أن أنفاسه قد انقطعت.

طُمِسَتْ ملامحه من شدة الضرب، واجتاحت جسده الثقوب حيث موضع الرصاصات.

وهكذا مات عاشق إيديت بياف المتعطر بالروائح الفرنسية، وانتهت حياته النهاية الملحمية الدموية التي كان يرجوها عوضًا عن أن يموت في صمت على فراش المرض.

قُتِلَ الذي ذاق العذاب جنينًا، فرضيعًا، فطفلاً، فمراهقًا، فشكلته المآسي، وظن نفسه قادرًا على أن يُذيق الدنيا كأسها المرة، فيصير معذبها بدلًا من ذليلها، ولكن ما من متخذ للحياة عدوًّا إلا وغلبته.

ترك سالم جثة صديقه، واتجه كالروبوت صوب غرفة العاملين حيث اختبأ النادل.

فتح الباب بهدوء، ودلف الغرفة بعينيه الراكزتين وقد راح عنه كل الغل والغضب اللذين أفرغهما بجسد هادي.

كانت الغرفة صغيرة وضيقة، بها كرسي عليه ملابس النادل، وحقيبة رياضية رخيصة، وبالزاوية أدوات نظافة.

وقف سالم بجوار الباب، وارتدى حزام الكلاشنكوف فتدلى على ظهره، بينما أخرج منديلًا من جيبه، وخلع نظارته لينظف عنها دماء صديقه.

تكلم بنبرة هادئة لا تتماشى مع دموية جريمته.
- اتصل بالبوليس. قولهم فيه واحد مجنون قتل الموجودين في الكافيه.

لم يسمع ردًا، ولكنه أنصت لتلك الأنفاس المضطربة الباكية خوفًا.

أنهى سالم تنظيف نظارته، وأعاد المنديل إلى جيبه من دون أن ينظف الدماء من على وجهه أو يده، ثم أردف بنبرة فاترة ملولة وهو يرتدي نظارته:

- قدامك خمس ثواني لو ما طلعتش هتحصلهم.

لم يسمع صوت أو حركة النادل، فبدأ العد:

- واحد.. اثنين.. تلات...

قطع عده البطيء صرير الباب حين خرج النادل الذي كان مختبئًا خلف الباب المفتوح وهو يتصبب عرقًا ويرتعد رعبًا.

وقف أمام سالم متوسلاً:

- بالله عليك ما تقتلني...

قاطعه سالم بنبرة حيادية وهو يُخرج هاتفه من جيبه قائلاً:

- كلمهم من موبايلى.

وضرب أرقام النجدة الثلاثة، ثم ناول الهاتف للنادل.

أخذ الهاتف بأصابع مرتعشة وهو ينظر إلى سالم بشك وخوف،

فتكلم بنبرة مهزوزة:

- ألو! الحقونى، فيه واحد...

قطع سالم كلامه وهو يشير إليه بعلامة «مجنون»، فأردف منفذاً

التعليمات:

- فيه واحد مجنون دخل الكافيه ببندقية وقتل الزباين. موّت...

فتح سالم أصابعه العشرة ليعرفه عدد الضحايا:

- موّت عشرة. بالله عليكم الحقونى، الكافيه في شارع متطرف

مفيهوش صريخ ابن يومين و...

- معلش، قولهم إني قتلت حداشر واحد علشان نسيت أعدك.

انطلقت رصاصة أخرى من كلاشكوف سالم أردى بها النادل.

تركه يسقط قتيلاً، وخرج من الغرفة متجنباً أن يدعس على أيّ

من الجثث التي تحيط به.

عاد إلى الجلوس إلى الطاولة التي كان يجلس إليها هادي.

نظر إلى كوب الشاي بالنعناع الذي طلبه صديقه المرحوم.

نجا الكوب من دون أن تصيبه رصاصة أو يتعكر بدم أحد، والأكثر

دهشة أنه ما زال ساخناً.

ارتشف سالم من الكوب، إنهم حقًا يجيدون إعداد الشاي بهذا الكافيه.

استغل لحظة الاستمتاع بشاي العصاري تلك، وأخرج من جيبه علبة سجائره وقداحتة، وجلس على كرسية ينفث دخانه. استمرت إيديت بياف التي يمقت حدة صوتها في الغناء، فقام بمهمة أخيره. أطلق أربع رصاصات من كلاشنكوفه، وأصاب سماعات الكافيه الأربع ليُخرس معشوقة صديقه السيكوباتي إلى الأبد.

الفصل الثاني والعشرون

- قال المقدم وليد عطية لسالم المكبل أمامه بالأصفاد على الكرسي المقابل له في مكتبه بالقسم:
- بس إنت شكلك مش مجنون.
- سأله سالم ببرود:
- وهما المجانين شكلهم بيبقى عامل إزاي؟
- مش هتقولي قتلتهم ليه؟
- كان معايا رصاص زيادة مش عارف أعمل بيه إيه.
- الاستهبال ده مش هيطلعك بريء.
- مطَّ شفتيه وأجابه بفتور:
- الحقيقة، محدش فينا بريء. لا أنا ولا اللي قتلتهم ولا هادي ولا سلطان ولا شوشو ولا حبيبة ولا أدهم ولا التوأمين اللي مالحقوش يخرجوا من بطنها. تصدق، ولا حتى حليلة؟ إحنا من نسل قابيل. كلنا ولاد القاتل ابن العاصي اللي أكل التفاحة. كلنا خطَّائين.
- طب يا أستاذ سارتر مش عارف أشكرك إزاي على الخطبة اللي

ملهاش ثلاثين لازمة دي. خلصني. إيه دافعك ورا عملية القتل

الجماعي دي؟

- تقليل عدد الخطّائين على الكوكب.

* * *

لم يحتج الأمر إلى كثير من التحقيقات ليتقرر إيداع السفاح الفيلسوف ابن قابيل القاتل وحفيد آدم العاصي بالخانكة لمدة خمسة وأربعين يومًا، ليعرض على لجنة من الطب الشرعي لتحديد قواه العقلية وتشخيصه.

نُقل إلى جناح الرجال في سيارة مستطيلة بترولية اللون، تخطت بضع بوابات ومحطات تأمين وتفتيش، إلى أن استقرت أمام جناح الرجال.

هبط منها سالم، وخمسة متهمون آخرون، هابوه لأنه صاحب أكبر عدد ضحايا بينهم.

شخللت الأصداف بأيديهم وهم يعبرون بوابة معدنية موصدة بمفاتيح عملاقة، ويتمون الإجراءات والتفتيش الذاتي، حتى وصلوا إلى العنبر الذي تطوف بسقفه عشر مراوح تصدر أزيزًا مزعجًا فوق أسرة خشبية مراتبها رفيعة، أكلها الدهر بترابه وحشرات.

ارتفعت الأسرة بضعة سنتيمترات عن الأرضية المتربة ذات البلاطات العارية الداكنة، فجلس سالم على فراش خاو أسفل النافذة ذات القضبان الحديدية الضيقة، التي حتى وإن استطعت أن تصل إلى ارتفاعها الشاهق، لن تقدر على تمرير خنصرك من خلالها.

قابل فراش سالم، فراش الفريسة التي ارتكب جريمة الكافيه وقتل

هادي علانية، وأدعى الجنون خصيصاً ليودّع في الخانكة، ويصل إليها، الدكتور رفعت نزيه.

دخّن الخمسيني صاحب الشعر الفضي غليونه بأرستقراطية، وراقب النزلاء الستة الجدد بعجرفة وامتعاض، ونظر إلى العسكري الذي لم يرحل عن العنبر من دون أن يتأكد أن كلاً جلس على فراشه بلا متاعب، فوجه إليه الحديث بضيق:

- كده كثير. عشرين نفر في نفس المكان يبقى زحمة، وثاني أكسيد الكربون هيزيد في العنبر، وهنموت مخنوقين.

صاح فيه العسكري إقليمي اللكنة:

- اسكت يا مسجون، وهات الزفت اللي بتدخنه ده.

- لو جدع تيجي تاخده وأنا أخلي اللوا تحسين سرور يعرف شغله معاك.

- اللهم طولك يا روح.

قالها العسكري وهو يخرج من العنبر، ويوصد بابه من خلفه.

أكمل الدكتور رفعت تدخينه وهو يتأفف من زملائه ويقول:

- يعني مش كفاية زاحمين المكان، كمان جاين تخنقونا بريحتكم. باتنين جنيه شبة سايبه يا إخوانا هنتعمي.

غطى أنفه بياقة سترته الرياضية القطنية ذات الماركة الباهظة التي لا تليق بنزلاء الخانكة.

ألصق ظهره بالحائط المتصدع، وصار يُنزل ياقة سترته ليسحب نفساً من الغليون، ثم يعيدها ثانية ليقفل من وطأة رائحة العرق التي سيطرت على أنفه.

نهض سالم عن فراشه واقترب منه، فرمقه رفعت بضيق، وأخذ يراقبه حتى تأكد أنه يقترب صوبه.

صاح فيه مهدداً إياه:

- أنا من طرف اللوا تحسين سرور، لو قربت مني هـ...

- أنا جايك من طرف هادي.

صمت الطبيب، ثم رمق سالم بضيق وقال:

- ده مش مبرر علشان تخترق مساحتي الشخصية وتقعّد على سريري. مش ناقص تلزيق.

- واللي يخلصك من التلزيق ويقعدك في أوضة لوحذك؟

رفع حاجبيه بفضول، لكنه لم يعلن اهتمامه، فسأله بتعالٍ:

- ومين قالك إني عايز أقعد لوحدي؟

- يبقى أنا فهمت غلط.

همّ سالم أن ينهض، لكن رفعت استوقفه بضيق قائلاً:

- استنى يا بتاع إنت. أقعد لوحدي إزاي؟

- في العزل.

- العزل ده للي خطر على اللي حوالهم. وأنا لا خطر ولا مجنون.

مش ذنبي إنكم شوية بقر مش فاهمين إن الكوكب على شفا

حفرة هلاك بسبب العيال اللي بتزربوهم ليل نهار لحد ما مش

هنلاقي ناكل حتى من خشاش الأرض. على العموم، أنا كده

كده مش مطول هنا، ومعارفي هيخرجوني.

- ومن هنا لحد ما يخرجوك، هتفضل قاعد وسط الأوباش

العرقانيين دول؟

أعاد تغطية أنفه، وقال:

- أنا ما أقدرش أورط نفسي في مشاكل أكثر من كده علشان موقفي ما يسوءش.

- اللي تشوفه. بس لو احتجت حاجة أنا موجود.

- صحيح. إنت قتلت مين؟ أو خرينا في الأهم، المصريين قتلوا كام واحد؟

- أنا بقالي ستة وعشرين سنة بقتل بمعدل شخصين في الشهر. أحياناً أكثر.

صفق رفعت بفخر:

- أحييك. طول ما فيه ناس زيك وزى هادي مش هنستنى لا كوليرا ولا طاعون ولا حرب عالمية تالته علشان نحافظ على مصادر البلد.

* * *

فجرًا، غط رفعت في النوم.

على الرغم من أنه كان يُشخر كالخنزير بطريقة جعلت من حوله يظنونه غارقًا في نوم عميق، فإن كابوسًا كان يقبع على صدره.

كان يرى نفسه على طبليّة خشبية دائرية عليها سبع بنات وأب وأم يتصارعون على لقيمات الخبز وغموس الفول، وفجأة رأى نفسه يتحول إلى غول غائر الفم عملاقه، ينهض عن الطبليّة الداكنة، ويبدأ بابتلاع الفتيات السبع الواحدة تلو الواحدة خالغًا رؤوسهن، مهشمًا عظامهن، لا تَكَّا لحمهن بين أسنانه الحادة السوداء، لتنبع من فمه رائحة شنيعة، استيقظ من بشاعتها وهو يلهث.

جلس في فراشه وتلفت حوله.

كاد يمد يده نحو الكومود ليسحب كوباً من الماء يشربه، ومندياً
يمسح به عرقه، لكنه أدرك أنه لم يعد بمنزله المترف، بل هو سجين
عنبر المجرمين بالخانكة، ولا كومود ولا ماء ولا مناديل حوله.
مسح جبينه بكمه، وأخذ بضعة أنفاس عميقة، فعلى الرغم من أن
هذا الحلم يلاحقه منذ أن كان في السابعة من عمره، فإنه لم يتوقف
عن الشعور بالذعر كلما راوده.

كان رفعت الصبي الأول والأخ غير الشقيق لسبع بنات يكبرنه،
أنجبتهن زوجة حارس عقار تلك البناية الأنيقة العريقة بحي المعادي
التي تُسَعَّر شققها بالأصفار الستة.

حين تأكد الحارس أن رحم زوجته لا تنبت سوى إناث، قرر أن
يطلّقها بعد أن أنجبت له سبع بنات، وتزوج صبية من الريف أنجبت
له ابناً أسمته رفعت لأنه رفع رأسها أمام زوجها.

سكنت زوجة الأب ورضيعها بغرفة الحارس الضيقة التي بالكاد
تكفي ثلاثة أفراد، فما بالك بعشرة؟

إلى أن أتم رفعت عامه السابع، كان يعيش صراعاً يومياً على مَن
سينتشل لقمة الخبز ويغمسها بالفول قبل أن يجذبها منه الآخر. مَن
سيدخل الحمام أولاً قبل أن يبول الآخر على نفسه. مَن سيشرب
الماء ويرتوي قبل أن يفرغ الزير. مَن سيلحق المكان الأريح على
البلاط لينام على ظهره لا جانبه، ومَن سيجذب طرف البطانية
ليتدفأ شتاءً.

ولأنه الصبي الوحيد والابن الأثير المنتظر، كان الوحيد بين

الأبناء الثمانية الذي التحق بالمدرسة الحكومية بالعزبة المحيطة
بحي المعادي، ولكن حتى بالمدرسة كان يخوض الصراع ذاته.
مَن سيركض خلف أتوبيس النقل العام المتهالك ليلحق لنفسه
مكانًا يكفي للوقوف على ساقٍ واحدة حتى الوصول إلى وجهته! مَن
سيكسب السباق بين مائة وعشرين طالبًا ليجد لنفسه مقعدًا يجلس
عليه بربع مؤخرته كي لا يظل واقفًا طيلة اليوم الدراسي على ساقيه،
ولا بأس إن كسب ذاك السباق بضرب وصفع وركل ولكم وقرص
زملائه للفوز بمسافة عرضها عرض كفه للاتكاء عليها! مَن سيكسب
سباق الحفاظ على وجبته من دون أن يضربه أحدهم وينتشل منه قطعة
الحلاوة ومثلث الجبن ورغيف الخبز ذا المسامير أو أعقاب السجائر
وبرتقالة ملوحتها تصطك لها الأسنان!

كان رفعت يخسر كل تلك السباقات، ويسمح للجميع بلطمه
وإسقاطه ودفعه للحصول على كل ما يملكه من حق في الحياة
والراحة والدفع والمأكل والملبس والتعليم.

لم يفهم رفعت قَطُّ السبب في كل تلك المعارك الخاسرة التي
يقودها، لماذا يخوض تلك الصراعات بينما يرى أبناء سكان البناية
يعيشون حياة هادئة خالية من الركض حرفيًا للحاق بلقمة العيش،
إلى أن كلمهم مدرس اللغة العربية عن الكثافة السكانية وخطورتها
على المجتمع، وقال:

- يعني لو كل واحد فيكم أهله كانوا خلفوا عيل واحد ما كانش
زمانكم راكبين فوق بعض كده على دكة يا بقريا ولاد البقر.
رفع رفعت يده وسأل أستاذه ببراءة:

- يعني إخواننا هم السبب يا أستاذ؟

- آه يا جالوس الطين. افتحوا الكتاب على صفحة عشرين وكرروا

ورايًا: «يجب تنظيم النسل لضمان حقك في الحياة».

حفر رفعت تلك الجملة بعقله، وأخذ يفكر.

إذا لم يكن لديه سبع أخوات، لكان استأثر بطبق الفول كله، وشرب من الزير حتى ارتوى، ودخل الحمام متى هوى، ونام وتمدد وارتخى وتغطى وتدفاً وغفا بلا شقاء.

يجب تنظيم النسل لضمان حقك في الحياة.

أدرك ابن السابعة ضرورة إصلاح خطأ أبيه، ولكن كيف له أن يُعيد الزمن ويقنعه بألا يسهب في الخلفة؟ كيف له أن يمحو وجود سبع بنات من على وجه الأرض؟

أعطته أمه الإجابة على طبق من ذهب حين لاحظت أسنان الجرذان بالصناديق الكرتونية التي تخزن بها الطعام، فاشترت سمًّا للفئران. لم تكن تعلم أنه في الصباح التالي سيأخذ رفعت السم ويدسه بطبق الفول المخصص لأخواته ويجالسهن على الطبلية ليشاهدن يتصارعن فيما بينهن على ابتلاع السم، فيما امتنع هو عن الأكل من دون أن يلاحظه أحد.

ارتدى ملابسه، وربط حقيبته القماشية، وتراقص في طريقه إلى المدرسة مفكرًا في طبق الفول والخبز الذي سيأكلهما بمفرده غدًا، والحمام الذي سيستخدمه بمزاج حين رجوعه.

ظل اليوم كله شاردًا غارقًا في أحلام اليقظة الوردية التي سيطرت عليه، حتى عاد إلى بيته راكضًا بحماس ليجد الغرفة فارغة من الجميع،

إلا جدته ووالده المكلوم يبكي بناته السبع، بينما تُسمّم أمه العجوز مسامعه:

- قتلتك ما تدخّش مرات أب على بناتك، أديها سممتهملك.
سبع عرايس راحوا فطيس يا أبو البنات.
جلس رفعت بجواره متجاهلاً ترهات جدته الجاهلة، وربت على كتف أبيه.

لم يفهم حينها أن أمه هي التي دفعت ثمن جريمته، وقُبض عليها بتهمة تسميم البنات السبع، بدافع أنها زوجة أبيهن القاسية التي تبغضهن. على الرغم من أنها كانت حقاً تسيء معاملتهن وتكثر من ضربهن وسبهن، فإن الأمر لم يكن ليصل قطُّ إلى حد تسميمهن. ومَن يصدقها، ومَن يشك أن تلك الجريمة هي فعلة الصبي ابن السابعة الذي مقت حروبه اليومية للبقاء، وقرر الاستئثار بالحياة بمفرده؟

بعد موت البنات السبع وشنق الأم، اعتزل الأب الزواج، وقرر أن يكرس الباقي من حياته في العناية بوحيده. فبدلاً من الصرف على عشرة أفراد، قُسم الدخل على اثنين.

تحولت وجباته من لقمة إفطاراً وملعقة أرز غداءً وأمعاء خاوية عشاءً، إلى ثلاثة أرغفة وبيض وفلافل وجبن وفول إفطاراً، وطبق كامل من الأرز ونصف فرخة وخضار مطبوخ غداءً، وزبادي ومربى وفاكهة عشاءً.

ربما لم تُحل صراعات الفصل والمدرسة ومواصلات النقل العام، لكنه على الأقل استطاع أن يحسن من مستواه الدراسي مستعيناً

بفصول التقوية التي تمكن أبوه من دفع ثمنها له حتى حاز مجموعاً أدخله كلية الطب.

تخرج رفعت بامتياز، وعمل بمشفى عام، وتخصص في العمليات المحرمة والمجرمة، حتى أصبح خبيرَ الإجهاض الذي جنى ثروته وأمواله من قتل الأجنة.

ارتقى في المجتمع، وانضم إلى العمل بمشفى خاص، وبوفاة أبيه تخلص من أصله وتزوج ابنة صاحب المشفى، ليتحول من مجرد طبيب ماهر له عيادة خاصة، إلى شريك بالمشفى يتابع حالات النساء ويسمح لهن بوضع طفل واحد، وإن عدن إليه مجدداً بحمل جديد فليكن عقابهن سم «الريسين».



دعك رفعت عينيه، وقرر أن يذهب إلى الحمام لقضاء حاجته. دخل الحمام ذا البلاط الأبيض المشروخ الذي تنتشر به بقع داكنة لا داعي إلى تحليل مصدرها.

تخير مقعداً يجلس عليه، وجذب ستارته الصفراء ذات البقع البنية ليستر نفسه، بينما بقي العسكري واقفاً في الخارج ينتظره حتى يفرغ. ما لم يعلمه رفعت، هو أنه ليس الوحيد الذي له علاقة باللواء تحسين سرور، وأن لغيره واسطة أقوى تُسمى الدكتورة آمنة الدَّعْش. نظف نفسه ونهض عن مقعده متقزراً من العفن المهيمن على المكان، وخرج ليجده ينتظره بمفرده ويده موسى.

وضع سالم موسى بجيب قميصه، ونظر إلى رفعت متفحصاً إياه ومراقباً حيرته، ثم قال:

- بما إنك دكتور، تعرف يعني إيه سيكوباتية؟

ابتسم ساخرًا:

- أكيد.

- أصلهم صنفوني إني سيكوباتي. سلوان قالت لي إن السيكوباتي

هو واحد بيقتل الناس بدم بارد بدون دافع ومن غير ما يحس

بتأنيب الضمير أو الذنب ناحيتهم. أنا كنت بقتل علشان دي

الحرفة الوحيدة اللي الحياة علمتهالي، وإنت بتقتل علشان

فاكر إنك بتأدي خدمة للمجتمع.

رفع حاجبيه مختلًا بنفسه:

- صحيح.

- يبقى أنا وإنت سيكوباتيين. لا أنا ولا إنت بنفكر في حياة الناس

اللي قتلناهم، ولا في إن موتهم هياثر على اللي يخصوصهم إزاي،

لدرجة إننا ممكن ننسى حتى إننا قتلناهم.

- مش صحيح. أنا...

- إنت ناسي حتى أنا مين. ناسي إنك سممت مراتي وهي حامل

في توأم لمجرد إنك شايف إننا هننقص النيل بـقنين مية.

نظر إليه رفعت للحظات متفرسًا ملامحه:

- إنت شريك هادي اللي كان عايز يخلصه من مراته!

- صح يا دكتور.

اقترب سالم من رفعت حتى كاد يلتصق به، ثم قال:

- أهم صفة في السيكوباتي إنه نرجسي، مستحيل يسبب حاجته لحد،

أو يسمح إنها تتأخذ منه غضب. وإنت خدت مني ثلاث حاجات.

ضرب رأسه الأسيب في الحائط الأبيض، فارتطم رفعت بالبلاط البارد بعنف.

اعتلاه سالم، ولكن الطبيب القاتل باغته بلكمة جعلت فص خاتمه الضخم يصيب قرنية سالم اليسرى فنزفت.

ثأثرُ يعميه الألم والغضب والدماء السائلة من عينه. أحكم سالم قبضتيه على عنق رفعت ليرفع رأسه ويهوي به عدة مرات على الأرضية المبتلة بسرعة كادت تسحب روحه وتكتم أنفاسه، خاصة وقد زاد ضغط إبهاميه على حنجرتة.

لم يكتفِ سالم بأنينه المكتوم والرعب الساطع من عينيه وهو يخنقه ويرطم رأسه، أراد أن يُسرّع العملية على الرغم من أنه يعرف أن أمانة هيأت له الأجواء حتى لا يقاطعه أحد قبل أن ينهي على خصمه. في حركة خفيفة لوح رقبة رفعت باحترافية، فكسر عنقه منصتاً لصوت الطرقة التي أعلنت انتصاره على كل من آذوه وسلبوه أسرته.

نهض سالم عن جثة رفعت، وألقى بنفسه أرضاً مستنداً إلى الحائط. كان هادي على حق، أن تقتل بيديك العاريتين من دون أي أسلحة، لهو شعورٌ عظيم بالصولة.

على الرغم من ارتياحه من أنه خلص حقه واقتص لنفسه، فإنه شعر بآلم ينهشه.

ليس آلم عينه التي طالها رفعت وجعلته يلهث ويضغط عليها بعد أن غطاها الألم بالظلام، ولكنه أسى كل ما سبق من مرارة الحياة البسيطة وضرورة تنفيذ قراره الذي اتخذ منذ أن بدأ عمله كقاتل.

أخرج من جيبه الموسى الذي أرسلته إليه آمنة على أساس أنه السلاح الذي سيحتاج إليه لذبح رفعت، لكن سالم كان له رأي آخر.

وضع حد الموسى على عنقه، ولكنه تفاجأ برعشة في أنامله. صعد صدره وهبط حتى رآها، تقف أمامه بثوب فرعوني أبيض شفاف يزين ياقته جعران فيروزي يخرج منه جناحان من ذهب كجناحي ماعت إلهة العدل.

حليمة السمراء ذات البهاء النيلي، تجلت له ومشت بطرف ثوبها فوق الدماء المتناثرة، حتى جثت على ركبتها أمامه، ونظرت إلى حال ولدها بأسى:

- فقدت عينك يا سالم؟

امتلاأت عيناه بالدموع، وارتعش وبكى في حضرتها، وقال:

- حاولت أحافظ عليها يأمًا. ما عرفتش.

مدت يدها الرؤوفة متحسنة عينه التي تؤلمه، وابتسمت له بحنان كما اعتادت، ثم نظرت إلى الموسى وهي تمسح دموعه بأناملها، وتشير إليه مشجعة إياه:

- تعالى يا ولدي، كفاية كده. ما اشتاقتلش ولا إيه؟

ابتسم مطمئنًا، ونظر إليها متحمسًا للبقاء معها، ليعاوده الشعور بالحنان والحب ثانية.

أحكم مسكة الموسى الحاد ورفع رأسه، وبحركة دائرية واحدة نحر شريانه السباتي بالعمق الكافي، لتنفردماؤه بغزارة وتنتهي حياته.

غلبته الحياة كما غلبت مَنْ سبقوه، وأرجعته خاسراً.
لقد خمن أنه بقتل نفسه سيتغلب على الدنيا ويسلبها نفوذ تحديد
لمصيره، ولكن محاولاته هو وأقرانه السيكوباتيين للنجاة وقلْب زمام
الأمور كانت عبثية ولا تعكس شيئاً، غير أنهم لا يجيدون سوى لعب
الضحية. فكيف يخيل للشاة أنها قادرة على الهرب من جزاها إذا
تظاهرت أمامه بأنها سبع؟



telegram @
yasmeenbook

شکرو عرفان

د. نیک زیلجر
د. دانیال کورتنز
د. کنت ا. کیهیل
د. موريس ب. هوفمان
د. شاسيتي س. نوريس
د. لاري ميلير
د. جون وايتهد
د. لويزه مهنة
ا. علي راجح برکات

الكاتبة

وُلدت ميرنا المهدي في حي المعادي بالقاهرة، وتخرجت في مدرسة ليسيه الحرية في المعادي، ثم في كلية الألسن جامعة عين شمس. تخصصت في أدب وترجمة اللغتين الفرنسية والإسبانية. حازت عدة جوائز أدبية من سفارتيّ كندا وفرنسا والمركز الثقافي الفرنسي، لتركّز بعدها في كتابة أدب الإثارة والتشويق.

صدرت لها عدة روايات: «قضية ست الحسن: تحقيقات نوح الألفي - الكتاب الأول»، و«جاز وروك - قائمة أغاني السفاح المثالي»، و«صديقي السيکوباتي»، و«قضية لُوز مُر: تحقيقات نوح الألفي - الكتاب الثاني»، و«دليل جدتي لقتل الأوغاد» (القائمة الطويلة لجائزة كتارا الأدبية)، و«قضية عنب الثعلب: تحقيقات نوح الألفي - الكتاب الثالث»، و«قنبلة للاستخدام الشخصي».

للتواصل مع الكاتبة

Email: mirnaelmahdy.1@gmail.com

Facebook: www.facebook.com/MirnaElMahdyWriter

X: @Mirna_El_Mahdy

Instagram: @mirnaelmahdy

Goodreads: [ميرنا المهدي](#)

صور هذا الكود بكاميرا هاتفك
للتواصل مباشرة مع الكاتبة:

